منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية
سلسلة الدراسات التاريخية - 17

أبحاث فى تاريخ ليبيا الحديث والمعاصر

تأليف
عمرو سعيد بغنى

151
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
1996

ملك جمعية
أبي إسحاق إبراهيم أطفيش
لخدمة التراث

منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية
سلسلة الدراسات التاريخية - 17

أبحاث فى تاريخ ليبيا الحديث والمعاصر

تأليف
عمرو سعيد بغنى

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
1996

حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر
مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية
طرابلس - ص.ب. 5070
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى
رقم الايداع: 1088/89/ - دار الكتب

الإهْداء

إلى وَالِدَىَّ. . . مَنْ مِنْهُمَا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَةِ اللهِ، وَمَنْ مِنْهُمَا يَنْتَظِرُ، بما أَسْدَيا لى من فضلٍ فأحمد اللهَ وأُثنى عليه.

إلى آلِ بَيْتِى الأَصْغَرِ بمَا كانوا لىَ السَّنَدَ والعَوْنَ، وإلى وَلَدِى خَالد مِنْ بَيْنِهِمْ أُبَادِلُهُ الهديَّة.

إلى آلِ بَيْتِى الأَكْبر مَرْكَز جِهَادِ الليبيِّينَ للدراساتِ التاريخيَّة بِمَا يُحاولُ أَن يُعيدَ لِمُصْطَلَحِ الْجِهَادِ أَصالَتَهُ وبَهَاءَهُ. . . وَبمَا لاَ يَزَالُ يُرْسِى مِن دَعائِمِ الْبَحْثِ والدَّرْس. . . إلى كلِّ مَنْ تَتَأَجَّجُ بِهِمْ حركَتُهُ. . . آمِلاً، وَمُتَمنِّياً عَلَى الله أَنْ يَظَلَّ وألاَّ يَكِلَّ.

إلَيْهِمْ جَميعاً عَسَى أَنْ يَحْظَى لَدَيهِمْ بالقَبُولِ جُهْداً متواضعاً فى زَحْمَةِ الجُهودِ الكُبْرَى.

بسم الله الرحمن الرحيم

«مقدمة»

الحمدلله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله محمد ﷺ، وبعد فقد جاء هذا العمل نتاج مرحلة من كد العمر، ومحاولة لا ترى لنفسها غير الذى أراده الله لها، ولكنها كانت تلح علينا إلحاح إخوة أحبة فى مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، اطلعوا على بعضها، وذهب الرأى فى اتجاه اصدارها مجموعة فى كتاب، ولقى الأمر صداه فى النفس، فكانت الاستجابة عودة الى كتابات لنا كانت أيضاً قد استغرقت منا زمناً وعناء، وبصرف النظر عن القيمة التى تحتويها فاننا نتمنى على الله أن تشكل عملاً مخلصاً، فيه ما يمكن أن يقدم للقارىء الكريم، وأن يثبت - على الأقل - جدوى طرح بعض القضايا التاريخية التى بدورها كانت ملحَّةً، علماً بأن جهدنا يظلُّ الجهد القاصر، باعتبار بشريته، فالله نحمد، أن مكَّن له كمحاولةٍ أن تقوم، وأن تصبح واقعاً يتمثل فى مادته، من دراسات نشرت على فترات فى مجلة الشهيد، إحدى منشورات المركز، وقد عمدنا فيما نحن فيه إلى هذه المادة فأجرينا على بعضها اليسير من التعديل أو التحوير وأضفنا اليها فى عمومها دراسات ثلاثاً لم تنشر بعد وهى: -

1) مفاوضات خلة الزيتونة.
2) من اشكاليات القانون الأساسى لحكومة قطر طربلس سنة 1919 م.
3) هوامش واستقصاءات حول مذكرات العسكرى.

واذا كانت من كلمة فى المنهج؛ فان البحث الذى يفرض نفسه على الكتابة التاريخية انطلاقاً من خطة هذه المؤسسة (مركز جهاد الليبيين) العلمية أولاً، ومن عناء الباحث واختياراته، إن هذا البحث صار يعيد النظر فى ما كان متعارفاً عليه فى التَّنْظير الغربى من أن التاريخ هو ما تقوله الوثائق[1]، وكان لذلك يعمل على رصفها والتوفيق بينها بما فى ذلك من آلية التأليف، تلغى بدورها شخصيات المؤرخين وذواتهم بحيث تصبح فى ظلها نسخاً مكررة، على أنَّ ظهور المدرسة النسبية أدى الى حسم الخلاف حول ما كان يعرف بالحقيقة التاريخية، لأنها أثبتت أن الحقيقة نسبية على الدوام وتأخر ذلك الأسلوب التقريرى، وصار الأمر الى المنطقية العلمية التي يبدو عليها التواضع، فهي تقف عند حدود الاجتهاد، ولا تسد أبواب البحث، ولأن التاريخ لن يكتب بالدقة ولا الكمال، ولأن بعض أسراره تظل خافية باستمرار، فإنَّ اعادة النظر هذه تكشف عن مصدر آخر صار اغفاله، أو التغافل عنه، هو المصدر الشفهى وبعد أن ظل المصدر المعوَّلَ عليه ـ كما أسلفنا ـ وإطلاقاً هو المصدر المكتوب، لقد تبين الآن فى وضوح أن الرواية الشفهية أصبحت تحتل مكانتها (كوثيقة مسموعة)، لعل من أبسط مستجدات رفع تهمة القصور عنها، واثبات قيمتها العلمية، أن الوثيقة المكتوبة كثيراً أو غالباً ما كانت مصدراً شفهيّاً، ثم ان هذا المصدر الشفهى الجديد القديم، ينطلق الآن من ضروراته وجدواه، فى نوعين من الكتابة التاريخية:

1) كتابة تاريخ الشعوب لا الملوك والقادة وحدهم، بما يمكن أن يحويه من عمق اجتماعى سياسى.
2) كتابة التاريخ الثقافى بما يمكن أن يحويه من مشمولات فكرية تراثية، على ألا يوغل الباحث فى الحقب الأبعد، وأن يتعامل معها بالحذر اللازم كلما أوغل الزمان فى بعده، وذلك لما تتطلبه الدراسة فى هذا الجانب من مستلزمات بحث.

(1) د. شكرى نجار، تطور فكرة التاريخ عند المؤرخين، مجلة الفكر العربى، العدد 27، أيار (مايو) حزيران (يونية) 1982، بيروت ـ لبنان، ص 33.

وهكذا تثبت الرواية الشفهية أحقيتها كمصدر، بحيث تنتقل من صفتها المجردة (بالشفهية)، وما تتضمنه الصفة من قصور وتخلف عن (الوثيقة المكتوبة) وبما توحي به أولاهما من عدم ثقةٍ ووثوقٍ، وهى إذاً حالُ تشكيكٍ فى قيمتها، إلى حالٍ أخرى تعيد لها مكانتها التاريخية، ولكن قد يقول الرأى الآخر إن أصحاب المدرستين التاريخيتين عموماً يستخدمون المصدر الشفهى حين يحولونه إلى مكتوب، وحين يتحول مخزون الذاكرة الى (ذكريات)[2] وهنا تبدو حجة المصدر الشفهى بيِّنةً على فعاليته، ولعل تلك الذكريات التى سجلت (كرواية شفهية) صارت الى التألق واثبات القيمة حين قُيِّضَ لها فى عصرنا هذا من يبرزها كمطبوعات وكلنا يعلم مدى تأثير الحرف المخطوط فما بال المطبوع على الذهن بعامة.

وهكذا يمكن القول بأن المصدر الشفهى يسجل قفزة نوعية هامة تعيد له مكانته المفقودة، وبحيث يستغرق مادتَه مصطلَحُ (الوثيقة المسموعة) قبالة صنوها (الوثيقة المكتوبة).

ولعلنا حين نستخدم (الوثيقة المسموعة) كمصدر مكمل أحياناً أو أصيل فى أحيان كثيرة أخرى، نكون قد وضعنا خطانا على طريق منهج علمي متكامل، وبخاصة بعد أن أدركنا أن اعتمادنا على المصدر المكتوب وحده كان خطراً تمثل فى (أنه مصدر الطرف الغالب أو الأقوى)[3] وانه فيما عدا (الوثائق العفوية) تلك التى تبرأ من كونها متَّخَذَةً فى الأساس لهدف التاريخ، أى أن

(2) انظر بشأن مصطلحى المذكرات والذكريات مساهمتنا المنشورة فى العدد الخامس من مجلة الشهيد والتي نعيد نشرها فى هذ الكتاب بنفس العنوان: (قراءة جديدة فى ذكريات عزام). وعلى أية حال فهناك فرق بين ما يسمى بالمذكرات وما يسمى بالذكريات لأن الأولى منهما خواطر وانطباعات أو معلومات يُحررها صاحبها فى حينها، بحيث لا يتكون حجاب زمنى بينها وبين تحريرها، أما فى الثانية فان التحرير يقع لاحِقًا من قبل صاحبها عينه، أو تسجل نيابة عنه. وهى إذن رواية بالمفهوم العلمى الذى تبدو تطبيقاته العلمية فى مؤسسة جهاد الليبيين منذ 1977 م وحتى الآن:

(3) أنظر د. مسعود ضاهر، التاريخ الأهلى والتاريخ الرسمى، دراسة فى أهمية المصدر الشفوى: الفكر العربى ع 27، 1982، ص 19.

محررها لم يكن يعنى بها اثبات قضية أو اقامة حجة أو دفع تهمة الخ[4] وانها غالباً ما استغرقها (أسلوب الانشاء) فإن ما عداها قد لا يبرأ من الانحياز أو التبعية. واذا كان لنا فى علم الرواية الاسلامى ما يشفى غليلنا من حيث إثبات قيمة الرواية والانتصار لها، بل ووضعها فى المرتبة المعتبرة من المصادر، فإن بعضاً من عملنا هٰذا كان يفيد من الوثيقة المسموعة الى جانب افادته من الوثيقة المكتوبة، ولا نرى أن هناك ما يدعو الى تقديم أى منهما على الأخرى، بل ان الجهد يجب أن يصرف نحو العناية فى كل ذلك بالتحليل والتعليل والاستنتاج، وهى خيوط نرجو أن تتبين من خلال هذا العمل بعامة.

وفى الطرف الآخر من التعريف بجوانب الموضوع يجدر بنا أن نشير الى أن هذا العمل فى مجمله، يُحاول أن يتخذ المنحى التخصصى فى حركة جهاد الليبيين، وأن يلقى نظرة سريعة على جوانب متفرقة من الحركة المغاربية بعامة، لما كانت تمثله العلاقة الوطنية والمغاربية الانسانية من صلة، وما تفرضه من رابطة عضوية لا منفكة، وحدويةٍ فى جذورها تسير فى عفوية نحو الاتفاق والوحدة، ولقد نلمس بوضوح أنها فعلت ذلك على مدى التاريخ، ووقائع التاريخ، وقد نتبين ان ما جدَّ من عراقيل وما قام من حدود؛ لم يشكل عقبات حقيقية فى طريق التواصل والتوافق والتجانس، ذٰلك أن هذه الرابطة كانت تقود ـ على الدهر ـ الى الفطرة، وتكمن فى الطبع، مشكلةً روحَ الوطن بالمعنى الواسع، والعلاقة الجامعة، لِمَنْ يقف من البشر على الأرض المتصلةِ المتصلةِ، مقيمةً على الواقع أحكامَ الأصالة والتاريخ فى صنع قيمٍ خصوصيةٍ مغاربيةٍ متميزةٍ فى عمق حركة الجهاد.

(4) أنظر بشأن الوثائق العفوية مساهمتنا المنشورة تحت عنوان (ملاحظات حول عيِّنةٍ من وثائق الجهاد)، على العدد الأول من الوثائق والمخطوطات، من منشورات مركز جهاد الليبيين، 1986، ص 7 ـ 23.

الفصل الأول

الصُّفُوفُ القَبَلِيَّة*

«دراسةٌ فى أصولها وآثارها على حركة الجهاد المغاربية»

إطلالة عامة :

إن الدارس المتتبع لحركة الصفوف فى نشأتها وتأثيرها فى قطاع عربى كالمغرب، وفى بلد منه على وجه الخصوص كليبيا لا بد أن يجد نفسه مضطرّاً إلى العودة إلى جذور القضية، وسيجد أن تلك الجذور ضاربة فى أعماق التاريخ، وربما يقتنع بالفكرة القائلة بأن الحياة القبلية والبدوية عموماً بما فيهما من صفوف وأحلاف، يعبران عن علاقة حتمية للانسان بالأرض، تلك التى تنجم عن ظروف طبيعية أو بشرية أو عن كليهما معاً، تدفع ببعض الجماعات البشرية إلى السكن فى البوادى واتخاذ أنماط من الحياة تتمثل فى الرعى والزراعة البسيطة، مع غلبة الجانب الأول منهما وسيادته مع الاضطرار المستمر إلى دفع تسلط القوى الأخرى وغالباً ما تكون على جانب أكبر من التنظيم والقوة، وهكذا ربما يستمر الصراع ويطول بين البادية والحاضرة أو بين الغريب والأصيل، تضطر معه الجماعات الصغيرة إلى التكتل فى مجموعات أكبر، عرفت مثلاً لدى القبائل العربية قبل الاسلام بالأحلاف وقد مارست أدوار العداء المطلق، ثم عرفت تلك الأحلاف (فى ما نراه) تطوراً تاريخياً حتمياً لرؤى أخلاقية نجم عنها عقد أحلاف الفضول التى شهد رسول الله ﷺ طرفاً منها فى

* نشر هٰذا البحث فى العدد الرابع من مجلة الشهيد من منشورات مركز جهاد الليبيين، الصادر فى شهر أكتوبر سنة 1983 .

دار ابن جدعان وامتدحها بقوله: «لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن تكون لى به حمر النعم، ولو أُدعى به فى الاسلام لأجبت[1]» من أهم نتائجه أن يكونوا على الظالم حتى تُرد مظلمة المظلوم عليه، وعندما جاء الاسلام جمع تلك الأحلاف جميعاً فى صف واحد، وامتدح الله المقاتلين فى سبيله صفاً، على أننا لا نريد الخوض فى مجال التنظيمات العسكرية الاسلامية؛ أولا لأنها اختلفت تماماً عن سابقتها، وثانياً لأن القبيلة ـ وإن ظلت بالضرورة وحدة اجتماعية ووحدة قتالية لا غنى عنها ـ فان تلك الوحدات القبلية الصغرى ذابت شيئاً فشيئاً تحت وحدتي المهاجرين والأنصار، ونحن لا نقول عنهما وحدتين إلا من باب التجاوز لنذكر أن وحدتي المهاجرين والأنصار كانتا فى الحق وحدة واحدة بعد أن آخى رسول الله ﷺ بين كل مهاجر وأنصارى، وإن كنا نجد الأمور على عهد خليفته أبي بكر محكومة بالولاء الصادق نحو سنة رسول الله، ذلك الولاء الحرفى نجد عمر يشذ عنه بالاصرار على الفهم المجتهد الذى يصرُّ على قوله: «أنه لن يؤمَّر عليهم إلا أولهم انتداباً» فإن نظام القبيلة ظل مأخوذاً به فى مجال العطاء، وكما أملت مراعاة الوحدة القبلية ضرورات الحرب فقد أملتْها الضرورات الاجتماعية الناجمة عنها، فعندما تم انزال (إسكان المجاهدين) وإقرارهم بمعسكرات خارج المدن كان ذلك أمراً معتبراً.

ومن الأمور التى تسترعى الانتباه لدى النظر فى تطور التنظيمات الاسلامية أن نجد عمرو بن العاص يكتشف أن الوحدة قبلية وحدها كانت غير كافية عندما عرف أن مجموعات قبلية صغيرة تريد حلاً لمشكلة انتمائها فأمرها بأن تتجمع وتقف عند (الراية) التى لم ينسبها لأحد فكانت بذلك كالنسب الجامع، ولعل هذا التجمع تحت الراية هو ما تطور إلى خطة مبتدعة تحت اسم «اللفيف»[2] وقد أعطى اسماً جامعاً وليس اسم قبيلة معينة لأنها كانت تضم

(1) الحافظ بن كثير: البداية والنهاية، ط 2، جـ 1، بيروت لبنان ـ مكتبة المعارف، 1977، ص 291.

(2) د. أحمد بدر، التنظيم العسكرى عند العرب المسلمين، مجلة دراسات تاريخية، عدد 4، جمادى الثانية 1401 ـ نيسان (ابريل) 1981، ص 152، واللفيف ما اجتمع من

أخلاطاً من قبائل عدة، ولسنا نأتي بجديد عندما نشير إلى أن المسار تغير فى ما يخص التطور الاجتماعى، إذ عادت القبيلة لتبرز كظاهرة حلفية خلال حروب الفتنة الكبرى، ولتزداد الأمور سوءاً فيما بعد لأن محصلتها التاريخية كانت ظهور دويلات فى الأقاليم بعد ظهور الدول من أمثال الدولة الأموية فى الأندلس وغيرها لتنتهى الأمور إلى ظهور أكثر من خليفة وأكثر من أمير للمؤمنين، على أن ما يمكن ملاحظته أن مركزية الدولة حتى أواسط الفترة العباسية تقريباً كانت تفرض سلطة العاصمة على مختلف الأقاليم، ولكن بوهن وضعف الدولة وبظهور الممالك والامارات للأسباب التاريخية والموضوعية نزعت المشيخات إلى الاستقلال وتطاولت زعاماتها إلى السلطة، ودخلت القبائل أحياناً كثيرة فى صراعات مع الأمصار، التى لا تكف يدها عن التدخل فى شؤون البدو الأمر الذى أشار إليه ابن خلدون فى المقدمة حينما قرر: «أن صاحب المصر من ملك أو ما أشبه يبذل جهده كى يضمن انقياد البدو له حتى يضمنهم إلى جانبه إما طوعاً ببذل المال لهم ثم يبذل لهم ما يحتاجون إليه من الضروريات فى مصره فيستقيم عمرانهم، وإما كَرْهاً إن تمت قدرته على ذلك ولو بالتفريق بينهم، حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقين فيضطر الباقون إلى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم[3]». وفى الحق كان هذا ينطبق على حال بلاد المغرب التى اضطرت خلال الفترة العبيدية والحفصية ثم العثمانية إلى حياة من الفوضى تنزع فى أغلبها إلى الحروب الأهلية والصراعات الصفية، وقد حمل الشيخ محمد ماضور فى مقدمته لكتاب الباشى حمل ذلك كله «على سياسة العبيديين وعقيدتهم الغامضة وسياستهم المثيرة للحزازات، التى شجعت بعض القبائل على الغزو

الناس من قبائل وأخلاط شتى (وجاؤوا بلفيفهم): جبران مسعود الرائد، ط 2 بيروت، دار العلم للملايين ـ 1967، ص 1292، وكذا (اللف) جمع (ألفاف ولفوف) الصنف من الناس، الحزب من الناس، القوم المجتمعون (جاء القوم ومن لف لفهم أى من عد فيهم، نفس المصدر، ص 1291.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ط 3، بيروت مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر، 1967، ص 270.

واقتسام الأراضى اقطاعاً بينها، الأمر الذى جعلها تنقسم على نفسها فى عروش متعادية دأبها الغزو والفتك لتعود الحياة قبلية بدائية قوامها الغارة والنهب»[4].

وقد أكد الأستاذ البارونى تلك الحالة على عهد بني حفص بقوله: إنه قد ازداد نفوذ الشيوخ والقضاة على مدنهم وقراهم وقبائلهم فقطعوا صلاتهم بعاصمة بلادهم[5] وليسود عهد شبيه بالعهد الاقطاعى فى أوروبا بل أشد منه حلكة واستبداداً «واستفحلت النعرة القبلية، بدلاً من الروح الوطنية الصادقة، وكثيراً ما تنشب الحروب الطاحنة بين القبيلتين المتجاورتين لأتفه الأسباب، وكثيراً ما يتقاتل الأخوان لأبسط خلاف»[6].

أما المشرق فلا يُستثنى من دائرة الصراع إذ تجدد الصراع فى الشام خصوصاً بعد غلبة العثمانيين وهو صراع عصبى لا شك فيه، واستمر هذا الصراع قائماً حتى القرن التاسع عشر، ولكنه فقد - على ما يبدو - مضامينه العصبية، فأصبح على حد تقدير الدكتور عمر عبد العزيز: «لا يمت إلى أصول جنسية أو قومية، بقدر ما يرجع إلى خصومات أسرية، وقد اصطنعت القيسية لها علماً خاصّاً أحمر اللون وشارته قرنفلة حمراء، واتخذت اليمنية علماً أبيض اللون شارته زهرة خشخاش بيضاء»[7]، وبرغم ضعف تلك الروابط العصبية، فقد يقتضى أن تصطدم بعض التجمعات كالدروز مثلاً بقوات (محمد على) 1837، بسبب اجراءاته القاسية وخاصة منها التجنيد وتجريد الناس من أسلحتهم[8].

(4) الشيخ محمد ماضور، مقدمة الكتاب الباشى للعلامة الوزير الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز، جـ 1، تونس، الدار التونسية للنشر، 1970، ص 11 - 12.

(5) عمر البارونى، الاسبان وفرسان القديس يوحنا فى طرابلس، مطبعة ماجى، 1952، ص 9.

(6) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(7) د. عمر عبد العزيز عمر، (دراسات فى تاريخ العرب الحديث) بيروت، دار النهضة للطباعة والنشر، 1978، ص 219.

(8) أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، جـ 2، القاهرة، قصر العينى، 1973 ص 968.

وفى مصر تضطرم صراعات دموية منذ أوائل القرن السابع عشر متخذة أشكالاً من التحالفات عرفت (بالصفوف)، ظهر صفان عرفا بصفى (سعد وحزام)، غير أن أهل الحضر عرفوا الانقسام أيضاً بظهور صفين عرفا (بالفقارية والقاسمية)، وقد تحالفت الفقارية مع صف سعد وتحالفت القاسمية مع حزام، ومع بداية القرن التاسع عشر يتمكن التحالف المملوكى من السيطرة على الدلتا ويقتصر الصراع على أهل البادية والحضر، إذ كان «البدو لا يكفون عن مزاولة ضروب التعدى والسلب والنهب، ويعتقدون أن ما يكسبونه من هؤلاء السكان إنما هو من الغنائم الشرعية والفىء[9]» ويبدو أن التحولات الاجتماعية التى فرضتها ظروف المواجهة العسكرية بين محمد على والعثمانيين، انتهت إلى القضاء على سائر التجمعات الخطيرة والصفية البدوية، بعد أن سيطرت قوى السلطة النظامية على الدلتا والصعيد، وانتهى الأمر إلى الخضوع الجماعى التدريجى، وتحول السكان نحو الجندية أو الاستقرار الريفى والحضرى ومزاولة مهنتى الزراعة والتجارة والحرف البسيطة، ولم تعد للبادية تلك الصولة التى كانت لها.

أما فى ليبيا والمغرب فإننا نجد الأمر خلافاً لما رأينا، إذ ظلت القبيلة تلعب دوراً بارزاً وخطيراً كأنما كتب لها خلال الفترة العثمانية التى امتدت حتى أواخر العقد الثانى من القرن الحالى فى ليبيا على سبيل الذكرى، وكان هذا الدور القبلى موازياً لنشاط رسمى مارسته سلطات الدولة العثمانية، حافظ على النمط الاقتصادى الموروث عن فترة ضياع الأندلس وتأخر بغداد وحلول الهلاليين بالمغرب وانقسامه بما رافق ذلك من رجعة اتسمت بالاقطاعية الريفية وممارسة الزراعة والرعى التقليديين، الأمر الذى جعل بعض الباحثين وعلى رأسهم الدكتور سعيدونى يميل إلى القول بأن الدولة العثمانية كانت تعمل على المحافظة على ذلك النمط وتشجعه، وقد نجد المبرر العضوى والطبيعى لمسار السياسة الاقتصادية العثمانية على ذلك النحو فى الجزائر، أن للنمط الاقطاعى جذوراً فى

(9) د. عمر عبد العزيز، المصدر السابق، ص 217.

التقاليد العسكرية العثمانية على وجه الخصوص، لأن (التيمار)[10] كإقطاع عثمانى يتشابه من حيث الوظيفة مع (المخزن)[11] كإقطاع مغربى متطور عن ولاء قبلى للسلطة، ذى أثر واضح على ظهور الكيانات الصفية المناوئة.

المخزن والسيبا أصلا تناقض: ـ

يمكن القول بأن مجمل العناصر البشرية الموالية للدولة العثمانية فى الجزائر تتمثل فى الملاك الأتراك ـ الكراغلة ـ الحضر ـ القبائل المخزنية، وتتشابه التركيبة المذكورة مع نظيرتها فى تونس، وإلى حد ما فى طرابلس الغرب (ليبيا)، حيث تعتمد السلطة باستمرار على هذه المجموعات غير العرقية، ذات المصالح المتشابهة فى تهدئة القبائل الثائرة، وتأمين جباية الضرائب (الغرامات) المستحقة، وفى حالة كهذه يقتضينا البحث الموضوعى أن نحدد صفة وعلاقة القبائل المخزنية أو العشائر المخزنية بتلك المجموعات، فينبغى أن نقول بأنها تلك التى

(10) التيمار: إقطاع عسكرى محدود بأنظمة استخدمته الدولة العثمانية كحوافز لفرسانها ما داموا يؤدون واجباً عسكرياً مناطاً بهم، أنظر: ـ دائرة المعارف الاسلامية، مجلد 6، مادة تيمار، ص 146، وما بعدها.

(11) تناول الأستاذ الزميل عمار جحيدر مصطلح المخزن فى محاضرة له تحولت إلى دراسة نشرت بمجلة البحوث التاريخية، العدد الأول يناير 1984، فقال تحت عنوان: أبعاد نظرية لتاريخ ليبيا الاجتماعى، ص 29 وما بعدها، إنَّ «المخازنية من المخزن: ـ لفظ متعدد الدلالة فى بلاد المغرب العربى، فقد كان لفظ المخزن يعنى فى الاصطلاح المغربى (الأقصى) قديماً وحديثاً (الحكومة) لحاجتها إليه بالضرورة، بينا استعمل اصطلاح عشائر المخزن وقبائل المخزن فى الجزائر للدلالة على مجموعات من السكان لا تنتمى إلى أصل واحد تستوطن الأرياف، وتتمتع ببعض الامتيازات تشبه الاقطاع نظير تحالفها مع حكومة الإيالة حيث أنيطت بها مهام عسكرية»، أنظر أيضاً: ـ ناصر الدين سعيدونى: دور قبائل المخزن فى دعم الحكم التركى بالجزائر مجلة الاصالة، الجزائر، عدد 22، وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينية، 1976، ص 46 ـ 62، أيضاً لنفس الباحث: وضعية عشائر المخزن الاجتماعية والآثار التي ترتبت عليها، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 7 ـ 8 من يناير 1977 ص 70 ـ 77.
أيضاً: ـ مصطفى كريم: ـ تونس قبل الاستعمار، اى فى دى 1973، ص 144.

تكون طرفاً من أطراف هذا التحالف الواسع ففى الجزائر «ونظراً للمهام التى تكلف بها هذه القبائل يمكن وصفها بأنها قبائل ادارية لها صبغة فلاحية وعسكرية، ومن الجدير بالذكر أن قبائل المخزن هذه تتعدد ألقابها بتعدد المناطق التى تستقر فيها فهى: زمول، أو دوائر أو عبيد أو عزازة، أو مخازنية»[12].

وللأستاذ مصطفى كريم تعريف أوسع للمخازنية إذ يعتبرهم جميع أولئك الذين يعتمدون فى الغالب على مداخيلهم الزراعية، وهو يرى أن اسم المخزن أصبح لصيقاً بهم وبمناطقهم الزراعية فى بلاد المغرب عامة، حيث تعتبر تلك المناطق المستودعات التى تضم موارد الدولة وبالتبعية انتقل الاسم ليشمل كل من هو فى خدمة الدولة من المماليك والأعيان والاداريين والعلماء وشيوخ الزوايا بدون تمييز[13] تضاف إلى هؤلاء طائفة المخازنية الرئيسة التى كانت رُكناً طبيعياً للسلالة الحسينية فى تونس، حيث كانوا يتداركون الأخطار ـ حسب تعبيره ـ ويعالجون ألوان التمرد عن طريق استغلال عداوات الناس المتأصلة. وبصورة أعم فإن السلطات سواء أكانت عثمانية أم غيرها كثيراً ما كانت تعوّل على هذا التحالف المخزني فى محاولة إيجاد توازن بين الصفين، وفى أحيان كثيرة يختل التوازن فتندفع جموع المخازنية متوغلة نحو الداخل مما يضطر القبائل (السيبا) أو الشبيهة بها إلى الالتجاء نحو المناطق النائية من جبال أو بواد وصحار، وإلى ممارسة أنماط من الزراعة البسيطة والرعى المتنقل وذلك هو (التبدى)، وفى طور مركزية الدولة العثمانية وقوة بعض (الدايات أو البايات أو الباشوات) حاولت بشتى الوسائل السيطرة على المناطق الجبلية والقبلية المستعصية، فكانت تلجأ إلى وسائل؛ من ذلك تأليب قبائل المخزن وتنصيبها فى المواقع المهمة فمن تلك ـ على سبيل المثال ـ ذلك الأسلوب الذى تميز فى الجزائر بتوظيف قبائل وأحلاف قبلية منها قبائل: أولاد بو عزيز وأولاد عبدى وأولاد بوضياف وأولاد بلقاسم ومشيخة العرب، ومشيخة قصر الطير تضاف إليها: الأحلاف القبلية من

(12) سعيدونى، النظام المالى للجزائر فى الفترة العثمانية 1800 ـ 1820، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979، ص 122.

(13) مصطفى كريم، تونس قبل الاستعمار أى، فى، دى، 1973، ص 144.

أمثال: حلف عبد النور وحلف الحراكتة وحلف البرابرة وحلف الأعشاش وحلف أولاد خيار، إلى جانب استخدام الطرق الدينية كوسائل لبسط النفوذ والتحكم فى القبائل القوية، كما ظهرت صفوف واضحة منها: صف الغرابة ضد صف أولاد عبدى وصف أولاد سلطان ضد صف أولاد خيار[14].

وباحثون يرون نشأة الصفوف تونسية:

يرجع بعض الباحثين التونسيين ومنهم الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب نشأة حركة الصفوف إلى حادث بعينه هو عصيان (على باشا) لعمه (حسين باى) عام 1140 هـ - 1728 م[15] عندما قاد هذا الأخير قسماً من الشعب التونسى ضد عمه باى تونس ومناصريه ومما يشير إليه ابن أبى الضياف فى قضية النصرة هذه أنه «ممن أعان الباى (حسين) صبايحية الترك والأوجاق، وسائر دريد، والمزارقية من كافة العروش[16]. وقد انقسم الشعب التونسى إلى فريقين متقاتلين (صفين) عرفا فى بداية الفتنة بالحسينية والباشية أنصار السلطة وأنصار الثورة، ولكن بتوالى الأحداث ووقوع الوقائع الكثيرة برزت قيادات قبلية، ومن هنا فإن التسميتين تغيرتا تدريجياً بحيث عرف الصفان باسم (صف يوسف وصف شداد) ويرى الشيخ محمد المرزوقى أن النزعة الأولى سميت باسم زعيم الهمامة يوسف وهو من أولاد رضوان من قبيلة بنى همام من قبائل بنى سليم الوافدين على أفريقية فى الزحفة الهلالية، والثانية باسم (المثاليث - شداد)، وتسربت هذه التسمية إلى قبائل الجزائر وطرابلس مع أقارب كل قبيلة، واستمر العداء المستحكم بين النزعتين إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي بزمان[17].

(14) سعيدونى: الانسان الأوراسى وبنيته الخاصة، مجلة الاصالة، عدد 61/60 رمضان - شوال 1398 هـ، أوت - سبتمبر 1978، ص 45.

(15) حسن حسنى عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط 2، الدار التونسية للنشر، 1976، ص 179 - 181.

(16) أحمد بن أبى الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس، الدار التونسية للنشر، 1396 هـ، ص 139.

(17) محمد المرزوقى، الدغباجى، تونس، مكتبة المنار، 1979، ص 40.

وهكذا قد يتبين من هذه الاشارات أن نزعتى الصف كانتا موجودتين قبل العهد الحسينى بدليل أن طرفى القصر المتخاصمين استخدما تلكما النزعتين، وملاحظة أخرى أهم ينبغى ألا تفوتنا وهى أن إشارة ابن أبى الضياف تقودنا إلى القول بأن صف السلطة واضح فى انتمائه (لحسين باى) ضد على القائم بالثورة ويتمثل صف السلطة (المخزنى) فى من أعان حسين من الترك والأوجاق ودريد والمزارقية.. إلى جانب القبائل الأخرى التى ابتدأت تضع نفسها فى خدمة المخزن من بقية يوسف.

على أن «جوفى» يقرر خلافاً لما ذكرته الاشارات التونسية المتشابهة ذلك أن نظام الصف بنية دقيقة تحدد العلاقات بين القبائل الصغيرة وتربطها بمجموعة واحدة ثم إن هذا النظام أدى فى النهاية إلى نشوب حرب أهلية شاملة للسيطرة على تونس وقد عقد الصلة بين الباشية وشداد وبين الحسينية ويوسف وقد حاول الرجل تصنيف الصفوف على أساس جهوى وأحياناً على أساس عرقى، وبما أن نطاق بحثه لا يتجاوز سهل الجفارة فقد قسم المجموعتين الصفيتين فى تونس وليبيا عبر سهل الجفارة فيهما بحيث يمتد نطاق صف شداد ليضم بني يزيد ونفزاوة ومطماطة والذهيبات فى تونس والنوايل والحوامد فى ليبيا ويمتد ليضم جبل نفوسة ومنطقة الظاهر.

أما صف يوسف حسب تقديره فقد ضم عدة فروع من ورغمة منها الودارنة فى تونس ليمتد شرقاً فى ليبيا إلى بعض قبائل سرت[18].

أيضاً لنفس المؤلف: صراع مع الحماية، تونس، دار الكتب الشرقية، 1973، ص 159.

أيضاً الشيخ محمد ماضور، المصدر السابق، نفس الصفحة.

18 - EGH. Joffe: (Astrategy or Sympathy The French occupation of the Western Jefara and the village of Dahibat 1890-1891, p 3.

(18) (أى. جى. اتش، جوفى، استراتيجية أم تعاطف، الاحتلال الفرنسى لمنطقة الجفارة الغربية وقرية ذهيبات: 1890 - 1891، بحث مقدم إلى مؤتمر تصفية العلاقات العربية التركية بطرابلس، باشر فيها مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، ص 3).

نزعة الانقسام تعود إلى فترات أقدم:

أما بخصوص نسبة النزعتين زمنياً إلى الفترة الحسينية فإن الأستاذ مصطفى كريم لا يوافق عليها حين يرى: ان انقسام السكان فى الولاية إلى صفين أو أكثر يعود إلى فترة سابقة لنشوء الصراع بين حسين بن على وابن أخيه على باشا، وقد استشهد بما قاله مؤرخ سابق هو ابن أبي دينار الذى كتب فى النصف الثانى من القرن السابع عشر عن الحرب التى شنها محمد حمودة المرادى لاخضاع القبائل، وقد أكد المؤرخ أن الباى كان قد استطاع إخضاع القبائل بفضل إثارة خصومهم عليهم[19].

كما يرى الأستاذ مصطفى كريم بخصوص الانتماء الصفى أنه بمجرد أن تعلن القبيلة تحزبها لهذا أو ذاك فإن القبيلة المناوئة الأخرى سرعان ما تعلن تحزبها للصف الآخر، وأمر آخر هو أن جميع تونس الشمالية والشرقية بما فيها المدن الهامة كانت منتمية لصف واحد هو صف الحسينية «يوسف»[20] وهكذا فإن أصابع الاتهام تشير إلى أولى الأمر من أمثال الباى حسين الذى أثار النعرات القبلية وأيقظ الفتنة النائمة «عندما ظهر بسبب ذلك من جديد الداء القديم الذى كان مستشرياً بين القبائل والذى كان ذوو الحكمة من الملوك السابقين قد عنوا بازالته من نفوس العربان. . . ويقول بعض (الهمامة): إن هذه التفرقة قد دبرت بأمر الباى كى يساهم باثارة ذكرى البطولات فى تفكيك عرى الروابط التى كانت المحنة قد فرضتها عليهم[21].

وربما كان من المفيد اثبات هذا التصنيف للتعريف بانتماءات بعض القبائل التونسية طبقاً لدراسة الأستاذ مصطفى كريم[22]:

(19) مصطفى كريم، تونس قبل الاستعمار، اى. فى. دى 1973، ص 145.
(20) المصدر نفسه، ص 150.
(21) ابن أبى الضياف، جـ 3، ص 185.
(22) د. مصطفى كريم، المصدر نفسه، ص 148 ـ 149 ـ 150.
ملاحظة: أنوه شاكراً بمساعدة الأستاذ خالد ثابت الذى قام بترجمة النص عن كتاب الدكتور مصطفى كريم «تونس قبل الاستعمار» وكذلك بمساعدة الإخوة بالمركز الثقافى التونسى بطرابلس على مراجعة الأسماء طبقاً لرسمها الصحيح فى تونس.

صفوف الباشا ـ شداد	صفوف الحسينية ـ يوسف
مساكن ـ جمّال ـ القلعة الصغرى ـ أكودة ـ جبل وسلات ـ الفراشيش (أولاد مهنا ـ شكيتمة ـ الفوايد) رياح (رياح ـ أولاد سعيد ـ السواسى) ـ المثاليث (أولاد نجيم ـ أولاد مراح ـ أولاد بطاصة) ـ المهذبة ـ أولاد عيار ـ الورتانين ـ أولاد ميمون ـ أولاد يحيى ـ بنو شنوف.	القيروان ـ سوسة ـ موناستير ـ المهدية القلعة الكبرى ـ صفاقس ـ قرى الساحل تونس ـ بنو دريد ـ بنو رزق ـ أولاد عون ـ الهمامة ـ جلاص (أولاد إيدير ـ أولاد خليفة ـ أولاد سنداسن) أولاد ونيفة: (ورغة ـ شارن ـ أولاد بو غانم ـ الحمانسة دوفان ـ أولاد سيدى مولّى ـ الرغاطة) نفات ـ أولاد سيدى تليل ـ أولاد سيدى عبيد.
بنو زيد ـ حازم ـ حمارنة ـ علايا ـ الطرايفة ـ ذهيبات ـ قعود (غريب الصابرية ـ تفزاوة ـ مطماطة ـ زوارة ـ تاودجوت ـ بنو عيسى ـ جارة ـ وذرفد تبلبو ـ مارث ـ زارات ـ كتانة ـ عرام ـ قصر ـ دبدابة ـ حامة بن يزيد قبلى ـ ليماقس ـ بزمة ـ القلية ـ طومبار ـ رطبة ـ زواوة ـ رحمت ـ الغولة ـ القصور ـ البرغوثية ـ القدارة ـ البليدات ـ بو عبدالله ـ طويبات ـ الجزيرة ـ زاوية العوينة ـ زرزين ـ المنشرة ـ بشرى نصف توزر ـ نصف نفطة ـ الوديان ـ حامة الجريد ـ العياشة ـ سكت	جميع ورغمة (ودارنة ـ توازين ـ خزور عكارة) أولاد يعقوب ـ مرازيق ـ الظهرة غريب «باستثناء قعود الصابرية»[23] توجان ـ بنى زلطن ـ تامزرت ـ دويرات شننى ـ غمراسن ـ بنو بركة ـ قطوفة ـ منزل ـ مطويّة ـ شننى قابس ـ تلمين الجديدة ـ قطاية ـ المساعيد ـ القلاع الكلوامين ـ نقة ـ بنو محمد ـ نويل ـ زاوية الحارث ـ جمنة ـ غليسية ـ العوينة ـ دوز ـ أم صمعة ـ فطناصة ـ دبابحة نصف توزر ـ نصف نفطة ـ قفصة ـ تامغزة ـ شبيكة ـ ميداس.

(23) يضيف الأستاذ تشايجى: المصدر السابق، ص 198 إلى فروع ورغمة ثلاث قبائل ليصبح المجموع سبعاً، والثلاث هى: ـ الحوايا وغمراسن والجليدات.

وهناك خلاف حول نسبة أولاد سعيد لأحد الصفين فبينما يضعهم المسيو مارتل[24] حسبما ذكر الأستاذ كريم فى صف الباشا فإن ابن ضياف[25] يضعهم فى صف الحسينية على أن الأستاذ كريم يرى صحة ما ذهب إليه مارتل فى الخصوص، خاصة وان ابن ضياف كان يتحدث عن القرن الثامن عشر، كما يضع مارتل (وثيقة) فى عصبية الباشا بينما يراها حقّاً فى عصبية الحسينية[26]، وهذا يزكى ما ذهبنا إليه من أن الصفوف ليست بناءً جامداً وإنما هى حركة بشرية تعتريها مؤثرات، قد تنقلب القبيلة وتنضم إلى الصف المقابل ولكن لا بد أن تكون تلك الظروف من قوة وعظم التأثير بمكان.

لعلنا أدركنا بما فيه الكفاية أن الشعب المغاربى كثيراً ما كان ينقسم على نفسه إلى خصمين تنشب بينهما حوادث بل ووقائع حربية، ولكننا قد نميز من بين الصفين مما سبق من عرض أن هناك قبائل مخزن موالية للسلطات وأخرى قبائل أطلق عليها وخاصة فى المغرب الأقصى والجزائر قبائل «السيبا» وهى القبائل التى لا تخضع لتلك السلطات وكثيراً ما تقع الصراعات بسبب عدم الرضوخ لها، كما يطلق على أراضى المخزن (الأراضى النافعة) وأن أراضى السيبا غالباً ما تنعت بأرض الخلاء أو البارود[27] على أن هذا لا ينفى ما أورده المرحوم الشيخ المرزوقى بشأن انتقال النزعتين (وربما التسميتين فقط يوسف وشداد) من تونس على العهد الحسينى إلى الجزائر وطرابلس كما أسلفنا، إلا أن هذا التأثير ربما لم يتوغل كثيراً فى الوسط والغرب الجزائرى بل ظل مقصوراً على القبائل المتاخمة للحدود التونسية الليبية.

ولعل تشابه كثير من المظاهر والسمات وتوافقها بين ليبيا وبقية بلاد المغرب

(24) كريم عن أ. مارتل، الحدود الصحراوية الطرابلسية لتونس 1881 ـ 1911، ص 62.

(25) كريم عن ابن ضياف، الاتحاف، جـ 2، ص 113.

(26) كريم عن مارتل، ملاحظات عن قبائل الولاية التونسية بالمجلة التونسية، ص 902.

(27) سعيدونى، الانسان الأوراسى وبيئته الخاصة، مجلة الأصالة عدد 60 ـ 61 وزارة الشؤون الدينية، أوت/ سبتمبر 1978، ص 149.

مما لا يدخل تحت باب الصدفة دفع بعض الباحثين إلى اعتبار ظاهرة الصفوف أمراً مميزاً فى طباع سكان المغرب، بينما هى ظاهرة بدوية تكمن فى علاقة الانسان بالأرض وهى، إلى جانب ذلك، ربما ظاهرة عامة لا يختص بها شعب من الشعوب، فمثلما عرفت لدى القبائل العربية الصريحة عرفت لدى قبائل افريقية كالنوير مثلاً.

التجمعات القبلية بين الأصول التاريخية وعوامل التأثير الخارجية

ينعت أصحاب الدراسات الاجتماعية التجمعات القبلية البدوية بأنها تجمعات ثأرية لتميز تلك التجمعات بعوائد الثأر، فمن قائل بأهمية الظروف «الأيكولوجية البيئية»[28] فى تكوين بنية تلك التجمعات ومن قائل بالتأثير الاجتماعى السائد كاعتبار الأخذ بالثأر عنوان المجد وميزة البطولة وأن تتحصل مادة العيش من النهب[29].

بينما يمكن القول بأن العزلة البدوية ظاهرة اضطرارية، تنتعش كلما احتدت الضغوط على مجتمع بدوى أو شبه بدوى، مثل تلك التى عرفت وسادت خلال الحقبة الزمنية منذ تولى العبيديين وحتى مطلع القرن العشرين فى المغربين الأدنى والأوسط وكان ذلك متفاوتاً من فترة إلى أخرى، وقد تناول «جوليان» البناء القبلى العام لأفريقيا الشمالية فقال: «إن القبائل تنهار أو تنتصر أو تنكمش كما تشاء صدف الحرب وكثيراً ما تأكل أجزاء القبيلة بعضها بعضاً نتيجة لقيام شيع وأحزاب متنازعة داخلها، هى الصفوف: ـ المفرد الصف وهو اللف بالمغرب الأقصى، وتتحد أحزاب بعض القبائل مع أحزاب قبائل أخرى، ولذلك فإن القبائل جماعات لا تعرف الاستقرار»[30] وأيضاً فى ما يتعلق بهذه

(28) محمد عبده محجوب، مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية ط 2، الكويت، وكالة المطبوعات، 1974 ص 146.

(29) محمد ماضور، الكتاب الباشى، ص 13.

(30) شارل أندرى جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، تعريب، محمد مزالى والبشير بن سلامة، تونس، الدار التونسية للنشر، 1969، ص 81.

التحالفات تتحدث مسز توللى قائلة: «إنهم يساندون بعضهم بعضاً ويعقدون تحالفات فيما بينهم من أقصى شواطىء أفريقيا فى الغرب على المحيط الأطلسى إلى قلب آسيا تقريباً[31] وتصف مسز تـوللى المنتمين إلى تلك القبائـل بأنهم «يملأون امتداد جبال اطلس كما يقطنون فى سلاسل الجبال الموجودة فى نصف الكرة الأرضية، وما داموا ينتشرون فى هذه المجموعات الهائلة من البشر صلاباً وجفاةً فى طريقة حياتهم، ويملكون حزماً وصواب رأى فإنه ليس من العجب أن يظلوا كما هم سادة على جميع الصحارى فى أفريقيا»[32] ولكن فى مسألة السيادة هذه ما يحتاج إلى إعادة نظر مما يجعل الاجابة عن السؤال المطروح: هل كانت القبائل العربية خلال الفترة التى عاصرتها مسز توللى تمتلك السيادة حقاً على جميع الصحارى فى أفريقيا؟ أم هل إن الأمور كانت رهينة موازنات سياسية ودبلوماسية دولية كثيراً ما أنهت دور حاكم أو أسرة من تلك الأسر لتفتح صفحة جديدة من السياسات؟

إن الأمور فى الواقع كانت تتمثَّـل أساسـاً فى ذلك المـظهر من حشـود القبائل، بشكل عام تلك القبائل التى لا تجتمع على شيء سوى النهب والقتل، ثم فى الاهتمام المتزايد من قبل العقلية الاستعمارية سواء أكـانت بريـطانية أم فرنسية أم غيرهما، وتوجيهها الجهود المكثفة الجادة فى سبيل غاية محددة ألا وهى (التوغل نحو الدواخل) نحو تلك المجموعات القبلية التى تسود الصحراء! وقد نلحظ فى مستقبل التجربة العربية مع بريطانيا بالذات أن القبيلة العربية كان لها دورها الكبير الخطير حينما قررت استخدامها لصالح التمكين لنفـوذها خـلال القرنين الأخيرين، وكذلك حذت حذوها فرنسا بالفعل.

(31) مسز توللى، عشر سنوات فى بلاط طرابلس، نقله إلى العربية: ـ عمر الديراوى أبو حجلة، طرابلس ـ ليبيا، مكتبة الفرجانى، 1956، ص 70.

(32) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

الروابط الاجتماعية تتسع وتضيق: ـ

فى إطار تلك العلاقات الثأرية السائدة فى أفريقيا الشمالية خلال الفترة الحديثة وحتى المعاصرة تبدو أوجه جديرة بالمقارنة فى ما يتعلق بظروف نشأة التجمع الثأرى وتكون النسق السياسى القبلى، ربما تفيد فى التعرف على المؤثرات البيئية والثقافية على شعب ما فى هذا الخصوص، إنه لـدى قبيلة كالنـوير فى السودان مثلاً يلعب الزواج «الاكسوغامى»[33] الذى يجعل أبناء القرية وبناتها اخوة وأخوات وأمهات، فهو على هذا يحرم على راغبى الزواج أن يتزوجوا من داخل القرية، ويفرض عليهم الزواج من قرى أخرى، وهذا الزواج الخارجى ـ بغض النظر عن المعتقد ـ يوسع شبكة العلاقات وروابط التضامن الثأرى[34] الأمر الذى يختلف عنه فى ليبيا وبلاد المغرب عموماً، فإن روابط الزواج تتخذ مساراً مختلفاً، فهى وإن كانت لا تتطرف إلى حد تحريم الزواج من قُرى أخرى فإنها لا تكاد تسمح بالزواج من خارج القبيلة، وهى بهـذا تضيق من شبكة العلاقات والروابط الاجتماعية وتضيق من حلقة التضامن الثأرى، فهى بهـذا تبقى على وحدة البنية القبلية على حساب التفتح الاجتماعى الوطنى.

عوامل أخرى وراء استمرار العلاقات الثأرية فى ليبيا: ـ

يمكن ارجاع تلك العلاقات الثأرية ودوام استمرارهـا إلى عدة عـوامل وأسباب أهمها فى رأينا ما يلي:

1 ـ **الملكية الجماعية**: وأعنى ملكية الأرض، «فقد كان النظام الأرضى الشائع فى ليبيا منذ الفتح الاسلامى هو نظام الملكية الجماعية، وبموجب هذا النظام، كانت الأراضى القبلية تقسم إلى قطع من الأرض يوزعها أعيان القبيلة سنوياً على عائلات القبيلة[35]»، وبرغم أن هذا النظام بدأ فى التفكك منـذ

(33) الاكسـوغامى عن المصـطلح العلمى الاجتماعى «Exogamy» أبـاعدى، أى يختص بالزواج من الأباعد.

(34) د. محمد عبده محجوب، المصدر السابق، ص 149.

(35) جميل هلال، دراسة فى الواقع الليبى، طرابلس، ليبيا، مكتبة الفكر، 1967، ص 20.

أوائل هذا القرن ليتخذ أشكالاً من الملكية الفردية لم تتميز بالطابع المؤثر، فإن الملكية الجماعية ظلت السائدة فى الأراضى الزراعية والرعوية وهو أمرٌ على ما نرى جدير بالعناية والدرس، ذلك أن ليبيا - وإلى حد ما أراضى الجنوب التونسى - كانت تمثل قطاعاً جغرافياً متجانساً سواء فى نطاقاته السهلية الشمالية أو الجبلية أو الظاهرية أو القبلية[36]، وأيضاً فى توافق الظروف الحياتية للتجمعات القبلية عبر الحدود التى ظلت تمثل المشكلة الرئيسة لفرنسا والدولة العثمانية وخصوصاً بعد احتلال الأولى للجزائر عام 1830 م.

وهكذا فالمسؤولية الجماعية ترتبط أوثق الارتباط بقضية الملكية الجماعية فكما هى ملكية الأرض عامة فكذلك الدفاع عنها جماعى بالضرورة، ومما يتصل بهذا علاقة الفرد بقبيلته فهى علاقة ارتباط عضوى، إذ ليس من الأمور السهلة أن يتخلص الفرد من «حصته»[37] من الأرض القبلية بالبيع، ففضلا عن أن البيع يعتبر من نقائص الفرد التى تؤدى بصاحبها إلى الهجرة بعيداً فى أغلب الأحيان، ذلك أن استرداد الحصة من جديد أمر صعب، فأصعب منه بل ما يشبه المستحيل أن يحصل الفرد على حصة من أرض قبيلة غير قبيلته، وبالتالى قد تؤدى الاستهانة بالأرض أو الاستخفاف بها إلى فقدان الانتماء إليها.

2 - **سوء الادارة العثمانية القرمانلية**: مارست السلطة التركية الصريحة

(36) لاحظ أن مصطلح الجفارة ينسحب على قطاع جغرافى سهل ما بين مدينتى الخمس وقابس، كما تتطابق تسميات الأراضى الجبلية الممتدة جنوباً فتسمى فى ليبيا وتونس بالظاهر، وكذلك مصطلح القبلة يعتبر مصطلحاً ليبياً مغربياً للدلالة على المناطق التى تمتد إلى ما أبعد من ذلك جنوباً، ويؤيد ذلك ما جاء لدى صالح العنترى: مجاعات قسنطينة، تحقيق رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1394 - 1974، هامش ص 28 من أن القبلة فى الاطلاق الجزائرى والمغربى يراد بها الجنوب.

(37) يعبر عن الحصة محلياً (بالسكة) كناية عن المحراث، وأحياناً (بالجابدة) كناية عن الحيوان الذى يجر المحراث: لتفاصيل أكثر عن (السكة أو الحصة أو النصيب)، يمكن الرجوع إلى مقابلة الحاج: - على الباطل - شريط 6/85، المكتبة الصوتية بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.

والقرمانلية ألواناً من الاضطهاد تمثلت بشكل رئيسى فى فرض ضرائب وأتاوات عشوائية على الشعب الذى ناء بها حملا، حتى القبائل التى أعلنت منذ البداية رضاها وطاعتها استنفدت طاقاتها على الدفع، على أن الوسائل التى كانت متبعة فى جباية الضرائب لا تدل على شىء سوى العقم السياسى والادارى وعلى إفلاس للعهد كله، فمما تسجله الرواية الشفهية هو أن المواطن لا يمكنه لأى سبب أن يتخلى أو حتى أن يعجز عن دفع ما يطلب منه، وفى حالات كثيرة يتأذى الجار حيث يلزم بالدفع عنه ويتحمل نفس المسؤولية التى تحملها الأول منهما، وهذا فى رأينا سبب قويت معه روابط التضامن والمسؤولية داخل القبيلة، مستبعدة تلك العلاقات غير القرابية وغير المسؤولة، وشيء آخر أنَّ تلك الروابط هى التي جعلت بعض القبائل والعصائب تخرج عن السلطة متحدية.

3 - **التحدى المضاد**: مثلما تبينت تلك العلاقات السلطوية للمخزن بالسيبا (أو البارود) فى بعض الأقطار المغربية، ومثلما أكدنا مراراً خطوط تشابه مسار الحركات الاجتماعية فى بلاد المغرب بشكل عام، بما فى ذلك ليبيا لتشابه الظروف السياسية والاجتماعية والبيئية، لذلك فإن ليبيا عرفت ما يشبه المخزن وظيفياً وعرفت ما يشبه السيبا أو البارود، لأن السلطات العثمانية بما فيها القرمانلية كانت تستخدم نفس العناصر تقريباً: أتراك - كولوغلية قبائل موالية لها - أولاد شيخ (طرق دينية).

التركيبة الاجتماعية فى ليبيا خلال الفترة العثمانية: -

يذكر الأستاذ على مصطفى المصراتى عن هذه التركيبة أن المجتمع خلال منتصف القرن الماضى كان يتكون من: «أتراك - كراغلة - أولاد شيخ - رحل او رعاة - جاليات أجنبية، يعفى من الضرائب الأتراك والكراغلة ثم أولاد الشيخ (أى الأشراف)، ومن انتمى إليهم، ثم يدفع الضريبة أو الجزية بشتى الطرق غير هؤلاء[38]، والأستاذ المصراتى - وإن لم يذكر مصنفاً - إلا أن المفهوم الضمنى

(38) على مصطفى المصراتى، المصدر السابق، ص 191.

يفيد بأن هناك فئات معفاة من أداء الضرائب وأخرى عليها أن تدفع، وهذا يعنى أن هناك فئات موالية للسلطة وأخرى تدفع الضرائب بمفهوم تلك الفترة (غرامات)، والتى تدفعها غالباً بالقسر والإكراه، مما دفع هذا الصنف من الناس إلى اتخاذ أنماط من العيش بسيطة تتمثل فى الرعى والزراعة المحدودين والمرتبطين بصراعات الأرض من أجل البقاء، وإن كان لا يعنينا كثيراً ما اتخذ من أنظمة خلال الفترة بقدر ما يهمنا منها دفع السلطة الأهالى بأساليبها إلى الانزواء بعيداً فى الدواخل وأحياناً إلى التوغل فى الصحارى النائية إلا أن التأثير - المغربى حسب رأينا - ظهر فى استعمال كلمة (المخزن) على أواخر العهد القرمانلى وهى الفترة التى تولى فيها يوسف باشا مقاليد الأمور فى طرابلس، وهى الفترة التى توطدت فيها العلاقات مع تونس وتبينت أوجه التعاون بين البلدين على قلتها ولكنها ملحوظة على أية حال، وسبب ذلك ربما يُردّ إلى أن عودة الأسرة القرمانلية منذ 1794 م، واستعادة حكم طرابلس من يد على برغل قد تم بمساعدة حمودة باشا حاكم تونس الذى قام بتجهيز حملة ضخمة لمساعدة القرمانليين، ومنذئذ نعثر على مصطلح المخزن والمخزنية فى بعض التحريرات والرسائل، اشار إلى بعضها الأخ عمار جحيدر[39].

وهذا يعنى اقتراب المفاهيم المخزنية وانسحابها عملياً على جميع البلاد المغربية، وإن كانت هناك عناصر تبرز أكثر من غيرها وخاصة فى ليبيا إذ ظهرت فئتان كان لهما دور فى تاريخ الفترة إلى جانب (المخزن) السلطة: الكولوغلية والمزارقية.

الكولوغلية: من الباحثين من يعتبر الكولوغلية مجتمعاً قبلياً، وفى الواقع لا نراها كذلك، بل هى فئة اجتماعية اكتسبت صفات كثير من القبائل، وهى

(39) عمار جحيدر، محاضرة: - بعنوان: (ملاحظات نظرية حول تاريخ ليبيا الاجتماعى فى العصر الحديث) ألقاها يوم 1983/4/20 م بقاعة ابن غلبون، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى - طرابلس. أيضاً نفس المرجع، اعتماداً على: الأستاذ المصراتى، رسائل أحمد القليبى بين طرابلس، وتونس، تونس، الدار العربية للكتاب، ص 124 و132.

وإن كانت قد اتحدت من ناحية عرقية حسب المفهوم المتعارف عليه للكولوغلية الذى يحددها: بأنها الفئة المولدة من آباء أتراك وزوجات محليات[40]، فإن هذا المفهوم قد اتسع ليشمل غير هؤلاء، ولعل هذا الموضوع من تلك الموضوعات التى أثارت الكثير من النقاش، وخاصة فى الموسم الثقافى لمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى هذا العام، حيث أماط الدكتور عقيل البربار اللثام عن وثائق تشير إلى أن كثيراً من الكولوغلية لم ينحدروا أصلاً عن أصول عرقية ككولوغلية، وإنما قاموا بتسجيل أسمائهم تحت قطاع الكولوغلية للاستفادة من الميزات التى تحصل عليها هذه الفئة خلال أواخر العهد العثمانى الثانى[41]، ولعل ذلك يأتي مؤيداً لمصدر أقدم أشار اليه الأخ جحيدر فى نفس المعنى وهو يوميات الفقيه حسن من أن هناك «كوارغلية من أولاد العرب»[42] فى حين يضيف الشيخ الطاهر الزاوى إلى المفاهيم المعتادة ما يلى: «وفى بعض الأوقات كانت تطلق كلمة الكوارغلية على كل من يناصر الحكومة ولو كان من العرب»[43]، فهى بهذا المفهوم تضم فئات أوسع بل هى (المخزن) بعينه، على أننا نعود إلى القول بأن الكولوغلية فئة اجتماعية قريبة من السلطة، أو أن لها مصالح ثابتة فى حضورها، وخاصة عندما كانت السلطات تضطر إلى استخدام تلك الفئة لمصلحتها، مستغلة سيطرة الدولة على كل الأراضى، وإقطاعها إقطاعات مؤقتة لمن كان فى خدمتها ونظير تلك الخدمات المعينة.

المزارقية: هى الفئة الثانية ممن اعتبرناهما فى خدمة المخزن، وقد وردت إشارة فى (الاتحاف) مفادها أنه قد: «جرت العادة أن كل عرش من عروش العربان به عدد من الفرسان يسمون المزارقية أصحاب المزراق وهو الرمح، ولهم

(40) ربما الأوفق أن يكنين بالمغربيات لأن الظاهرة مغربية ولا يختص بها بلد دون غيره.

(41) د. عقيل البربار، محاضرة بعنوان: - المواقف السلبية لبعض الزعامات فى حركة الجهاد، ألقيت بتاريخ 1983/3/18، بقاعة ابن غلبون، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى - طرابلس.

(42) تعقيب للأخ عمار جحيدر على محاضرة الدكتور عقيل البربار.

(43) الطاهر الزاوى، معجم البلدان الليبية، طربلس ليبيا، مكتبة النور، 1388 - 1968، ص 171.

مرتب يسافرون مع المخازنية فى البعوث لأنهم فى معنى (الصبايحية)»[44]، بينما يصف سعيدونى المزارقية بالفرسان حملة البنادق، وعلى رأى الأخ الباحث ومع احتمال أن يكون السلاح الموظف فى أيديهم قد تطور من المزرايق إلى البنادق وظلت التسمية الأقدم عالقة بهم، إلا أننا نميل إلى القول بأن «حملة البنادق» هو الوصف الأنسب «لفرسان المكاحلية»[45] وهو التعبير الوارد لدى الأخ سعيدونى فى نفس الصفحة، وعلى أية حال فالمزارقية ينتمون إلى قبائل موالية للسلطة بحكم الصراعات الصفية[46]، وإن اتخذوا فى ليبيا خلال الفترة العثمانية صفة المخزن لأهمية التكاليف المناطة بهم.

يوسف باشا وصراع الصفوف: -

لم تتحسَّن الحال على عهد القرمانليين، فقد ازدادت سوءاً خلال فترة حكم يوسف القرمانلى الذى أسرف فى استخدام المقاتلين المحليين ضد إخوتهم، وسنتخذ علاقته بالمحاميد وبعض القبائل نموذجاً عن الفترة التى لم تشهد سوى القتل والانتقام فقد شهدت وقائع مريعة من أبرزها وأوقعها تأثيراً حملته على فزان عام 1813 م التى تعرضت فيها قرى كودان لفظائع تقشعر منها الأبدان كقتل الرضع من الأطفال[47]، ثم حملته على نالوت 1815 التى كبدت أهاليها خسائر فادحة، وكانت قبيلة المحاميد خلال هذه الحملة إلى جانب السلطة ولعل أخبار يوسف باشا لا تنتهى فى مجال الاضطهاد والعسف، ومن ذلك على سبيل المثال حملته التأديبية ضد أهالى ورفلة ومن فى حلفها من أولاد سليمان والقذاذفة

(44) أحمد بن أبي الضياف: اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك عهد الأمان، (دولة أحمد باى)، تحقيق أحمد عبد السلام، تونس، الطبعة الرسمية للجمهورية، 1971، ص 72، أما كلمة الصبايحية فيأتى التعريف بها وشرحها فى هامش قادم.

(45) سعيدونى، المصدر السابق، ص 137.

(46) الحاج عبدالله بن خليفة شريط 6/9، أيضاً الحاج يونس عمر وعبازة شريط 6/77 المكتبة الصوتية بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.

(47) عزيز سامح، الأتراك العثمانيون فى أفريقيا الشمالية، ترجمة عبد السلام ادهم، بيروت، لبنان، 1969، ص 171.

حيث داهمتهم حملة نجلى يوسف، على وإبراهيم فى موقع يعرف (بقليعات الحطابة)، وتذكر رسالة يوسف باشا إلى محمد شلبي بيت المال مؤرخة فى 6 من رجب 1247 هـ - 12 من ديسمبر 1831 م أن الحملة مكونة من 10,000 عشرة آلاف مقاتل مزودين كالعادة بالأسلحة النارية والمدافع وقنابل (الدوبلى)[48]. وتفيدنا هذه الرسالة أن قبيلتى السبعة والغنايمة كانتا ضمن حملة الباشا وأن كثيراً من الغنائم أخذها رجالها مثل المدعو (نوفل) الذى كانت حصته ثلاثمئة ناقة، وأمر آخر هو أن نجاح هذه الحملة على ما يبدو شجعه على التفكير فى الاعداد لحملة للوطن الشرقى «إن شاء الله بعدما يرحلوا الاحمال المنصورات فى وادى بنى وليد نبغوا نجهزوا واحد من أنجالنا للوطن الشرقى فى محلة عظيمة تمهد الوطن وتواطى بعض أنوف شمخت كما فى علمكم»[49].

يوسف باشا يثير العداء بين القبائل: -

عند وفاة شيخ المحاميد (خليفة بن عون)، ليخلفه فى المشيخة ابنهُ أبو القاسم، (أخو غومة) الذى جاءت فترة رئاسته للقبيلة متزامنة مع قرار يوسف باشا التخلص من حكام المناطق غير المباشرين، وكانت الخطة أن يستقدم الشيخ أبو القاسم إلى طرابلس ويغدق عليه ويقربه، ثم يدس من يغتاله فى فراشه غدراً، ثم يعلن حزنه وأسفه لمقتله ويتهم رجلين من أهل الجبل بقتل

(48) الدوبلى: - ترشدنا الرواية الشفهية إلى أن الدوبلى نوع من المتفجرات يقذف يدوياً يرهب العدو ويثير الرعب، مما يمكن أن يعتبر بدايات القنبلة اليدوية، ورد ذلك فى بيت من الشعر الشعبى الحماسى خلال الفترة الأولى من الجهاد:

سور المدينة نهشوا بنيانه (بيدوبلى) أكبر من الرمانة

لشاعر مجهول لا يذكر المجاهد ما اذا كان سوف أو ساسى بن موسى أم غيرهما.

أنظر مقابلة الحاج أحمد سعيد غميض شريط 6/10، المكتبة الصوتية بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، أيضاً مقابلة الحاج خليفة محمد الجواشى شريط 6/50 بنفس المكتبة.

(49) وثيقة (2) المنشورة لدى رودولفو ميكاكى، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلى، تعرب حسن محمود وزميله، القاهرة، 1961، ص 64 - 65.

الشيخ فيعدمهما حالا، وكان ذلك عام 1821[50] وهكذا تنتقل المشيخة من جديد إلى ابنه الحاج محمد بن أبى القاسم المحمودى، ابن أخى غومة الذى يقول عنه الأستاذ المصراتى: «انه كان للرجل صفات تحمد وسلوك طيب، ومما يحمد له - كما يذكر رواة البادية - انه سار بنفسه فى ثمانين فارساً وقدم إلى بلاد الزنتان ومر على الشيخ الأزهرى وهو من فضلاء البيوتات وأهل العلم والمنزلة فى تلك الجهات، وعقدوا هدنة بين القبائل، وأصبح الجو صافياً مشحوناً بالود والاخاء فى هذه المناطق»[51] ويذكر المصراتي أن من صف المحاميد آنذاك الرياينة ويفرن، ثم يحدد تاريخ وفاة الحاج محمد فيقول: «ومات الحاج محمد بن القاسم المحمودى ليلة الخميس 25 من شهر ربيع الثانى 1247 هـ - 1831 م، وكانت بعض الجهات حرضت فريقاً من الناس فغصبوا من عربه وأتباعه ألفاً وثلاثمئة بعير «1300» وكانت الادارة فى تلك الآونة تشغل الناس فى البادية بعضهم ببعض»[52] أما الأمر الذى يختلف فيه المقدم بيلار دنيللى مع الأستاذ المصراتى فهو أن الرجل حسب تقدير الأخير منهما مات غيلة[53] كوالده إذ إن يوسف باشا لم يعجبه هدوء الحال التى نجح الحاج محمد فى إقرارها بالجبل الغربى بين الصفين المتناحرين يوسف وشداد بعد الصلح المذكور فانتهز الباشا فرصة وجود الحاج محمد فى نجعه بالحفارة آمناً ودسَّ له عشرين رجلاً من قبيلة

(50) أحمد النائب الأنصارى، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، طرابلس الغرب - ليبيا مكتبة الفرجانى، ب. ت، ص 329، أيضاً عزيز سامح، المصدر السابق، ص 173.

(51) لم يحدد الأستاذ المصراتى من هم رواة البادية الذين استقى منهم هذه الرواية الممتازة لأنها وردت لدى بيلارد نيلى، القبلة، من منشورات الحكومة الايطالية بطرابلس، مكتب الدراسات، والمنشور بتاريخ 3 من مارس 1935، تعريب الأستاذ عبد الرحمن العجيلي/ مخطوط القسم الثانى، ص 17. وعلى أية حالة فلربما كان مصدر الأستاذ المصراتى الرئيسى ما كتبه الشيخ الأزهرى فى كناشه.

(52) على مصطفى المصراتى، غومة فارس الصحراء، ص 64.

(53) ربما اعتمد عزيز سامح على رواية النائب التى أغفلت ذكر شخصية الحاج محمد بن أبى القاسم المحمودى فجاءت إشارته إلى دسيسة مقتل شيخ بني نوير للمرة الثانية وكأنها ضمن وقائع عام 1825، عزيز سامح، المصدر السابق، ص 174.

السبعة، . أعداء الأمس فاغتالوا الرجل ولاذوا بالفرار، وكان مقتله سبباً فى إثارة غومة الذى أقسم ألاّ يقر قرار بعد الآن لأسرة القرمانلى، ولعل من نتائج هذا التصرف أن محاولة احتلال الجبل الغربى فشلت لاتحاد بنى نوير مع جيرانهم، بل وحوصر جيش القرمانليين المهاجم ولم تفرج عنه سوى وساطة أولاد بو سيف على أن يبقى الجبل كما كان سابقاً تحت ادارة بنى نوير، وهكذا نلحظ التغير التدريجى نحو تجمع الصفوف فى الجبل وتحول شيوخ المحاميد عن التعصب المبالغ فيه لصفهم، وإن بقيت النزعة واضحة. ولا شك أن الفضل فى ذلك كله راجع إلى الحاج محمد بن أبى القاسم، الذى حاول غومة أن يتأثر خطاه، ولكن بالجمع بين التسامح والحزم، بين اللين والشدة، ربما هذا ما جعل زعامة المحاميد تنقسم على نفسها وبالتالى ينقسم صف المحاميد إلى صفين (أولاد المرمورى وهم المحاميد الغربيون) و(أولاد صولة وهم المحاميد الشرقيون)، ويتولى غومة زعامة الفرع الأول الذى يعتبر عملياً من شداد فى حين يعتبر الآخر من يوسف، وتحت هذا التصور يمكننا أن نضع بقية التشكيلات الصفية المشابهة، ففى الامكان أن نضع إلى جانب صف يوسف فى المنطقة الواقعة شرقى مدينة طرابلس وترهونة وورفلة، صف البحر فى حين يمكن ان نضع صف البر أو (القبلة) إلى جانب صف شداد.

أما مصطلح عرب الشرق وعرب الغرب فإنه مصطلح عائم، إذ بينما يطلق الناس من هم غربى خط مدينة طرابلس وترهونة وورفلة على سكان المناطق شرقيها عرب الشرق فإن أهل برقة أيضاً يعدون سكان المناطق غربيها بعرب الغرب (أو صف الغرب)، وتلك أمور نراها نسبية. على أننا يمكن أن نتلمس أن حدة الصراعات لم تكن فى القطاع الشرقى من الوطن بنفس الحدة التى كان عليها فى القطاع الغربى منه، فقد تمتع الجبل الأخضر بظروف طبيعية ربما أفضل، من حيث مناسيب المطر وخصوبة التربة. خففا من تلك الحدة إلى جانب أن وعورة السطح الجبلي وسهولة الدفاع ضد الغرباء جعلت إمكانية اتخاذه ساحة صراع أقل ملاءمة من القطاع الغربى وذلك ابتداءً من سهل بنغازى، على أن هذا لا ينفى أبداً تلك الصراعات التى قامت من أجل برقة، ويلاحظ أن العقد الأخير من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر

شهدا أشد الصراعات القبلية والصفية. فقد احتدمت وقائع من أشهرها وقعة (زغبا) التى وقعت بين قبائل من صف البحر (الغرب) وأخرى من صف (الشرق) عام 1811، وانتهت بهزيمة صف الغرب وانسحابه من الأراضى التى كانت هدف الصراع (برقة)، ومن شوارد الشعر الشعبى ما يمثل فى رأينا عقل وحكمة القبلى حين يتدبر الأمر، وما أكثر ما يفعل، من ذلك عتاب شاعر (الفرجان: وريث) لرجال العلايا وتذكيره إياهم بأن قتال صفه لهم لم يكن فى الواقع بكل معانى القتل لأن الجميع إخوة وهو يخاطبهم فيقول: (آثرنا أن ننسحب من بعض المواقع وألا نغتنم فرصة كانت ممكنة لنا فيكم حيث بلغنا بيوتكم يوم المعركة وآثرنا تجاوزها أفلا يكفى؟

يقول[54]:

أيام قبل وانتو حزامين حزام كان لنا معاكم

إلى أن يقول:

إيش السبب يا مُحِبِّين ويش السَّوايا معاكم
تبدَّى لنا فعلكم شين وْطاب مالنا فى جباكم
وفتناه صالح أوشيناه وْقلنا نعنهم فداكم
وْفتنا (الكيمان والعين) وجينا لهلكم معاكم[55]
وجبتوا تريس التراكين اللى باعنا واشتراكم

تلك إذن صراعات الصفوف أو جانب منها فى القطاع الشرقى، تلك التى كانت فيها برقة موضوع الصراع وقد دعاها أحد الشيوخ المتصارعين بـ (ظهر حمار) كناية عن الضيق فهى فى رأيه لا تتسع للجميع، ولذلك وقعت الحروب التى نجم عن إحداها إجلاء قبيلة الفوائد إلى مصر بعد حربها مع الجبارنة وعن أخرى إجلاء الجوازى إلى مصر أيضاً بعد حرب ضروس ضد

(54) عن محمد الطيب الأشهب، برقة العربية أمس واليوم، القاهرة، مطبعة الهوارى، 1947، ص 120.

(55) الكيمان والعين مواقع بسهل بنغازى.

العلايا ناصرها خلالها (سيف النصر) الذى كان طريداً من قبل يوسف باشا القرمانلى وقد تدخل هذا الأخير لنصرة العلايا ضد الجوازى عام 1817 م فانسحب سيف النصر جنوباً. ومن تلك الصراعات ما وقع بين قبيلتى خضراء ومغيربية وبين العبيدات والضعفاء وبين الحسون والجبارنة وبين العبيدات والبراعصة، وهكذا ربما نجد علاقة بين ثورة الجوازى ضد يوسف باشا فى طربلس وانتماءات هذه القبيلة البرية أو على الأقل تعاطفها مع الصف الفوقى (القبلة) الذى يمثله أولاد سليمان وحلفها بزعامة سيف النصر. وعلى ذلك فيمكن اعتبار منطقة القبلة وفزان امتداداً لنفس الاعتبارات الصفية، بل وإن الروايات الشفهية تشير إلى نفس المصطلح المتخذ فى شمال البلاد (يوسف وشداد) لذلك يمكن الاستناد إليها وإلى المصادر المكتوبة فى تقرير أن الصفية هى حركة واحدة لا تختلف كثيراً من منطقة لأخرى، على أن الموقف السياسى للصف هو ما أرادت المصادر الغربية أن تشدد عليه فتعتبر صفاً مع السلطة وآخر ضدها، دون أن تعى تلك المصادر، كما نوهنا باستمرار أن ذلك الموقف ربما يكون من سلطة قريبة نوعاً وليست غريبة بمعنى غربة دين ومعتقد، فضلاً عن غربة الوطن واللغة والعادات والتقاليد، وفوق كل ذلك وقبله التعدى، كما أن دوافع الصراع أساساً وليدة ظروف اقتصادية ناجمة عن ضغوط سياسية غير راشدة من قبل سلطات أقوى، تولدت عنها مجمل تلك الأجواء الثقافية النوعية، التى سمحت بغياب الشرع وسيادة العرف، وقد يكون من المفيد إثبات تصنيف يحاول رسم شكل الولاءات القبلية (برغم أن الولاءات لا تحكمها جداول)، والصفية لبعض القبائل الليبية - على غرار ما أثبتناه فى مواضع سابقة بخصوص الصفوف التونسية والجزائرية - لم يكن الهدف منها سوى التعرف العلمى على حركة هذا الشعب، التى هى فاعليته الأساسية والحقيقية، والتى بدونها لا يمكن الغوص فى أعماق تاريخنا الجهادى، ولا يمكن تفسير كثير من المواقف المشوهة بحسن أو بسوء نية، وقد ترانى أكرر فى هذا الخصوص أن حركة الصفوف هى نتاج أصيل، بكل ما تحمله الكلمة من أبعاد، ولأن الأصالة لا تعنى الصدق والعدل والحق على الدوام، فإنها وليدة الحرمان القريب إلى الفطرة، وقد تشكلت التجمعات القبلية وبرغم ما شهد

حضورها من أسى وبؤس فإنها لم تكن وليدة ثقافة أو حوار فلسفى معين، عدا ثقافة القبيلة المدعوة إلى حب الحياة والبقاء، ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار تلك الأحلاف الصفية من عوامل الايجاب. وقد أحسن تصويرها «كونيل Coneile» حين اعتبرها «قانون توازن بين الجماعات»[56].

شداد

يوسف

أولاد سليمان - الحساونة - الحطمان - القوايدة - السكان المستقرون بتمزاوة - وهم: القرضة - الدويسة - تاروت - تقطة - برقن - ونزريك - وادى الآجال - (الحياة).

المقارحة - الصهكة - الزوايد (بعض السكان المستقرين بأشكدة وقيرة وبراك وزلواز والزوية وأقاروتمسان ونسمة وإدرى) طوارق الجنوب - السكان المستقرون بمرزق ووادى عتبة ووادى الآجال (الحياة).

من الجفرة: هون وودان وأولاد سليمان من مسلاتة العمامرة، من تاورغاء (القواضى) - من سرت (القذاذفة وتجمعات أصغر) - أولاد بو سيف - المشاشة - ترهونة ورفلة.

من الجفرة: سوكنة مسلاتة ما عدا العمامرة - الخمس - جزء من الساحل - طرابلس - زليتن - مصراتة من تاورغاء السلاطنة والمحارزة - من سرت العبادلة ومعدان والفرجان وتجمعات أصغر.

من غريان: - بعض بنى داوود والقواسم وأغلبية الخلايفة وجميع بنى نصير.

من غريان: - أغلب بنى داود والقواسم وبعض بنى خليفة.

من يفرن: - أغلبية يفرن بما فيها أولاد سلام وأولاد بورصطيف والروميّة والزرقان والبراهمة وأولاد محمود.

من يفرن: - قبائل تاغمة - الشقارنة - أم الجرسان - عكارة - الشياب - أولاد عطية المساعيد - الغنايمة - الزنتان -

(56) دراسة لمؤلف مجهول (بالانجليزية): أولاد سليمان فى ليبيا وتشاد، ترجمة ميمى صليبا الصائغ، ص 55، مخطوط محفوظ بشعبة الوثائق والمخطوطات بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.

من ككّلة أولاد بوزير - من الرياينة أولاد بوسيف - المشاشة - الخلايفة - من الأصابعة أولاد سنان والرابطة الشرقية - فساطوبا فيها الشقران وأولاد بدر وأولاد شبل - والرحيبات والحوامد* وأولاد محمود - نالوت اللوطية وكاباو وطمزين - من الجوش أولاد محمد والهمايلة والجوش الصغير - من الزاوية البلاعزة والمرابطون - زوارة النوايل - العلالقة - تاجوراء وجماعة الرقيعات.

الرجبان فرع سعيد بن صولة من المحاميد - النواحى الأربع - جنزور - ورشفانة، من ككلة: أولاد عثمان. من الأصابعة: الجويفلات والرابطة الغربية من الجوش: - أولاد شرادة - أولاد سلام أولاد طالب والجوش الكبير - من الزاوية: الكولوغلية - صرمان - العجيلات.

وقد استندنا فى هذا التصنيف المبدئى إلى ما سبق من تصنيفات وأشهرها بالطبع تصنيف دى أغسطينى فى (سكان ليبيا) وملاحظات بيلارد نيللى فى كتابه (القبلة)، وإلى إشارات جوفى وغيره من الباحثين الأجانب، على ان مصادر البحث لا تزال بكراً فى التقارير القنصلية ومراسلاتهم، وكتب الرحلات الأجنبية وهذه تكتسى أهمية خاصة فى دراسة النواحى الاجتماعية لصلتها العضوية بالنواحى السياسية، لم يصل إلينا منها سوى بعض الاشارات فيما نشر من الدراسات الأجنبية فى الخصوص، على أن انطلاقة العمل كانت تعتمد فى

* تفضّل الأخ الزميل (أحمد عطية مدلل)، وهو أحد باحثى مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى بهذه الإفادة التحريرية التالية: - «سمعت هذين البيتين من الأخ الجيلانى حسن محمد محرر مجلة اليقظة وهو من الشباب المهتمين بالتراث، وقال إننى سجلت هذين البيتين من المرحوم عبدالله ربيع قال: - إن قائل هذين البيتين هو عبد الرحمن الأسود والد محمد بن عبد الرحمن الحامدى وقد نستطيع التعرف بهما إلى صف قبيلة الشاعر المذكور، حيث قال:

احنا صفّنا صف شداد ... فزع صف يوسف اوجانا
رقينا لهم روس لغراد ... والشيخ غومة اعمانا

الأساس على المصادر العربية مثل كتابات الشيخ المرزوقى، والمصراتى وغيرهما، ثم دراسة الأستاذ مصطفى كريم (تونس قبل الاستعمار) بالفرنسية، فضلاً عن الروايات الشفهية التى استقينا معلوماتها وبياناتها التلقائية والعفوية فى أكثر الأحيان من المجاهدين والرواة، استشهدنا بكثير منها فى متن البحث، ولمن طلب التفصيل العودة إلى المقابلات التالية: ـ

1 ـ الحاج عبد السلام الصغير المريض	9/40
2 ـ الحاج على أحمد الباطل شريط	6/85
3 ـ الحاج على خليفة الأزعر	6/103
4 ـ الحاج عبدالله خليفة	6/85
5 ـ الحاج أبو القاسم على ضوء كلة	6/60
6 ـ الحاج عبد السلام الشيبانى عمر نصية	6/38
7 ـ الحاج «يونس عمرو عبازة	6/77
8 ـ الحاج سليمان يونس العيدودى	6/79
9 ـ الحاج سعيد إسماعيل الفروى	6/80
10 ـ الحاج سعيد على الساحلى	80 ـ 6/81
11 ـ الحاج عون محمد لبز	6/55

ومقابلات أخرى كثيرة بمنطقة 6 على وجه الخصوص.

الوسم إحدى مميزات الصفوف: ـ

فى الأصل تتخذ القبيلة علامة مميزة تضعها على حيواناتها للتمييز بينها وبين ممتلكات الآخرين، ولكن القبيلة تتخذ وسماً عاماً تُعرف به حيوانات القبيلة، وعندما اتسعت الرابطة لتضم أكثر من قبيلة ولتصبح (صفاً ـ حلفاً) يبدو أن العرف اتخذ لنفسه حلا للوضع الجديد وهو أن تحتفظ كل قبيلة بوسمها القبلى الخاص على أن تضع علامة جامعة دالة على الصف. ويبدو أن الاتفاق قد تم على أن يلتزم كل صف من الصفين بوضع سماته على جنب معين من جسد الحيوان (أيمن أو أيسر) لتمييز إبل وحيوانات الصف الصديق من الصف

المعادى، ويتناول بريتشارد العرف القبلى بالخصوص فى ليبيا قائلاً: «إنه حسب المفهوم المتعارف عليه فإن لكل قبيلة وطنها، أرضها الزراعية، مراعيها وآبارها، ولكل منها (وسم جمالها) الذى ينحت ـ على رأيه ـ على نواحى قبور موتاها»[57].

سمات الصفين: ـ من المتفق عليه أن توضع سمات صف يوسف على الجنب الأيمن من جسد الحيوان بشكل معين وعلى العكس تقع سمة صف شداد على الجنب الأيسر، ومن تلك العلامات ما يعرف لدى صف شداد باسم (الجبيرة) هكذا ⊠ ، وعلامة تعرف لدى يوسف باسم (بو ماضى) هكذا F[58] ولعلها قريبة الشبه شكلاً ومسمّى من علامة قبائل المغاربة التى ترسم هكذا متوازيان I يصل بينهما مستقيم ثالث وتعرف هذه العلامة باسم (قائم سيف)، بينما علامة العواقير تسمى (مذرى) وتُرسم هٰكذا Ψ وكل علامة من هذه تكون رئيسة لعموم القبيلة[59].

ولعل من الطريف أن ظاهرة الوسم لا تزال معروفة أيضاً فى بادية شبه الجزيرة العربية، وتتناول دراسة حديثة عن البادية هذا الجانب حيث جاء فيها: «إن لكل بدوى وسما خاصاً يسم به حيواناته فتوسم الأغنام (بالمغر)، وهو تراب أحمر يجده البدوى فى الفلاة بكثرة ويعلم به غنمه، أما وسم البعير والفرس فيكون بكيه على رقبته أو فى أحد فخذيه أو فى كليهما بقضيب حديد يحمى بالنار

(57) ايفانس بريتشارد، سنوسيو برقة، ص 99 ـ 100، بينما تتفق الروايات الشفهية مع ما ورد لدى بريتشارد عن السمات، إلا أننا نشك فى صحة ما أورده بخصوص نقش هذه السمات على قبور الموتى الأمر الذى لم يعرض لنا خلال عملية البحث الميدانى، فضلاً عن أيٍّ من المصادر الأخرى.

(58) الحاج على أحمد الباطل: شريط 6/85، المكتبة الصوتية بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى طرابلس، أيضاً الحاج سعيد إسماعيل الفروى، 6/80، نفس المكتبة.

(59) محمد الطيب الأشهب، برقة العربية أمس واليوم، القاهرة، مطبعة الهوارى، 1947، ص 111.

حتى يصير جمرة[60]، مما ينبىء عن مشاركة عامة أشرنا إليها فى مسألة التبدى، فى حين يرى الدكتور محمد عبده محجوب «أن الوسم علامة مميزة توضع على جباه وظهور وأفخاذ الحيوانات لإثبات ملكيتها، وهى عنده وسمٌ عام ووسمٌ خاص»[61].

شوارد شاهدة: نعنى بهذه الشوارد الشاهدة ما قد يلتقطه المرء منا من خلال المخزون التراثى لهذا الشعب، من أثر نثرى أو شعرى مما قد يسير على ألسنة الحفاظ، الأمر الذى لا ينبغى الاستهانة به فى مجال المصادر التاريخية، من ذلك مثلاً أمكننا الاستئناس ببيتين من الشعر الشعبى على تحرك قبلى لقبيلتى الحساونة والمقارحة بعد أن اصطدمتا بالسلطات القرمانلية خلال أوائل القرن التاسع عشر، وبعد أن اضطرتا إلى النزوح عن منطقة الجفارة إلى الجبل ثم باضطراد نحو الداخل القبلة والصحراء ليخلفهم الزنتان فى استغلال الأراضى وفى موقف حامى حمى القبائل التى دخلت صفهم[62]، ويبدو أن الشاعر الحسناوى أراد إثارة النخوة والحمية فى أفراد قبيلته بأن أشار عليهم بأن خيراً لهم أن يرحلوا جنوباً لأن مسلكاً كهذا يليق بهم وهم الذين عرفوا بحياة البرارى وحياة الصفوفية التى لا تحفل بالخطر ويحدق الموت بأهلها كل حين، فليرحلوا لأنه حتى الفئات التى عرفت بالذلة والمسكنة تبينت الخير فى حياة الترحال يقول الشاعر:

أيهودى وما يحمل الذل ... أعطى وجوهها للصحارى
يابال من يوسم البل ... على رقابها من إيسارى»[63]

وعلى أية حال فبالإضافة إلى ما أفدناه من تلك الاشارات يعطينا الشاعر

(60) عبد الجبار الراوى، البادية، ط 2، 1392 هـ - 1972 م، ص 65.
(61) د. محمد عبده محجوب، المصدر السابق، ص 209.
(62) بيلارد نيللى، القبلة، ترجمة عبد الرحمن العجيلى، مضروب على الآلة الكاتبة، طرابلس - ليبيا مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، 1983، ص 41.
(63) ميهوب القطعى المعتمد المقرحى: الشاطىء، عن رواية رواها عنه الأخ الزميل الباحث على البوصيرى على سنة 1978.

وصفاً (لسمة إبل قبيلته الحساونة) لندرك أنها كانت توسم على اليسار، وهى سمة صف شداد.

ولعل من الطريف أيضاً أن نتبين صف قبيلة من قبائل الصيعان إذ ورد من قصيدة طويلة فى وصف الإبل بعنوان (كحيلة) بيت من الشعر، دلنا بوضوح على موضع السمة لدى قبيلة الشاعر الشيخ الجليل الحاج عون محمد لبز أولاد محمد إذ يقول: -

يا نارى علْ نجع كحيلة ... نارى علْ نجع الخوارة
مشهور السيمة من ايسارى ... الميّة ايفكُّوا منها حارة
بوصاع لْيا قطروا خيله ... وبالضيفة يِكْرِم خُطّاره[64]

مميزات أخرى: -

يمكن تبين بعض السمات والمميزات الأخرى لدى صف دون الآخر، مما يدخل فى باب الطرفة، فمثلاً: - لدى تحميل الإبل عند شداد تشد الحوية وكذلك الحمل بوثاق يعرف محلياً «بالشداد»، على أن من تقاليد صف يوسف فى رفع الأحمال ترك الحوية والحمل سائبين، وفى الرواية الشفهية نوادر فى هذا الباب يتحجج بها أنصار كل صف ضد الآخر من قبيل الفكاهة[65]، ونرى فى هذا الخصوص أن الطريقتين ربما تخضعان لعوامل البيئة السائدة، والضرورة هى التى تحكم الطرائق والعادات لأن إحكام الشد حين لا يصبح ضرورة فى المناطق السهلية، يصبح كذلك فى المناطق الجبلية، وتكرار العادة يكرسها تقليداً.

(64) الحاج عون محمد لبز، شريط 55/6 المكتبة الصوتية بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.
(65) الحاج عبد السلام نصيَّة، من قبيلة العميان بالزنتان، يقيم فى القنافيذ إحدى القرى الغربية فى الرحيبات شريط 6/38 المكتبة الصوتية بمركز دراسة جهاد الليبين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.

الصفوف القبلية ليست بناء جامداً: ـ

من خلال دراسة حركة الصفوف نتنبه إلى أمثلة متعددة عبرها تُبرهن على أن حركة الصفوف فى أيٍّ من البلاد التي تناولناها هى كأية حركة عناصرها وأدواتها الإنسان فهى إنسانية بالطبع تتأثر بالمؤثرات البيئية والبشرية التى علينا أن نتنبه إلى دورها فى بناء الإنسان وصياغة قيمه الإيجابية والسلبية على السواء. وهكذا فعندما نقول بأن الانتفاضات التى قام بها الشعب فى ليبيا ضد بعض الولاة الأتراك العثمانيين خلال الفترتين العثمانيتين الأولى والثانية وخلال الفترة الوسطى (القرمانلية)، يتميز بعضها بتجمع شمل الصفوف ولعل أبرز مثل على ذلك النوع هو مثل غومة الذى أمكنه أن يلم شمل شداد ويوسف عبر بلدين فى صف واحد، وإن لم يبلغ به مرحلة نضج كافية تؤهله لأن يشمله اسم جديد أو مفهوم أعم، لأن نزعة شداد ظلت غالبة عليه، ولا شك أنها كانت إحدى مسببات فشله، لأن سقوط غومة كما تشير الروايات الشفهية، كان من الداخل[60] قبل أن يكون من مواجهة السلطات، مما جعل البناء الهرمى يتهاوى لأن بناء تلك الصفوف داخله كان ينتابه التغير والتبدل أحياناً على ندرته عندما تقع مبررات التغيير، فيقوى حلف على حساب آخر، ومن هنا فإن تغير الانتماءات أمور تفرضها حركية الفعل التاريخى (الاجتماعية) ومن ثم يمكن تفسير تلك التحولات الاجتماعية تحت تأثير الضغوط السياسية والاقتصادية للقوى الأكبر ومن أمثلة ذلك: تحول المقارحة من الجفارة إلى مزدة بعد أن كانوا موالين للسلطات التركية وقد رأوا فى المرحلة الأخيرة، أن ليس من العدل ألا تعترف لهم الحكومة التركية باستمرار دفع المكافآت التقليدية لهم لقاء ما كانوا يقدمونه من مساعدات بالرجال للدفاع عن السلطة، لتطالبهم الحكومة بدفع غرامات كبيرة (ضرائب)، فاستشاطوا غيظاً ورفضوا باصرار دفع أية غرامات ولو كانت تافهة[67]، واختاروا التوجه نحو القبلة حيث حطوا فى وادى جندوب، وعندما

(66) الحاج على أحمد الباطل: شريط 6/87 المكتبة الصوتية مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.

(67) بيلارد نيللي، المصدر السابق، القسم الثانى، ص 21.

تعرضت لهم قوات الباشا من جديد قرروا التوغل جنوباً حيث حطوا فى (تشة) تحت حماية أولاد أبى سيف.

وعلى ذكر أولاد أبى سيف فإن الوالى أحمد عزت حاول فرض ضريبة عليهم، إلا أنهم أوغلوا فى الصحراء جنوباً، هذا كله حدث بعد أن كان أولاد أبى سيف قبيلة (مخزنية)، حتى إن الثائرين عبد الجليل سيف النصر وغومة تحالفا ضدها عام 1841 م على عهد شيخها (عبد الرحمن حمر اللحية)[68].

ولعل ذلك كان سبباً يضاف إليه تلك الصراعات الجانبية بسبب التنافس على الأراضى الزراعية والرعوية وموارد المياه القليلة فى مناطق القبلة والوديان مع الزنتان، الأمر الذى جعل انتماء أولاد أبى سيف يتحول شيئاً فشيئاً نحو شداد، رغماً عن أن هذه القبيلة تشتهر بسمعة لا مثيل لها فى مناطق الجبال والقبلة، تتمثل فى كونها قبيلة تحكيم وإصلاح بين القبائل وأن أتباعها لا يمكن أن يشاركوا فى عمليات السلب والنهب بل كثيراً ما ساهموا فى رد المنهوبات إلى أصحابها وفى إصلاح ذات البين. . . وعودة إلى غومة، لنقول: إن تفاعله مع السلطة لم يكن من باب التبعية المطلقة مما يجعلنا لا نقطع بتنسيبه شخصياً للمزارقية التى كانت عليها قبيلته على عهد والده، بل إننا نستطيع القول بأن ظهور غومة خلفاً فى مشيخة محاميد أولاد المرمورى لابن أخيه محمد كان نقطة تحول بارزة فى حياة المحاميد والقبائل الأخرى كان قد بدأها الحاج محمد بعملية اصلاح ذات البين ـ كما أسلفنا ـ ليستأنف غومة السير على منواله مستهدفاً وحدة الصفوف ولكن بطريقة أخرى وأسلوب مستجد يتخذ الإثارة سبيلاً لثورة جماعية تختصر الأساليب التقليدية، فإثر عودته من منفاه فى طرابزون عام 1855 حيث ساعدته قبائل المثاليت وبنو يزيد ومطماطة، بالإبل والمهمات، تستعد قبائل الجبل الغربى للانضمام إليه وتنضم إليه هناك أقضية الحرابة والرحيبات وفساطو والرجبان والزنتان والرياينة والخلايفة ويهاجم بهم قصر يفرن حيث يعسكر قاسم باشا المحمودى الذى يظهر الولاء للسلطنة[69] على أن الأستاذ المصراتى ـ اعتماداً

(68) نفس المصادر، نفس الصفحة.

(69) بيلارد نيللى، المصدر السابق، ص 25، ولكن لعل الشاهد الشعرى الذى مرَّ بنا يجعلنا ندرك =

على كناش الأزهرى - يحدد وصول غومة إلى جبل نفوسة هارباً من تركيا عن طريق مالطة - تونس فى أواخر رمضان 1271 هـ - 1854 م، وكان وصوله الى الزنتان يوم (7 من شوال 1271 هـ 15 من يولية 1854 م)[70].

أم الصف: ومما يجدر ذكره - والشيء بالشيء يذكر - أن الزنتان لمكانتها من صفها (يوسف) كانت القطب الذى يتجمع حوله الأنصار فهى بتعريف الأزهرى: - (أم الصف): اسم لا ينكره عدو ولا صديق. لكونها تحمى من انتسب إليها، وتحمل سقطات صفها، وترقع ما يقع فيه «أى الصف» من الخلل[71]، كما يبدو أن زعامة صف يوسف كانت غالباً لهذه القبيلة القوية التى تنتشر جماعاتها ومنتجعاتها ما بين الجبل وفزان، وخاصة منذ أوائل القرن التاسع عشر، وانقسام المحاميد على أنفسهم كما هو معروف إلى صفين؛ صف غومة مع شداد وصف بلقاسم باشا مع (يوسف).

ويبدو أن لِفسَّاطو مكانةً موازيةً لها فى قيادة صفها، وفى الإسهام فى ترسيخ التوزان الاجتماعى فى النطاق الغربى من الجبل، وبخاصَّة حين يضعف التأثير الخارجى للسلطة الوافدة.

غومة فى تونس من جديد: لم يتوفر لحملته الأخيرة الحظ الكافى من النجاح، برغم انضواء جميع المناطق بما فيها ورشفانة وجنزور القريبتين من المدينة بل إن مقاتليهما لم ينتظروا قدوم غومة بل تقدموا حتى قرقارش واصطدموا بالعساكر التركية، التى اضطرتهم إلى الانسحاب إلى أن التحق بهم غومة وأنجدهم بقوة ساعدتهم على الصمود قليلاً، وانسحب غومة خلال الليل بعد أن أدرك أن قواته لا يمكنها التفوق، ووقعت عدة معارك ضد غومة قاد بعضها

= مصدر بعض الروايات عن الإلمام بكل التفاصيل، وتغفل مساهمات بعض القبائل في حدث بعينه لأسباب لعل أهمها بعد الرواية عن مصدر الخبر.

(70) د. عبدالله على ابراهيم، وثائق عن تاريخ ليبيا فى القرن التاسع عشر وثيقة 17، جـ 1، ثورة غومة المحمودى، الجماهيرية، 1983، ص 95.

(71) على مصطفى المصراتى، مؤرخون من ليبيا، طرابلس - ليبيا، الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، 1398 هـ - 1977 م، ص 173.

قاسم باشا يساعده القنصل الانجليزى (مستر هرمن) الخبير فى الحرب الفنية[72] إلى جانب عبدالله باشا، وبعد لأى انسحب من فساطو إلى تونس عام 1856، وهناك حاول تجديد إثارة صفه من جديد، إلا أن وإثارة الصف أوقعته فى المحظور إذ أنه من جانب أكسبه عداء بعض الناس ومن جانب آخر نبه السلطات التونسية إلى الخطر الذى يمكن أن تشكله حركات غومة فى الجنوب والوسط، الأمر الذى جعل حاكم منطقة الأعراض يحذر أولاد يعقوب والمرازيق وخليفة تلمين أعداء صف بنى يزيد وخليفة قبليٍّ شيعة غومة ومن فى صفهم يحذرهم من الصفوفية، وذلك بعد لجوء غومة الثانى حسب رواية المرزوقى إلى تونس 1857 فارّاً من حكومة طرابلس إلى الحامة فقد نزل على قبيلة بنى يزيد التى تشاركه نزعة شداد ومن هناك شاركته فى بعض غاراته بالجنوب على قبائل يوسف المعادية له ومن بينها الهمامة (من يوسف)[73]، ولعل إغارة حشد من قبيلة الزنتان ومن فى صفهم عام 1273 هـ - 1856 م على عربان تونس وهزيمة الزنتان حسب إشارة الأزهرى[74] تدل على انفراط عقد التحالف الكبير الذى كان منتظماً بحضور غومة، وعودة الصفوفية إلى سابق عهدها فى غيابه، ولأن الغارات لم تنقطع سواءً من قبل ورغمة وصفها على القبائل المناوئة لها دون تمييز بين تونسيين وليبيين، أو من قبل النوايل وصفها بصورة معاكسة وذلك على الأغلب خلال عام 1857[75].

قائد الأعراض والصفوفية: - للسياسة دائماً وجوه قد تخفى، ومن ذلك أن (أبا عبدالله محمد) حاكم الأعراض الذى كان غومة قد حل بمنطقته، كان يرى (نبذ الصفوفية)[76] وأنَّه لا خير فيها للوطن، مما يبدو معه أن للرجل أفكاراً تقدمية، ولكننا نجده فى موقف مختلف ربما أدَّى إليه تحرجه الشديد أمام السلطة، فعندما أحس بحرج موقف القوات الحكومية التى تحاصر نفزاوة المؤيدة

(72) عزيز سامح، المصدر السابق، ص 206.

(73) محمد المرزوقى، المصدر السابق ص 40 - 41.

(74) المصراتى، المصدر السابق، ص 183.

(75) د. عبدالله على إبراهيم، وثيقة 131، ص 308.

(76) المصدر نفسه، وثيقة رقم 143، ص 326.

لغومة، لم ير بأساً فى أن يتصرف طبقاً لما جاء فى رسالته إلى باى تونس بتاريخ 6 من صفر 1374 هـ الموافق 1857 م التى جاء فيها: إننا ما زلنا نحرك أحقادهم وعداواتهم القديمة[77]، يقصد عداوات ورغمة وبنى يزيد التى ربما كانت قد سكنت شيئاً ما، وقد نلتقط بعض العبارات من بين رسائل غومة المتوفرة حتى الآن تشير إلى أن الرجل ربما قد أصبح له هذا الرأى بعد تجربة النفى الطويلة وتفاعل تجربته مع تجارب الآخرين هناك فى (درَابزون)*، هذا الرأى نقرأه فى رسالة له إلى الشيخ محمد ظافر المدنى بتاريخ 26 من ذى القعدة 1271 هـ - 10 من أغسطس سنة 1855 م وهو «أن امتزاج الناس واختلاطهم سبب من أسباب انقطاع الهرج والنهب»[78]، فأين هذا من انحياز الرجل إلى صفه من شداد فى تونس واكتسابه عداء الصف الآخر؟، فهل نعيد فشله هناك إلى أسلوبه فى الانحياز الصفى؟ نعم، يضاف ذلك إلى مجمل العوامل الأخرى من طغيان الصفوفية إلى جهود السلطات التونسية التى لم تجد خيراً فى فتح جبهة ضد الدولة العثمانية، إلى جانب غموض الأهداف الحركية عموماً من انتفاضة غومة، الأمور التى كانت لها آثارها مجتمعة عليها فى ليبيا قبل أن تنتهى إلى حصارها فى نفزاوة.

أهل بغى وأهل طاعة:

وهكذا فمن الطبيعى أن يُعد خروج منطقة نفزاوة من قبل البغى ومفارقة الجمهور وشق عصا الطاعة التى يستوجب أصغر ذنب فيها القتل[79]، الأمر الذى عرض المنطقة للانتقام المريع الذى دمرت خلاله مدينة قبلى وتعرض أهلها للسجن وأملاكها للمصادرة على أن تباع لأهل الطاعة، فمن هم أهل الطاعة الذين يعنيهم حاكم الأعراض؟ لقد أوضح ذلك تقرير سابق موجه إلى الباى

(77) المصدر نفسه، وثيقة رقم 144، ص 329.

* درابزون: تقع على شاطىء البحر الأسود من تركيا الآسيوية حيث اعتقل غومة.

(78) المصدر نفسه، وثيقة رقم 87، ص 229.

(79) د. عبدالله على إبراهيم، المصدر السابق، وثيقة 151 بتاريخ 2 من شهر ربيع الأول 1274 هـ - 31 من اكتوبر 1857 م ص 344 - 345.

جاء فيه: «إن أهل نفزاوة من صف شداد تعصبوا لحميتهم، وخلعوا الطاعة وخالفوا الجمهور، وقاتلوا فى سبيل الشيطان» فى حين يقول عن جماعة يوسف: - «وأوصيته بمراعاة جماعة يوسف وألا ينالهم ضرر ولا مكروه فإنهم بالأمس يقاتلون فى طاعة مولانا وسيدنا أيده الله»[80].

وبرغم هذا الوضوح الصفى فى ما يتصل بعلاقات كل صف منهما بالسلطة فإننا سنظل نكرر أن تلك العلاقات ليست حتمية ولا جامدة، برغم أنها اتجاه لا يمكن أن ينفى من خلال التدخل السلطوى كثيراً ما تثار الفتن وتنتعش الفوضى لتضطر إحدى القوتين إلى الاستناد إليها (أى إلى السلطة)، وربما تهدم أسس تلك السلطة فينهار معها البناء الصفى الذى ساندته، مثل أن يتخذ غومة مبدأ المصلحية فى تعامله مع القرمانليين فقد ساند على باشا الثانى ضد أخيه المنشق عنه وعن والده، اعتقاداً منه أنه سينتصر على خصمه وستبقى الأوضاع على ما هى عليه بالنسبة لنفوذ المحاميد فى الجبل، ولكن فشل علىّ وعودة الأتراك وإصرار غومة على إعادة حكم الأسرة القرمانلية أثار عليه الدولة العثمانية فأصبحت ترى فيه وفى صفه ومن والاه كالمريّض فى ترهونة خطراً على سياستها وبالتالى وجهت اهتماماتها إلى القضاء على هذا الاتجاه، الأمر الذى تم تنفيذه فعلاً بإنهاء عبد الجليل سيف النصر وأحمد المريِّض سنة 1842 ثم غومة 1858 م بعد عودته من البلاد التونسية مطارداً من قبل سلطات الباى بها.

وبرغم ما اتضح من اتجاه عام للصفوفية، فقد يحسن بنا أن نأتى على مثال مغربى آخر، ونحن نسجل للقبلية أداءها إيجاباً وسلباً، هذا المثل يعطينا إضافة للدلالات التى تبرز دور وأصالة الانسان الذى يثور لدى إحساسه بالغبن والضيم، مهما كانت صلة هذا الانسان بالسلطة وقربه منها: - فالصبايحية ثارت[81] فى الجزائر عام 1870 ضد السلطات الفرنسية بقيادة رجال من أمثال

(80) المصدر نفسه، وثيقة 150 بتاريخ 26 من صفر 1274 هـ 16 من أكتوبر 1857 م، ص 342.

(81) الصبايحية: أو سباهى، فى الانجليزية "SEPAHY" تطورت الكلمة من دلالتها على جيش فى الفارسية إلى جندى، استعارها الترك والفرنسيون للدلالة على الجندى من

محمد الكبلوتي[82] وغيره رفضاً لعمليات تجنيد إجبارية وتسخيرهم للحرب خارج الجزائر، ولدواعي أخرى، ومما يهمنا في هذه الثورة أنها كانت تتخذ الطابع المغربي الأوسع بعد انضمام عناصر قبلية من تونس إليها، وعندما لم يقيض لها القدر الكافي من النجاح، أبعدت العناصر المساهمة في الثورة من الجزائر إلى تونس وهنا تُسجَّل ملاحظتان: ـ

أولاهما: أن يتم الابعاد عن الحدود الجزائرية، حتى لا تثور المشاكل من جديد.

وثانيهما: ـ أن تقوم السلطات التونسية الرسمية (المخزن) بتوزيع عائلات الثوار المبعدين على أربعة عروش من قبيلة (دريد التونسية)، وهي إحدى قبائل صف يوسف المعروفة في تونس بولائها للسلطة، وقد اضطر الرجل (الكبلوتي) إلى أن يهجر الأراضي التونسية إلى الليبية بعد أن طرد منها رسمياً عام 1875، تلك إذاً حركة قامت بها جماعة مخزنية كانت في خدمة السلطة، عندما اضطرتها الظروف إلى اتخاذ موقف من تلك السلطة.

ومثال آخر أن بعض قبائل الحدود التونسية كانت وباستمرار تخوض صراعات صفية مصلحية تقليدية في أواخر القرن الماضي ومنها: ـ ورغمة والتوازين والودارنة على سبيل المثال نتخذها مثالاً لصف يوسف المعادي لقبائل أخرى في تونس وليبيا، ولكن تلك القبائل الحدودية المتصارعة سرعان ما تناست ثاراتها وأحقادها وتسارعت إلى إعلان الجهاد بقيادة (الشيخ علي بن خليفة) وآخرين إثر انتصاب الحماية الفرنسية على تونس 1881، وخاضت القبائل التونسية معارك عدة ضد الفرنسيين أثبتت من جهة صحة مقولة بريتشارد

الفرسان، وكان الفرنسيون أول من أنشأ الفرق من السباهي واستخدموها: ـ دائرة المعارف الاسلامية: جـ 11، نقله إلى العربية محمد ثابت الفندي وآخرون، 1352 ـ 1933، ص 214 ـ 215.

(82) د. يحيى أبو عزيز: مواقف الرسميين التونسيين من ثورة الصبايحية والكبلوتي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871، مجلة الأصالة الجزائرية، عدد 61/60 ـ 978، ص 157 وما بعدها.

بخصوص وحدة القضية لدى البدو ضد الغرباء، ووحدة التصرف وانسجامه وفوريته ضد تهديدات المسيحيين من قبل البدو والحضر على السواء لأن البدو والحضر يعودون فقط عرباً ومسلمين، ولكنها من جهة أخرى أثبتت أن التصرف العفوي الشجاع والسريع ينقصه الثبات والاستمرارية لأنه فشل أمام القوات الفرنسية، ذلك الفشل يعزوه الشيخ محمد المرزوقي إلى الداخل، إذ يرى: ـ «أن القبلية لا تزال متمكنة... تلك التي غرسها البايات الحسينيون ـ على رأيه ـ في البلاد سابقاً، بأن كان علي بن خليفة قد تزعم نزعته في (يوسف) فإنه لم يتمكن من تزعم نزعة شداد التي كانت تربطها بنزعة يوسف مجرد مجاملات فرضتها الظروف»[83].

وقد تمكنت السلطات الفرنسية بفضل استغلال ظاهرة العداء الذي كاد يُنسي من إفشال عمليات الهجرة من الأراضي التونسية إلى الليبية إثر الحماية وبعد أن أفلحت في الايقاع بين الصفين المتلاحمين في كلا القطرين اللذين باتا يشكلان خطراً أكيداً على المصالح الفرنسية في تونس وربما في المغرب عامة، لتنجح في تفسير الصراع على أنه صراع حدودي طرابلسي تونسي، غضب لأجله المهاجرون التونسيون، وباتت عودتهم إلى تونس مفضلة لديهم على بقائهم في أراضٍ غريبة لا ترحب بهم.

لم تكتف السلطات العسكرية الفرنسية بهذا وإنما استمرأت السير في نفس الطريق تكريساً للقطيعة ووضعاً للحاجز الحدودي وتقويته، فقد شجع القائد الفرنسي لمنطقة الحدود (أليجرو ـ Allegro) القبائل المهاجرة على العودة فرادى وجماعات سنة 1887 وكانت الخطوة التالية أن نفخ في روح العداء بين الصفوف بين ورغمة وخصومها على الجانب الشرقي، وفي نفس العام قامت ورغمة من يوسف بالهجوم لغرض احتلال التراب الطرابلسي وعادت عام 1889 لاحتلال منطقة الجبل الغربي ولكنها تراجعت عن ذلك[84]، ويبدو أن

(83) محمد المرزوقي، صراع مع الحماية، تونس، دار الكتب الشرقية، 1972، ص 178.

(84) د. عبد الرحمن تشايجي: المسألة التونسية والسياسة العثمانية، 1881 ـ 1913، تعريب د. عبد الجليل التميمي، تونس، دار الكتب الشرقية، فيفري، 1973، ص 190.

معركة الحوض التى وقعت أحداثها بين قبائل من شداد وورغمة فى هذا الاطار، ومن القبائل التى تحالفت ضد ورغمة فى تلك المعركة فساطو والنوايل والرياينة[85] ويذكر (تشايجى) عن القضية السابقة للتحديد السياسى للحدود أن قبيلة ورغمة فى مواجهة قبيلتى النوايل والحوامد، وهاتان القبيلتان كانتا تعيشان بين منطقتى (مغطى ووادى فسّى) وكانتا فى صراع دائم مع قبيلة التوازين، أما من ناحية الجنوب وتجاه قبيلة الودارنة (فرع من ورغمة) فتوجد قبائل الصيعان وأولاد مريم ووازن ونالوت.

ويؤكد تشايجى: - «ان نوع العلاقات بين قبائل الحدود كان يخضع كثيراً لارادة السلطات الحكومية التونسية وطرابلس الغرب، وتبعاً لهذا الوضع كانت هذه السلطات تعمل - إذا رغبت فى ذلك - للاستفادة من هذه المنافسة القديمة بتكليف قبائل الحدود ببعض الأدوار»[86].

وعلى ذكر صراعات أواخر القرن الماضى فقد شهدت المناطق الشمالية من ليبيا صراعات مريرة لعل أبرز مثال عليها ما وقع بين قبائل الزنتان وصفها من (يوسف) وبين أولاد بوسيف وحلفائها من (شداد)، أخطرها معركة (وادى أم العجرم)، التى يعدها الشيخ الطاهر الزاوى بدايةً لصراع بينهما استمر عشرات السنين، ويذكر أيضاً أن الشيخ سوف المحمودى كان قد حضر المعركة إلى جانب الزنتان، وقد أصيب فى أثنائها، حيث بترت أصبعان من يده اليمنى (السبابة والوسطى) يقول فى ذلك من شعره:

صباع ليمنة لثنين راحوا حنة باش نمسك المقرون يوم الغنة

ولعلنا نلاحظ كيف أن الشيخ سوف المحمودى من (شداد) ينضم إلى الزنتان (من يوسف): لاضطراره إلى ذلك حسب ما جاء فى (المعجم)[87]،

(85) الحاج عبد الله خليفة، شريط 6/9 المكتبة الصوتية بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.
أيضاً الحاج يونس عمرو عبازة، شريط 6/77، نفس المكتبة.

(86) تشايجى، المصدر نفسه، 199.

(87) الطاهر أحمد الزاوى، معجم البلدان الليبية، طرابلس - ليبيا، دار مكتبة النور، 1388 - 1968، ص 238 - 239، أيضاً بيلارد نيللى: القبلة قسم 2، ص 35.

ولكننا نجد داعياً آخر لهذا الانضمام إلى الزنتان هو أن استقرار المحاميد من آل المرمورى فى تاغمة (بيفرن) اليوسفية[88] جعلت منه يوسفياً بالضرورة وذلك ما أثبتته الوقائع والأحداث المستقبلية التى تحكمت فى سيرها حركة الصفوف إلى حد كبير.

وعلى ذلك فينبغى لنا أن نتنبه إلى أن هناك انحرافاً تميل نحوه بعض الدراسات الغربية ولا سيما الاستعمارية المغرضة منها نحو إبراز خصائص عرقية لبعض السكان عن سواهم مع أننا على رأى الدكتور سعيدونى فى «أن الصراعات العشائرية يجب أن ينظر إليها من الجانب الاقتصادى وما يترتب عليه من وضع اجتماعى دون أن تعطى أيّة قيمة للخصائص العرقية»[89]، والأمر الذى نحذر منه هو تصنيف بعض القبائل المنتمية لصف من الصفين شداد أو يوسف واعتبار قبائل صفّ منهما منتمية حتمياً للسلطة أو متساهلة معها كائنة من كانت هذه السلطة، وخاصة إذا ما اعتبرنا أن الأساس القرابى (العرقى) هو أساس البناء الصفى أيضاً، فإذا كانت المحاميد (على رأى الأخ محمد الطوير): «على علاقة قربى مع النوائل والجوارى والبلاعزة وأولاد سنان لانحدارها من سليم وهو ما كان يعرف بحلف شداد خلافاً لبعض القبائل التى كانت متساهلة فى سياستها مع الأتراك العثمانيين مثل ورشفاقة والقول أوغلية وهو ما كان يطلق على حلفهم اسم يوسف»[90]، فإننا بخلاف ذلك نجد العلاقات الحلفية والصفية علاقات كثيراً ما كانت عكسية تقررها المصلحة والتناصر من باب (عدو عدوى صديقى) فالقبائل المتجاورة كثيراً ما تتخاصم، لتتحالف البعيدة

(88) هذا إذا كنا قد بلغنا العقد الأخير من القرن الماضى، فقد وقعت معركة أم العجرم فى 8 شهر ربيع الثانى 1308 هـ نوفمبر 1890 م حسب بيلاردنيللى - المصدر السابق، ص 36، وحسب الزاوى فى المعجم، ص 338، وقعت فى خريف عام 1309 هـ، وقد توالت الأحداث التى تجعلنا نجزم بحدوث ذلك التغير.

(89) سعيدونى، المصدر السابق، ص 143.

(90) محمد الطوير؛ الحركات الاستقلالية ضد حكم العثمانيين فى ليبيا، مجلة الاخاء: - عدد 4، مارس 1973، ص 114.

وتتناصر[91] وحقيقة أخرى تضم إليها هو أن كلا الصفين يضم قبائل من سليم فمثلما يتوفَّر صف شداد على بعض منها يتوفر صف يوسف على الكثير منها بل إن قبيلة كالزنتان مثلاً وهى[9] أم صف يوسف تنتسب مثل الرجبان مع كثير غيرهما إلى سليم[93].

ربما تبين بما فيه الكفاية ان ولاء المجموعات القبلية ظل غير محكوم إلى قواعد حتمية من نسب أو عرق أو مذهب، لأن الشواهد التاريخية أثبتت أن تلك الولاءات حكمتها ظروف الأرض وضرورات الحياة خلال حقبة معينة دفعت اليها فى الغالب حركة الانسان على سطح هذه الأرض، مما دفع إلى صراعات من أجل القوت، دعت إلى تعامل الناس مع نوع الأرض التى دُفعوا إلى الحياة فوقها، وقد اتخذنا غومة مثلاً من أمثلة الرجال الذين قادوا الصفوف، ولكنه لم يكتف بقيادة صفه بل حاول بناء كيان أكبر موحد، ظهر من خلال بعض مكاتباته أنه كان يأمل فى اختفاء ظاهرة النهب والسلب وعودة الناس إلى سابق عهدهم، وربما استفاد الرجل من فترة النفى الطويلة، فإن حركته تمكنت من الوصول إلى قلوب الناس المرهقة بظلم السلطات، وشىء آخر أثبتته الوقائع أيضاً أن العداء لم يكن متأصلاً متمكناً، بقدر ما كان أمراً وقتياً، لأن القلوب سرعان ما تتصافى وتتآخى من جديد حالما وجدت الشخصية القادرة على الجمع والاصلاح بين أى صفين متخاصمين، ومما يؤكد ما ذهبنا إليه ما وجد من (صحبة) بين عائلات كثيرة بين قبيلتين أو صفين متصارعين أو حليفين[94]،

(91) الحاج على الباطل: ـ شريط 6/85، المكتبة الصوتية بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس.

(92) الأم: لغةً الوالدة وتعنى أيضاً أصل الشىء ومن القوم رئيسهم؛ فلربما عنت كلمة (أم الصف) المعنيين الأصل والرئاسة؛ أنظر جبران مسعود؛ الرائد، ط 3، بيروت ـ لبنان ـ دار العلم للملايين، 1967، ص 327.

(93) هنريكو دى أغسطينى؛ سكان ليبيا، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسى، بيروت ـ لبنان، دار الثقافة، 1395 ـ 1975، ص 483 و491.

(94) أى. جى. إتش. جوفى: ـ المصدر السابق، ص 3.
أيضاً الحاج عبدالله خليفة، شريط 6/9 نفس المكتبة.

كانت هذه الصحبة تتحدى ظروف الحرب والكره وتسهم بالإحسان إلى بعضها رغماً عن وقوع الصدامات الفعلية المروعة، ولعل ذلك أيضاً مما يؤيد ما ذهبنا إليه من غلبة التأثيرات الخارجية (القوى الأكبر) والبيئة الاقتصادية على السكان، الأمرين اللذين يرتبطان فى ذهن باحث حركة الصفوف بحيث يشكلان وحدة مؤثرة فى مسار الحركة الاجتماعية للقبيلة من محورين: ـ تأثير الصراع السياسى فى سبيل السلطة والتأثير المناخى البيئى المشابه.

وفى الحق لا نجد فى ظاهرة النسب والتنسيب ما يثير الحماس.

أولاً: لأن النسبة والانتساب إلى رسول الله ﷺ كانت قد خيَّمت عليها ظلال من الشك ثقيلة منذ زمان بعيد، حينما صارت موادُّهما تغيبُ شيئاً فشيئاً وأصبح التاريخ غفلاً منهما، كما أصبح الشك الآن مُثاراً من قبل أغلب الدراسات حول أمورٍ أخطر بكثير ممَّا أثير حول الانتساب؛ من مثل ما يتعلق بالرواية والرواة، فما بالك بدعاوى الانتساب إلى رسول الله ﷺ، وهى التى لم يكن لها حظٌّ فى ثقافة الإسلام، وإذ لولا ما اقتضته ضرورات الإرث لَمَا اتَّصلت شجيرات النسب المحدودة التى كانت تخدم ـ فحسب ـ تلك الضرورات.

وثانياً: ـ لأن ظاهرة العناية الفائقة «برسم شجرات القرابة الأبوية التى تبين العلاقات الدموية الدقيقة بين أفراد اللحمة»[95] أو القبيلة لم تعد الموضوع الذى يهم الفرد أو القبيلة كثيراً، بل عادت اللحمات والقبائل أحياناً لِتَدُلَّ على أسماء الأمكنة وليس على وحدات القربى وصلاتها.

النشأة البيئية وإيجابيات الصفوف: ـ

على الرغم من ندرة الدراسات التى تعنى بتقصى النواحى العسكرية والقتالية لدى المقاتل الليبى خلال الحقب المتأخرة، فإن الكاتب نجم الدين غالب الكيب ربما ينفرد بدراستين له صدرت أولاهما تحت عنوان: (لمحات عن الحياة العسكرية فى ليبيا 1711 ـ 1835) والثانية بعنوان: ـ (فضول فى التاريخ الليبى)، وتعتبر الأخيرة منهما تطويراً للأولى كما حدثنى ذات يوم، ومن مجمل

(95) جميل هلال؛ المصدر السابق، ص 42.

آرائه فى المقاتل الليبى خلال تلك الفترة وهو يقصد (المقاتل البدوى): «أن عرب القبائل الليبيين قد أثبتوا فى تلك الحروب التى خاضوها بصورة منفصلة دفاعاً عن استقلالهم أو رداً لمظالم قد لحقت بهم أنهم سادة أنفسهم وشجعان لا تلين لهم قناة»[96]، وطبقاً لمسز توللى فإنهم: «كانوا لا يهاجمون عدوهم إلا على صورة رهوط كثيرة يزحمون بها ذلك العدو ويدمرونه»[97]. وهذه النشأة البيئية التى نعثر عليها خلال تحليلات الكاتب تقودنا إلى أن حمل السلاح واستعمالاته اليومية تكسبان الفرد دُرْبةً على استعمال السلاح، ولهذا فمن الحق أن يقرر أن «القبائل كانت رأسمالاً دائماً فى الحياة العسكرية فى ليبيا كما كانت قاسماً مشتركاً أعظم فى كل ما وقع من حروب فيها»[98]، وعلى رأى الدكتور البربار «فإن الأحلاف أو الصفوف القبلية تلعب دورها فى تشجيع قبيلة ما فى الدفاع عن موطن القبيلة الأخرى إذا كانت داخلة معها فى حلف أو صف[99]، الأمر الذى وقع فعلاً خلال أحداث الجهاد الليبى، إذ تنادت القبائل وتداخلت دون دعوة فى أحيان كثيرة مشاركة فى افتداء إخوتها من أبناء وبنات القبائل الأخرى.

دعوة الجهاد ووحدة الموقف: ـ

لقد وحّدت دعوة الجهاد موقف الجميع ضد العدو الخارجى، ذلك أن الايطاليين على حد تفسير بريتشارد أغفلوا حقيقة عظيمة الأهمية وهى ان تكوين

(96) نجم الدين غالب الكيب: لمحات عن الحياة العسكرية فى ليبيا، 1711 ـ 1835، لبنان ـ بيروت، دار الكتاب اللبنانى، 1967، ص 53، أيضاً لنفس الكاتب (فصول فى التاريخ الليبى)، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1982، ص 52.

(97) مسز توللى؛ عشر سنوات فى بلاط طرابلس، نقله إلى العربية عمر الديراوى أبو حجلة، طرابلس ـ ليبيا مكتبة الفرجانى، ر.ت. 489.

(98) الكيب؛ فصول فى التاريخ الليبى، ص 52.

(99) د. عقيل البربار: ـ مقال بعنوان: ـ الأسس الاقتصادية والاجتماعية لحركة جهاد عمر المختار 1923 ـ 1931 ـ، نشر ضمن كتاب (عمر المختار نشأته وجهاده من سنة 1862 إلى 1931) الجماهيرية، مركز دراسة الليبيين ضد الغزو الايطالى، 1981، ص 79.

مجتمع البدو هو من ذلك النوع الذى مهما كان حجم المجموعة التى يعتبر الفرد نفسه مرتبطاً بها فى أى موقف، فإنه من حيث ولائه لها يعادى المجموعات الأخرى من نفس المستوى فى التكوين القبلى، فالبدوى موالٍ لبيته ضد البيوت الأخرى ولعائلته ضد العائلات الأخرى، ولقبيلته ضد القبائل الأخرى، ومن هنا فإن لديه شعوراً قوياً بالمشاركة مع جميع بدو بلده بغض النظر عن قراباتهم القبلية فى عداء عام ضد المدن، ولكن البدو وسكان المدن جميعهم عرب، ولديهم قضية واحدة ضد الأتراك، بيد أن التركى والعربى يشتركان فى ولاءٍ أوسع: ـ اعتبارهم للسلطنة ونظرهم للإسلام، وقد تصرفوا بانسجام فورى ضد تهديدات الدول المسيحية، وضد المسيحية ما كانوا يعدون عرباً وتركاً بل مسلمين[100].

ومما يجدر ذكره أن غلبة نمط الحياة البدوية فى ليبيا أكسبت بدوها الانفراد بخاصية فريدة، وهى أنهم لم يقعوا فى أسر مالك الأرض الذى اتخذ له فى سوريا بيتاً فى المدينة يمارس من خلاله سلطاته الربوية، ولأن الفلاح فى مصر وسوريا والعراق وفلسطين والمغرب كان يستقر على قطعة من الأرض، فقد مورست عليه شتى الضغوط، الأمر الذى سئم منه بدوى ليبيا، لأنه لم يقيد نفسه إلى قطعة محددة من الأرض لا يتمتع بكامل التصرف فيها، ولذلك فإن أحداً لا يمكنه اجباره على الرضوخ لأحد تحت تأثير سوط قلة الأرض أو الدين، كما «أنه ليس ثمة ارتباطات اجتماعية وثيقة مع المدن حتى تستطيع المدن والمراكز الادارية التحكم فى البدوى من خلالها وخارج المدن يصير كل شيء بدوياً»[101].

وهكذا أمكن لحركة الجهاد الليبية أن تستنفر (حملة السلاح) كافة من أبناء الوطن الذى كان يبدو ممزق الأوصال، ضعيف البنية، فهل كان الوطن فعلاً كذلك؟ نعم كانت القبائل شتّى صفوفها واضحة، يقتل الأخ أخاه ولا يلام ويُنصر الظالم لا يُرد عن ظلمه وقد يعان عليه، وعندما أقبل التحدى يفرض

(100) بريتشارد؛ المصدر السابق، ص 175.

(101) المصدر نفسه ص 85 «ربما كان يعني بالمغرب الأقصى منه».

نفسه، تحدى العدو الخارجى الذى صمم على قتل الجميع وإبادة الجميع دون تمييز بين يوسف وشداد أو صف البحر والبر، عندما تبين ذلك كله، وضحت إيجابية أخرى لحركة الصفوف، تلك التى تمثلت فى تشكل وحدة حلفية أكبر، تحكمها المصلحة العامة للبلاد، ولكنها تبقى على القبيلة وعلى الزعامات القبلية، بما بينها من علاقات تقليدية جرت مجرى العرف، فيما يعرف (بجبر الخواطر) أى الاحترام المتبادل، لتكوِّن جبهة مقاتلة من المتطوعين الذين عركتهم الحياة والذين لم يكونوا بحاجة إلى تدريب على أنواع الأسلحة المتوفرة آنذاك، وهكذا لم يجد العدوان الايطالى فراغاً ولم يقابله الخواء بل اصطدم بحاجز التصميم الأكيد لدى المواطن الليبى الذى لم يفاجأ بوجوده فى خضم معركة، إذ لم يخرج شيء عما اعتاده، فقط توفر للمجاهدين حماسٌ لم يتوفر لمقاتلى الصفوف وهم يقتلون أنفسهم، فهم أمام عدو خارجى يرمى إلى استعباد واذلال ومسخ شخصية الجميع، وإذاً (فالرجل بسلاحه)[102] كان أصرح الجوانب الإيجابية لحركة الصفوف، وأنها على الأقل كانت معسكرات تدريب نجحت فى إقامة علاقة بين المقاتل والمقاتل تلك التى تحولت إلى علاقة أخوة سلاح ضد المعتدى الغريب، بل إن التلاحم امتد ليشمل أبناء تونس الشقيقة، وقد تجلى ذلك واضحاً فى انتفاضات الغضب يوم الزلاج 7 من نوفمبر 1911 وأياماً أخرى يخلدها الشعر الشعبى في (المتلوى) وغيرها، كما لا يمكن أن ينسى المجاهدون الليبيون قوافل التموين التى كانت تجهزها فئات وطنية لا تفهم معنىً لقيام حدودٍ اصطناعية بين شعب لا يعترف بها عملياً، وبحيث نقشت على ذاكرة أى مجاهد عاصر الفترة أعلاما ومعالم: (بن قردان ـ عبد الجليل الزاوص ـ عزيزة عثمانة الخ)، أما على الصعيد البدوى فقد كان التضامن أمضى وأحدّ لأن أحداث ثورة الجنوب التونسى عام 1915، ازداد ارتباطها بحركة الجهاد الليبى وبرز أبطال من الجانب التونسى خاضوا المعركة جنباً إلى جنب مع المجاهدين الليبيين من أمثال: ـ عمر الأبيض ومحمد صالح الدغباجى، وألوف غيرهما كتبوا بدمائهم وعرقهم ووفائهم ملحمة من ملاحم الجهاد الخالدة عبر التاريخ.

(102) إشارة إلى المثل الليبى القائل: ـ «الراجل بسلاحه».

سلبيات مفروضة: قد نكون فى أمس الحاجة إلى الاستعانة بالدراسات الاجتماعية لطبيعة المتغيرات الاجتماعية فى البلاد، ولئن كان الأمر فى حاجة إلى دراسات تاريخية اجتماعية متأنية رصينة، فإننا نستطيع أن نحكم بأن الأنشطة الاقتصادية الكبرى تحمل عوامل التغيير وأحياناً عوامل الثبات والاستقرار، وأن زمناً طويلاً مرَّ على هذا المجتمع دون أن ينتابه نوع من التغيير يتناول تركيبته الانقسامية الثأرية، وذلك النظام القبلى الانقسامى المشار إليه هو نظام اقتصادى فى الدرجة الأولى حتمته ظروف البيئة، وأنظمة الحكم وطرق الادارة، تلك التى تكاثفت على الانسان الليبى لتفعل فعلها فى الحجر عليه ودفعه إلى سلوك ذلك النمط من العزلة فى مفاوز البادية والصحارى مما كان له أكبر الأثر على ممارسته أنماطاً ثقافية حضارية معينة محدودة، جعلت الفرد أحلاماً ونزعات لا تخرج عن نطاق القبيلة، وقيادة القبيلة لا تخرج عن محيط مجتمعها المحدود بالانسان فيها والزمان[103] إلا أننا لا نغفل ما وقع على الساحة من ظهور نوع من القيادة إلى جانب التقليدية منها، وهو القيادة الدينية ربما بتأثير روح القرن التاسع عشر التى بدت فيها بوادر حركة علمية سياسية فى آن، على أننا نلاحظ أنه برغم حاجة الناس فى الدواخل حيث فرضت عليهم تلك العزلة برغم حاجتهم إلى هذا النوع المرتبط بعقيدة الفرد القبلى، الذى كان يمارس شعائره الدينية فى المستوى الأدنى من العلم بأصولها، فالظلمة والجهل يضربان بأطنابهما منذ قرون برغم تلك الحاجة الماسة إلى العلم وإلى التعلق بأى مرشد من أى مستوى فإن مكانة مشائخ الطرق، وتأثير تلك الطرق يصطدم بالنظام القبلى التقليدى حيث وقع التنافس الشديد بين «المرابطين»[104]، وشيوخ القبائل، بين الصوفية التى تحاول الاستناد أو ربما التستر خلف دعوات دينية، وبين القوانين والأعراف القبلية الثأرية، ولا شك أن القوى الأجنبية لم تغفل أو تتغافل عن حقيقة ظهور الطبقة

(103) مالك بن نبى: فى الطريق إلى عالم الأفكار، محاضرة ألقاها بجمعية الفكر الليبية للموسم الثقافى 61 ـ 1962 طرابلس ـ ليبيا، جمعية الفكر، أغسطس 1969، ص 53 ـ 59.

(104) نعنى (بالمرابطين) الدراويش ذوى الشطحات الصوفية والرؤى الغيبية، لا حركة (مرابطى الجهاد).

الدينية أو ارستقراطية رجال الدين، بما تمارسه من طقوس، وما تحفل به طرائقها من غيبية وضبابية، استغلالا لسذاجة أهل الفترة، ولحاجتهم الملحة إلى الاشباع الروحى لديهم، إذ حاولت تلك القوى أن تحتوى السنوسية مثلاً، والمدنية[105]، ففى حين تأخر السنوسيون عن المشاركة فى حرب الجهاد الأولى ضد الايطاليين تأخراً مشبوهاً، لم يتأخر رجال القبائل وإنما تنادوا فرساناً ورجالاً إلى ساحاتها منضوين تحت لواء شيوخهم تحت قيادة الضباط الليبيين والأتراك، هذا فى القطاع الشرقى[106] أما فى القطاع الغربى فإن تأثير الزوايا كان ضعيفاً جدّاً، وظهرت الغلبة لشيوخ القبائل وظلت زعاماتهم فى الغالب وطوال فترة الجهاد ثابتة إلا نادراً، لأن الصفوف هى الصفوف وحيث يتفق الشيوخ تقع الوحدة وحيث يختلفون كانت تقع المآسى، وقد نُورد أمثلة من ساحة الجهاد ونذكر نماذج قيادية لمجرد الاستدلال.

وما دمنا قد أشرنا إلى دور الطرق الدينية الذى لعبته فى تاريخنا الحديث، فإننا سنستأنس برأى أستاذنا المرحوم (مالك بن نبى) فى هذا الخصوص إذ يتلمس بعض الحق حين يقول: «إن البندير والطرقية استغرقا عصر سبات الجماهير الذى استمر قرون ما بعد الموحدين، وشكلا حالة الوسط البسيط القابل للاستعمار»[107] فالطريقة الدينية بهذا المعنى لا تشكل قاعدة ومنطلقاً حضارياً، بل وسطاً للتقبل والامتصاص، ونحن لا نختلف عما يقول به المفكر الكبير، ومع اختلافنا مع الأستاذ بريتشارد فى بعض أحكامه مثل تلك التى تقرر

(105) كارلوفوتى: من مذكرات انسباتو: العلاقات الليبية الايطالية، ترجمة عمر البارونى، الجماهيرية، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس، 1980 ص 169.

(106) على البوصيرى على؛ مقال: الزعامات الوطنية، مجلة الشعب المسلح، عدد 44 ص 64، عن شكري: السنوسية دين ودولة، ص 138.
أيضاً: أنور باشا فى طرابلس الغرب، ترجمة وتقديم عبد المولى الحرير، الجماهيرية، من منشورات المركز، 1979، ص 58 و92.

(107) مالك بن نبى: فى مهب المعركة (ارهاصات الثورة) ط 2، القاهرة، مكتبة المثنى، مطبعة دار الجهاد، 1972، ص 98.

«بأن شيوع هذه الطوائف (يقصد الدينية وربما الصفية أيضاً) ذات الوظائف الاجتماعية المتعددة، إنما يرجع إلى حد كبير إلى انعدام الحياة المشتركة فى الاسلام انعداماً تاماً[108] وهو حكم عارٍ من الصحة بل إننا نجزم أنه حكم تعسفي مغرض لم يأت عن رؤية قاصرة من تلك التى تدين تعاليم الاسلام نتيجة ممارسات بعض البشر، فالمجتمع الاسلامى خلال قرون طويلة توارث عقائد وعادات وتقاليد وآداباً مختلفة القيمة هى مجمل التراث الذى يكون ذاتية المسلم التى امتزجت واختلطت شرها وخيرها على ما نرى فى ذلك، وإذاً فليس من منطق الأمور أن يكون الاسلام فى عقائده الأصيلة مسؤولاً عن ممارسات مسلمى العصر الحديث أو المعاصر، ولكننا برغم اختلافنا مع الأستاذ بريتشارد فى ذلك فإننا نتفق معه فى تأييد دعوى (بيرلامنس) القائلة بأن طوائف الدراويش قد ازدهرت فقط فى خلفية متأخرة ثقافياً وفى الأقاليم التى تسيطر عليها الفوضى[109].

فإذا تميزت الفترة الأولى من الجهاد بوحدة الصف فإن تلك الوحدة يصيبها أول تصدع مريع خلال أكتوبر من عام 1912، ذلك الذى نحسب له دواع وأسباباً لا نستبعد منها أثر وتأثير حركة الصفوف من بين تلك الدواعى والأسباب، ولكن حركة الجهاد تنطلق برغم موجة اليأس لترسى دعائم جبهة صمود ومقاومة طويلة تمتد ما بين ورفلة والحدود التونسية مروراً بجندوبة، التى وقعت بها تلك الملحمة الخالدة التى عبرت عن أصالة هذا الشعب وروحه النضالى العنيد، وبرغم تقدم الايطاليين فقد ظلت روح المقاومة حيةً لم تَمُتْ فمنذ استشهاد الشيخ الجليل محمد عبدالله البوسيفى أحد أبطال جندوبة فى معركته الجديدة المحروقة أواخر ديسمبر 1913 م... تحركت روح الثأر من جديد، لتصنع لبنات جديدة فى صرح المقاومة المتجددة، فهذا خليفة بن عسكر يقود حفنة من رجال ثأراً لكرامة الانسان فى «لقن عمران» وهؤلاء مجاهدون على مشارف الجفرة (فى الفاتية) يثيرون قلق الفرق العسكرية الايطالية ويدمرون

(108) بريتشارد: ـ المصدر السابق ص 13 ـ 14.
(109) المصدر نفسه: نفس الصفحة.

مواصلاتها، وهؤلاء رجال قادهم المجاهد سالم عبد النبى الناكوع ليسترد قلعة القاهرة بسببها ويبيد الحامية الكبيرة فيها، وتتواصل الأحداث عندما نمد أبصارنا إلى وديان درج وموازياتها فى القبلة ومنطقة الوسط حيث احتفظ الرجال بأسلحتهم، يبدون الاغتباط بالمجاهد ينضم إلى صفوفهم دون أن تتضح لدى الجميع أية نعرة فلا يوسف ولا شداد، بل هو ارتباط عقائدى لا يدين بسوى العداء للعدوان الآثم الذى يصبح الهدف الثأرى المستهدف الملحّ والآنى، وتتضح هذه المرحلة الجهادية، لتعرف بمرحلة ما بعد جندوبة ولتستمر أحداثها التطهيرية التى ألجأت الفلول الايطالية الهاربة إلى مراكز ساحلية محدودة على الساحل تحتمى بالأساطيل، ولولا ذلك لانتهى أمرها، وظل ذلك الهدف النهائى قضية وقت وإمكانات، وتنشب الحرب العالمية الأولى، وتعود الدولة العثمانية مع حليفتها لتشجيع الثورة الليبية ودعمها، وذلك بعودة فوج من قدامى المجاهدين المهاجرين فى الأقطار العثمانية الشرقية، وكان على رأس هذا الفوج الضابط العثمانى نورى بك أخو أنور باشا ممثلاً للسلطان ومشرفاً على النواحى العسكرية يرافقه سليمان البارونى قائد جبهة الرفض ورئيس حكومة يفرن عام 1912 ـ 1913 ومعه الشيخ محمد سوف أحد أبرز أعضاده، وسرعان ما دارت الشكوك حول المهمة التى جاء من أجلها نورى ورفاقه الذين استقروا فى القطاع الشرقى على مقربة من حدود مصر، ويقع التحرش بالقوات البريطانية فى مصر الأمر الأساسى الذى بدا من المهمة الموكولة لرجال الفوج، وكان هذا التحرش بدون رضا أحمد الشريف، وبرغم محنة البارونى المتمثلة فى اعتقاله قرابة العام من قبل أحمد الشريف وتعرضه للمساءلة، فإن المهمة التى قدم من أجلها الفوج نجحت فى تحريك الجبهة وفى إشغال القوات البريطانية الموجودة فى مصر بعد فوات الأوان، وتبدو هنا أوجه للمقارنة بين هذه الحملة الفاشلة التى كلفت الدولة العثمانية وحلفاءها الكثير من الدعم والامكانات المادية حرصاً منهم على ضمان قدرٍ كافٍ من النجاح لها، وبين الثورة التى خاضها مقاتلون ليبيون وتونسيون بقيادة خليفة بن عسكر دون أى دعم من أحد سوى ما يحصل عليه الرجالُ غنيمة من أيادى الأعداء.

والسبب فى رأينا يرجع إلى التلاحم الشعبى وإلى هجرة القبائل التونسية

التى كان لها أكبر الأثر فى اتخاذ استراتيجية الحرب الخاطفة بعد تجربة احتلال المواقع، وكان لهذه الخطة التى يفيد فيها وجود فئات مقاتلة من كلا القطرين يعرف رجالها مسالك ودروب البلاد التى عاشوا فيها ودرجت هذه الفئات على التخطيط والتنفيذ وقيادة الرفاق، ومع هذا فقد كان فى امكان (المحلات المشتركة) تحقيق نجاحات أعظم لولا وقوع أخطاء تمثلت فى عمليات سلب ونهب[110] ـ ليست كلها شرعية على ما نرى ـ وهو موضوع يصلح بل ينبغى أن يدرس كعامل مؤثر فى سير أحداث الجهاد. تلك هى دواعى النجاح الذى أحرزته ـ إلى حد ما ـ قوات المجاهدين على الحدود التونسية الأمر الذى تم بشكل مختلف على صعيد معارك الجبهة الشرقية، فقد اقتصر الأمر فى الغالب على الجهود العسكرية القتالية الرسمية والنظامية، وبرغم أننا لا نقلل أبداً من جهود مجاهدينا على تلك الجبهة ولا فى كفاية الضباط وضراوة القتال، فهناك أيضاً الفاصل الصحراوى الواسع الذى يفصل بين مناطق العمران، وتحول أغلبية الشعب المصرى عن البداوة إلى الاستقرار الزراعى، كلها أمور تسهم فى توهين الروابط الاجتماعية بين الكتل البشرية فى البلدين خلال تلك الفترة ما عدا تلك التجمعات القليلة مثل أولاد على مثلاً التى شذت عن القياس، يضاف إلى ذلك أنه خلال فترة اعتقال البارونى يرسل أحمد الشريف الشيخ محمد سوف نائباً عنه وليدير بأمره أمور الولاية التى لم يستقم له أمرها[111]، لأن زعماء القبائل عادو ليشكلوا حكوماتهم القبلية كل فى نطاق نفوذه، فالسويحلى فى مصراتة، وأحمد المريض فى ترهونة، وعبد النبى ينتزع السلطة من عائلة بن

(110) محمد المرزوقى: دماء على الحدود، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1395 ـ 1975، ص 103 وما بعدها.

(111) محمد إبراهيم لطفى المصرى: تاريخ حرب طرابلس الغرب، مصر ـ بنها ـ مطبعة مؤسسة الأمير فاروق، 1946 ـ 1365، ص 59.
أيضاً الزاوى: المصدر السابق، ص 232 ـ 233.
أيضاً المختار الهادى بن يونس: مقال نشر بمجلة الشهيد تحت عنوان: ـ (من سجل الشهداء الخالدين)، عدد 3، صادرة عن مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، 1982، ص 168.

قطنش فى ورفلة، وتستقل غريان تحت حكم آل كعبار، وتتأرجح المنطقة الغربية والقبلة تحت عشرات الرؤساء التقليديين، واضح أن الفترة كانت فترة فوضى سياسية وادارية لا حد لها، وواضح ان للسنوسية ـ كتجربة سياسية ـ الضلع الكبرى فى ما حدث من فتن ودون أن نتجنى على أحد فإننا لا نرفع التهمة عن بعض قادة الفترة الذين صاروا يجوبون المناطق باسم السنوسية، دون أن تتضح لديهم خطة معينة للجهاد، فهذا الفتى صفى الدين منيباً عنه الشيخ أحمد التواتى الذى يدعى نسبة آل السنوسى إلى آل الحسين[112]، جلباً لرضا الناس وتقبلهم مجرياً من الأمور ما يتناقض ومصالح الجهاد والبلاد ملغياً دور الشيخ سوف الذى كان مبعوثاً سابقاً وإن تأخر وصوله أو أن أحمد الشريف أراد إلغاء دوره مثل إلغاء أدوار الآخرين الذين لا ينتسبون إلى السنوسية عرقياً، وإن كان الشيخ سوف قد أجرى هو أيضاً من الأمور ما يخالف الأصول المرعية على الأقل القبلية منها، وأقام حكام مناطق معينة من أولاد عمومته الصرحاء. وذلك محمد العابد السنوسى يتقدمه (الهاشمى الزوى) قادماً من الجنوب نحو جبل نفوسة ليعيث فساداً وليضيف إلى الهم السنوسى الأول اكتساب الغنائم، إنه ما جلس إلى طعام فاتكأ أو افترش بساطاً، إلاَّ واحتمله بدعوى أن سيده فى حاجة إليه، وما

(112) إشارة إلى استفتاء الشيخ أحمد التواتى (وكيل صفى الدين) المؤتمرين فى مسلاتة بداية عام 1916. لتفاصيل أكثر أنظر: ـ الزاوي؛ جهاد الأبطال، ص 248؛ حيث جاءت روايته عن أخطر مؤتمر وطنى عقد فى سنة 1915 بمسلاتة حضرته معظم القيادات القبلية وشيوخ العلم، وحضره من الجانب الآخر صفى الدين السنوسى الذى اختلف مع رمضان السويحلى إثر معركة القرضابية، فلم يحضر هذا الأخير المؤتمر، وجاء فى خطبة الشيخ أحمد التواتى وكيل صفى الدين ما يحرِّض على رمضان ويؤلبُ عليه رجال المؤتمر، ومما أُلِّبَ به على رمضان استشهاد التواتى بهذا البيت من الشعر: ـ

أتطمع أمةُ قتلت حسيناً شفاعةَ جدِّه يوم الحساب؟!

مشيراً بذلك إلى الموقف الأموى من على بن أبى طالب ونسله، وأن الله لن يرضى عن كل مخالف يشبه موقفه ذلك الموقف التاريخى، ولعل ذلك الخطاب كان أهم سبب أدَّى برمضان إلى قتل التواتى حين وقع بين يديه خلال أحداث الفتنة الجائحة سنتى 1915 ـ 1916.

دعوى الهجران عند هؤلاء إلا إحدى وسائلهم المبتدعة، ناهيك عن كيل الاهانات والاتهامات لرجال لهم سابقتهم فى الجهاد، وتختلط الأمور وتقع الأحداث الجسام فى الجبل، وعلى الأخص بين المنطقتين المتجاورتين المتجانستين فساطو من جهة والرجبان والزنتان من جهة أخرى، وتلك هى الفتنة الأولى التى يخطىء من يزج فيها بأية قضايا أو مبادىء أو مواقف سياسية من أى نوع بل هى الفتنة وضعاً وموضوعاً لا تتعلق بشىء سوى تلك الصراعات الصفية السلطوية، وحين تبدأ بأسباب سخيفة كنهب جمل وبضع بقرات يضاف إلى أسبابها ضغوط الحاجة الاقتصادية، وافتقاد المجاهدين إلى نظام مالى وضريبى معين تدار عن طريقه أسلاب الحرب أو تجمع ضرورات الجهاد أو تنفق أموال الزكاة، فقد يصر مسؤولون على إرسال الغنائم إلى مراكز فى الكفرة أو الجغبوب، فى وقت تدنت فيه الثقة برجال السنوسية وعلى الأخص محمد العابد الذى تبلغ الحال بوكيله الهاشمى حداً من الاستهتار يقتل فيه الشيخ سعد جلغم دون وجه حقٍّ ويغتصب ابنته مع اقترافه من الآثام والسيئات ما يندى له الجبين، كان آخرها فى الجبل[113] حيث ضيق على المجاهدين الذين يخالفون بعض أوامره مثل خليفة بن عسكر الذى قبض عليه وسجنه حتى كاد يهلك، لولا أن تيسرت له سبل النجاة، وعلى أية حال فقد كان من السياسة العامة للسنوسية خلال الأعوام 1914 ـ 1917 م وسواء كان ذلك على عهد سيطرة أحمد الشريف على مقاليد الطريقة أم بعد تخليه مضطراً لابن عمه إدريس بعونٍ من القوى الحليفة (بريطانيا ـ إيطاليا ـ فرنسا)، كان من سياستها ـ وهى تمكن لنفسها ـ محاولة إقصاء أية قوة أخرى منافسة، وقد تبينت هذه القوة المنافسة بوضوح فى الدولة العثمانية ومن يمثلها كنورى والبارونى وصاكيب (ثاقب) ورمضان وابن عسكر وعبد النبى وكل من يدور فى فلك الدولة العثمانية أو يميل إلى التعاون معها، وقد انتهى الأمر إلى قبول حد أدنى من التفاهم بين أحمد الشريف الذى اضطر إلى الاصطدام بالقوات البريطانية فى مصر وهزيمته على

(113) الحاج عبدالله محمد العتيرى، شريط 6/19، المكتبة الصوتية بمركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.

يديها عام 1916، وابن عمه محمد إدريس الذى صار نجمه إلى اللمعان مستفيداً من نتائج الحرب لمصلحته الشخصية، على أن الحد الأدنى من الاتفاق بين الرجلين كان هو التعاون ضد ممثلى السياسة العثمانية من أمثال نورى والبارونى، لأن أخشى ما يخشاه أحمد الشريف هو أن يصل أحدهما إلى ناحية الحدود التونسية، ولأن ذلك سيعجل بضياع طرابلس وخروجها من أيدى السنوسية[114]، دون أن يكون فى التقدير والحسبان أن تصرفات وكلائها وممثليها هى التى عجّلت بفقدانها السيطرة على الأوضاع فى القطاعين الغربى والجنوبى من الوطن، على أن مؤتمر مسلاتة الذى عقد فى بداية عام 1916 كان بداية الفتنة التى انحازت خلالها ترهونة وصفها إلى صفى الدين السنوسى، فى حين انحازت ورفلة إلى مصراتة دون أن تكون من صفها التقليدى. وسنرى أن الصفوف تعود شيئاً فشيئاً إلى ما يقرب من أحلافها التقليدية بعد ذلك، ليعود الصراع أصرح صفية حين تعود ورفلة إلى التقرب من ترهونة مثلاً والعكس، وتبقى مصراتة إلى جانب صفها (البحر)، وعن تلك العلاقات الصفية تتحدث دراسة (بالانجليزية) محدثة عن أولاد سليمان لكاتب مجهول يبدو أنه من تلك التقارير الاجتماعية ذات العلاقة السياسية فتقول: - «إنه خلال سنوات الأزمة 1916 - 1917 - 1918 - 1919 عندما عانت قبيلة القذاذفة من الجوع والمرض والحرب الداخلية، كانت تمضى فترة من كل عام فى ورفلة حليفتها، وكانت علاقتهما مع المغاربة علاقة الحلف الطويل الأمد»[115] وبدون أن نقوم

(114) فبرتيزيوسيرا: إيطاليا والسنوسية - عشرون سنة من العمل الاستعمارى فى برقة، ترجمة رسالة أحمد الشريف الموجهة إلى محمد إدريس والمؤرخة 15 من صفر 1335 هـ - 21 من ديسمبر 1916 م والتى تضمنتها الصفحات 164، 165، 167، 168، 169 بالإيطالية، قام بالترجمة: - محمد السيد أبو مدين: - مكتبة محفوظات شعبة الوثائق والمحفوظات بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.

(115) (مؤلف مجهول) أولاد سليمان فى ليبيا وتشاد، ترجمة ميمى صليبا الصائغ، مخطوط، بشعبة الوثائق والمخطوطات بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس ص 56.

بعملية تصنيفية للصفوف التى انتهت إليها التركيبة الاجتماعية خلال فترة الثورة بما فيها فترة الجمهورية الطرابلسية وحتى يونيه 1919، فإن الصفوف تعود شيئاً فشيئاً إلى تشكيلة أقرب مما كانت عليه فى أواخر العهد العثمانى، وفى فتنة كفتنة الجبل الغربى الأولى عامى 1915 و1916 بين فساطو من جهة والرجبان والزنتان من جهة ثانية وقفت تجمعات قبلية مثل الرياينة وأولاد بوسيف والمشاشية والخلايفة على الحياد فى حين تتخذ النوايل مثلاً موقفاً مناصرا لصفها القديم فساطو، فى حين يتضح بجلاء عودة تحالف صف يوسف إلى جانب الرجبان بعودة تحالف الزنتان والغنايمة والقديرات والسبعة إلخ.

أمرٌ جوهرى خلال هذه المرحلة وهو أن خليفة بن عسكر الذى وقف أولاً على الحياد بجيشه المشكل من قبائل ليبية وتونسية (شدادية يوسفية) أصبحت فى النهاية أغلبها من شداد تدخّل ابن عسكر ضد صفه من شداد، قبل أن تتبيّن التحركات الصفيّة التى ما عرفتها أصول حركة الجهاد، والتى بفضلها أمكن لرجل مثله أن يتجاوز الصفية وتتجمع له قبائل شدادية يوسفية (تونسية ليبية) عبر سنوات طويلة ممتدة. على أن عوامل التثبيط والإحباط لازمت هذه الحركة العظيمة، وقد تتعدد الأسباب وتتعقد المشكلة حين نحاول أن نبت فى أمر بهذا الخطر، ولكن من خلال قضية الصفوف التى نحن بصددها يمكننا القول بأن مشكلة من بين المشاكل ظلت أعتاها عن الحل ألا وهى مشكلة (القيادة)، ولنضرب مثلاً مشتركاً: - وهو أنه ربما لسابقة صف شداد فى أحداث كهذه مع المجاهدين الليبيين. فإن بعض القبائل الكبرى من صف يوسف (كالتوازين مثلاً) وجدت فى نفسها شيئاً من الإنضواء تحت راية هذه الثورة فلم تشارك فيها. تماماً على عكس ما حدث على أيام فرض الحماية الفرنسية على تونس إذ كان صف يوسف هو السباق إلى إعلان الثورة وكانت ردة الفعل من قبائل شداد آنذاك عدم المشاركة فى أحداثها إلا بقدر تفرضه عوامل المجاملة (جبر الخواطر) «إذ توجد بين غالبها نزاعات قديمة لم يقو إعلان الجهاد المقدس على نزعها من القلوب»[116].

(116) محمد المرزوقي، دماء على الحدود ص 80.

من ذلك إعارة قبيلة التوازين على إبل تابعة للمجاهدين من أولاد شهيدة استاقوها من التراب الليبى، ودخلوا بها إلى التراب التونسى، ونتيجة لذلك وقعت معركة ضارية فى (أبرق الجواشة) سقط فيها ضحايا من الجانبين، واستاقوا إبلًا للتوازين تعد 600 بعير واستنجد التوازين بالشيخ سوف ليسعى فى رد إبلهم وتحول الشيخ إلى مضارب المجاهدين التونسيين فى 200 فارس من أنصاره، لكن وصوله كان بعد اقتسام الإبل بإذن من حليفه ابن عسكر، فرجع الشيخ بلا طائل»[117] وعلى أية حال فقد كانت أمثال هذه الأحداث المبكرة بداية التحرك الصفى المصلحى الصريح، الذى نجمت عنه وأمثاله حركة الفتنة الضارية خلال عامى 1915-1916 ثم أحداث الفتن الأكثر وضوحاً خلال عامى 1920-1921، وفى رأينا أن انعدام الهدف أمام المقاتل فى بعض تلك الفترات يقوى مبرر الانقسامية وعوامل الثأر التى كانت موجهة نحو هدف واحد، هو العدو الخارجى المعتدى، أيام كانت دعوة الجهاد غالبة وجبهات العدو صريحة واضحة.

دور المعية ونواة تحالف وطنى:

مثلما تطورت التشكيلات الصفية العسكرية فى القطاع الغربى إلى (محلات - مفردها محلة) تضم التحالفات القبلية من أى نوع، فإن تلك التشكيلات فى القطاع الشرقى تطورت إلى ما عرف (بالأدوار - مفردها دور) وقد وجدت كأدوار قبلية أول الأمر مثل دور العواقير ودور الجبارنة ودور المغاربة، والدرسة، والعبيدات... إلخ إلا أن أدواراً أخرى تجاوزت هذا المستوى لتعرف فقط بأمكنة تجمعها مثل دور وادى الفارغ ودور عكرمة والشليظمة ودور أنور الخ... وبصورة خاصة بعد مرحلة 1923، تبين طابور (المعية) الذى التفَّ حول الشيخ عمر المختار فكان بداية حركة وطنية قدر لها أن تسهم فى الأحداث التى برزت على ساحة الوطن خلال العشرينات وبداية الثلاثينات من هٰذا القرن، أبسط ما يوصف به أنه لم يجمع منتسبيه على أساس

(117) المزروقي، المصدر السابق، ص 80-81

قبلى على أننا لا يمكن أن ننسى تلك الأدوار المسلحة ونعنى بها تلك المخيمات البدوية المسلحة والمترحلة على الدوام، التى حافظت - بنمط حياتها ذاك - على حريتها مسهمة فى تأكيد حق شعبها فى نفس المطلب ألا وهو الحرية، وما نرمى إليه من هذه الإشارة هو أن الأدوار العسكرية (النجوع المسلحة) التى خاضت أكثر من معركة جعلتها تعلن عن نفسها (كتاقرفت) 25 من فبراير 1928 وغيرها مما جعل المقاومة الوطنية تتوازى زمنياً على امتداد الوطن تقريباً، لم توهنها سوى تلك النزعات السلطوية التى تسيطر على كثير من القادة الذين كان لهم باع كبير فى جهاد الأمس الأمر الذى يجعلنا نعود إلى مناقشة نفس القضية (الزعامة)، وقد كاد يقدر للشيخ عمر المختار أن يتجاوزها بدور (المعية) الذى يمكن أن نجد له مثلًا وسابقة فى تاريخ الجزائر الشقيقة حين تجمعت حول الأمير عبد القادر خلال ثورته منذ عام 1832 نجوع المجاهدين التى أصبحت تضم ذات يوم ما يقرب من 60 000 نسمة[118]، والسبب الذى جعل الناس - ضعافهم على وجه الخصوص - يقتربون منه هو ازدياد ثقتهم فى شمائله مع الزمن، وعلو مقداره ومكانته بالقدر الذى تعظم فيه خصائصه الانسانية، كان يهتم بجنوده ويرعاهم وربما نسى نفسه[119] مسترشداً بتعاليم الاسلام يتفقدهم ويسأل عن مريضهم ويرعى حاجاته ولا يأنف من مشاركتهم فى كل أمر يشبه فى ذلك صنوه خليفة بن عسكر الذى لم يسمح بأن يفوته دوره فى جر الرحى وطحن نصيبه من الحبوب خلال حرب أبى عجيلة 1917-1918، فلا غرو إذاً أن تتجمع الصفوف حول رجال بهذا المستوى من رفيع الخلق وكثيراً ما حفلت بهم ساحات الجهاد.

(118) د. عبد العظيم رضمان؛ الزملة الجزائرية أكبر عاصمة متحركة عرفها التاريخ العربى، مقال نشر بمجلة العربى، عدد 253، 1979، ص 27.

(119) مصطفى سعد الهاين: مقال بعنوان، الشهيد عمر المختار فى الشعر الشعبى، صدر عن سلسلة الدراسات التاريخية، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى، ليبيا 1981، ص 166. يمكن الرجوع لمن تهمه التفاصيل عن شخصية المجاهد الشيخ، إلى بريتشارد فى كتابه: - سنوسيو برقة من صفحة 284-286، حيث ينوه بصفات الشيخ معترفاً ويميزه عن القادة السنوسيين بأنه لم يكن مجرد (رايةٍ) وإنما جمع إلى جانب صفات (المرابط - رجل الدين) صفات المجاهد دفاعاً عنه.

الفصل الثانى

قراءة جديدة فى ذكريات عزّام*

تمهيد : ـ

ليس الهدف من هذه الورقة استعراض حياة عبد الرحمن عـزام، تلك الحياة الحافلة بالمفارقات والمغامرات؛ لان ذلك يتطلب جهداً ووقتاً لا يتوفران لنا الآن على الأقل، وانما قد يتبين من العنوان الذى اخترناه، أن ما نريد التأكيد عليه فحسب من خلال هذا العرض السريع، ان تكون مجرد (قراءة فى مذكرات عزام)، نسجل من خلالها بضع ملاحظات عن تحريرين من ثلاثة فى ما له صلة بحركة الجهاد الليبى، وقد سبق للأخ الدكتور عماد غانم ان تناول النص الأول من هذه الثلاثة تحت عنوان : ـ (عبد الرحمن عزام فى كتابه كفاح الشعب الليبى فى سبيل الحرية)، وتفيد تلك الدراسة القيمة للكتاب انه يعتبر من بين أهم وأقدم التآليف باللغة الالمانية عن جهاد الشعب الليبى، على انه فى ذات الوقت لم يحظ كمذكرات أنور مثلاً بقسط من الاهتـمام لانه «بقي مهمـلاً فى طيات النسيان على الرغم من انه يتناول فترة هامة من حركة الجهاد الليبى وهى الواقعة بين 1914 ـ 1917 م[1].

---

* نشر هذا البحث فى العدد الخامس من مجلة الشهيد، من منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، الصادر فى أكتوبر سنة 1984.

(1) د. عماد الدين غـانم، عبد الـرحمن عزام فى كتـابه «كفـاح الشعب الليبى فى سبيل الحرية»، باللغة الالمانية، مقال نشر بمجلة البحوث التاريخية، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، السنة الرابعة، العدد الثانى، يولية 1982 م، ص 252، والى الدكتور عماد يرجع الفضل فى ترجمة الكتاب عن الأصل الالمانى، وقد نشرت الترجمة

وهكذا سنقصر ملاحظاتنا حول النصين الأخيرين: ـ ذكرياته وما سمى بمذكراته وقد نعقد المقارنات بين الحلقات الثمانى عشرة وهى مجمل ذكرياته المنشورة فى مجلة المصور عام 1950 م، بين هذه وبين ما يقابلها من ذكرياته التى نشرت فى كتاب مستقل بعد وفاته وقد نشرها الاستاذ جميل عارف، وفى الواقع لا تتجاوز الفصول المقابلة للحلقات المذكورة الفصل الثالث والعشرين من الكتاب، اذ يعتبر اخر فصل تتعلق احداثه بحركة الجهاد الليبية، وفى حدوده تتوقف هذه القراءة الاولية انتظاراً لفرصة أخرى ربما تسنح، يمكن فيها معالجة الذكريات باستفاضة وتوسع، ان شاء الله ربما تتناول بقية النص الثانى التى تنتهى بالفصل التاسع والعشرين.

ومن الطريف هنا ان كلمة الذكريات قد تبينت من خلال تقديم قصير قدمت به مجلة المصور للنص الأول منهما نثبته فيما يلى: ـ «بهذا المقال يبدأ عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية (ذكرياته) ونقول (ذكرياته) وكان ينبغى ان نقول (مذكراته)، لولا انه لم يدون وقائعها فى أوقات وقوعها، ولا حاول ان يكتبها بنفسه أو يتفرغ لكتابتها، وانما املى بعضها على بعض معاونيه فى فترات مختلفة، واملى بقيتها على الأستاذ لطفى رضوان مندوب (المصور)، مستعيناً على تسجيلها بذاكرته القوية، وبما بقى فيها من ذكريات السنين التى مرت به فى حياته الحافلة[2].

وقد قام الاستاذ لطفى رضوان بنشر النص الأول على «18» ثمانى عشرة حلقة بدءاً بالعدد 1325 من مجلة المصور الصادر بتاريخ 3 مارس 1950 م وانتهاء بالعدد 1343 المؤرخ فى 7 يولية 1950 م، وهكذا علينا ان نسلك هذا العمل فى اطار (الذكريات)، خاصة بعد ان تبين لنا من خلال استقراء المعاجم ان الذكريات تعنى استحضار ما نسيه الانسان[3]. ومن هنا يمكن اعتبار ان هذا

على جزأين تباعاً فى العددين الأول والثانى من مجلة الوثائق والمخطوطات من منشورات المركز نفسه.

(2) المصور؛ حلقة 1 عدد 1325، 3 مارس 1950 م، ص 30.

(3) جبران مسعود، الرائد بيروت ـ لبنان، دار العلم للملايين 1967 م، ص 696،

النوع من الأعمال التى لا تسجل فى حينها، بل ولا يحاول اصحابها ان يحرروها بأنفسهم فى اوقات لاحقة فى مرتبة ادنى من مرتبة (المذكرات) وطبقاً لأحدث التعريفات يمكن ان نعتبر أن هذه الأخيرة «سرد» كتابى لاحداث جرت خلال حياة المؤلف وكان له فيها دور، وتختلف عن السيرة الذاتية، بأنها تخص العصر وشؤونه بعناية كبرى فتشير الى جميع الاحداث التاريخية التى اشترك المؤلف فيها أو شهدها أو سمع عنها من معاصريه واثرت فى مجرى حياته[4].

فهى إذن عمل كتابى ينجزه مؤلف بعينه، الأمر الذى يختلف عنه فى الذكريات، ورغم ان جامع النص الثانى الاستاذ جميل عارف قد اطلق عليه اسم (المذكرات)، الا ان القضية فى النصين واحدة وهى انهما من غير وضع الرجل الذى يعنيان به (عبد الرحمن عزام)، وقد اثبت الاستاذ جميل عارف فى مقدمة العمل الذى اسماه (صفحات من المذكرات السرية لاول امين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام)، قائلاً: ـ «انه (اى عزام لم يكتبها بخط يده، ولكنه رواها لى بنفسه فى عشرات الجلسات عندما كنت اذهب اليه فى بيته، الذى يطل على النيل بالعجوزة، ايام كان امين عاماً للجامعة العربية وبعد ان اجبروه على الاستقالة»[5]. وفى موضع آخر يسجل عارف انه عثر فى اوراقه

أيضاً: ـ مجدى وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب. بيروت، مكتبة لبنان، 1979 م، ص 97، قارن مع نفس المصدر ص 190.

(4) جبور عبد النور، المعجم الأدبى، بيروت ـ لبنان، دار العلم للملايين، 1979 م، ص 246.

(5) جميل عارف، صفحات من المذكرات السرية لاول امين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام، ج 1، القاهرة ـ مصر، المكتب المصرى الحديث 1977 م، ص 12، ويرى الأستاذ محمد عبد الغنى حسن نفس الرأى حين يؤيد الفصل بين المادتين، فيقول: «وقد جنح بعض الكتاب والأدباء اليوم الى استعمال كلمة (ذكريات) بدلاً من مذكرات، ولعل ذلك إبعاد للذكريات عن أنها دونت ساعة حدوثها، وهو تفريق دقيق واعٍ بين اللفظتين إلخ»، جاء ذلك فى مقالة: ـ (أدب المذكرات والذكريات فى الإنتاج الأدبى قديماً وحديثاً)، المنشور فى مجلة (الوعى العربى)، العدد الأول، جمادى الآخرة 1396 هـ ـ يونية حزيران 1976 م، صدرت عن مجلس شؤون الثقافة والعلوم، اتحاد الجمهوريات العربية، ص 70 ـ 73.

على ملف كامل يضم مجموعة الأوراق القديمة للسيد عبد الرحمن عزام اول امين عام للجامعة العربية وان تاريخ تلك الأوراق يرجع الى سنة 1950 م عندما نشب الخلاف بينه وبين الملك السابق ادريس السنوسى، ولعل من بين مستلزمات البحث وضع وجود هذا الخلاف فى الاعتبار، لدى النظر فى خلفيات (الذكريات العزامية)، وابعادها، فى نصيها الأول والأخير، ومع اننا فى غير مجال المقارنة الدقيقة بين النصين، الا اننا ايضاحا لبعض ما جاء فيهما؛ اتخذنا مسلكاً معيناً اذ رمزنا لأول النصين بالحرف (أ) وهو المنشور فى مجلة المصور، ورمزنا لثانيهما المنشور من قبل الاستاذ عارف بالحرف (ب) تيسيرا على القارىء يبين بعض الفروق فيما يشبه التحقيق، كما اننا سنقصر اهتمامنا مثلما يقتضى الحال على التعرف الى مضمون (الذكريات) الجهادى دون ان ندعى الاحاطة بمجمل ما تضمنته دفتا النصين.

ولعل من اولى نقاط المقارنة بين النصين وجود شبه واضح بينهما لا يقتصر فقط على تماثل المضمون المعرفى وانما يتجاوزه الى التماثل الشكلى ونعنى به النسق اللفظى، فقد افاد الاستاذ جميل عارف من النص الجاهز امامه، ولم يضف من جهده فى استقاء الرواية اشياء تذكر، طبعاً هذا فى ما يتعلق بالفصول الثلاثة والعشرين التى تتناول مغامرات عزام بدءا بعام 1913 م، وتنقلاته من مصر الى لندن للدراسة ثم فيما بعد الى بلاد البلقان وتركيا، والعودة الى لندن من جديد ثم الى جنيف حيث عقد مؤتمراً للشبيبة المصرية فى اوروبا خلال صيف 1914 م ثم الى مصر حيث تعذر رجوعه الى لندن بسبب اندلاع الحرب العالمية الاولى، وانضمامه الى جيش المجاهدين على الحدود المصرية ـ الليبية واستمرار تلك العلاقة ووجوده مع المجاهدين الليبيين حتى اواخر عام 1922 م، حين غادر البلاد لآخر مرة وقد غطى الرجل فى هذه الذكريات بنصيها بعض احداث الفترة، كما يبدو انه غطى على الكثير مما يعرفه حق المعرفة، وسنرى ما اذا كان ما غطى عليه، يدخل فى باب نسيان ما كان يذكره ذات يوم، او ان الأمر فى مجمله يحتاج الى مزيد من البحث والدرس.

عزام وحرب البلقان: ـ

وافق وجود عزام فى لندن للدراسة اشتعال نار الحرب فى البلقان، تلك التى راح ضحيتها الوف المسلمين وتعرضت جموعهم لفظائع ومذابح نقلت انباءها الصحافة البريطانية الى لندن، وكان ذلك سبباً فى اثارة عواطف عزام، ودون غيره من زملائه الطلبة، قرر السفر الى البلقان للتطوع فى صفوف المسلمين فى الحرب ضد هؤلاء الطغاة ووصل الى ميناء تريسته ومنه الى ميناء (كترو) دون ان يحمل اية ورقة تثبت هويته عدا تعريف يثبت كونه مراسلاً لجريدة عمالية اسمها (الديلى سيتيزن)، ومن كترو الى المدينة الداخلية (استنجة) عاصمة الجبل الأسود (حيث هي الآن فى يوغوسلافيا) ولما لم يكن فى وسعه الاقامة بها، تحول بمساعدة المجاهدين المسلمين الى (مدينة شقودرا) حيث تمكن من الحصول من حاكمها الانجليزى على تصريح بالمغادرة والتوجه الى تركيا، وأيضاً فى هذه المدينة تعرف الى جماعة من المسلمين كانت لهم انشطة سرية، وقد دعوه للكتابة فى صحيفة كانت تدعى (هدى الله)، ولكنه لم يفدنا عن لغة هذه الصحيفة، وعما اذا كان قد تجاوب معهم وكتب، وفى الطريق الى جبهة القتال كان عزام يضرب على غير هدى عندما اكتشف انه لم يعد يملك بنسا واحدا، فقد تلاشت جنيهاته، وبمساعدة صديق مسلم اشفق عليه وصل الى ميناء بروندیزى بدلاً عن جبهة القتال، ومن هناك سافر الى استانبول، وعن طريق الشيخ عبد العزيز جاويش تعرف الى أنور باشا، وكان جاويش قد شجعه على فكرة التطوع فى الجيش العثمانى، لأن ذلك هو الجهاد الحق، وعن طريق أنور تعرف الى ضابط ليبى اسمه (طارق)[6] منحه انور اذنا بزيارة خطوط

(6) (أ) حلقة 2، عدد 1366، 10 مارس 1950 م، ص 26، قارن: ـ (ب) فصل 2، ص 60 أيضا: ـ د. عماد الدين غانم نفس المصدر ص 249 ـ 265.
وطبقاً للدكتور عماد فان الضابط الليبى (محمد طارق الافريقى) برز فيما بعد بجهاده فى حرب فلسطين عام 1948 م وكتب مذكراته بعنوان: ـ (المجاهدون فى معارك فلسطين)، صدرها بصورة لعزام، ولا تزال العناية قليلة بدراسة حياة هذا المجاهد الفذ وآثاره، على انه يمكن الرجوع الى ما كتبه عنه الأستاذ على مصطفى المصراتى فى كتابه (نماذج فى الظل)، صدر عن المنشأة العامة للورق والطباعة، طرابلس، ليبيا، كذلك ما

القتال فى ادرنة، ومن هناك يجمع كما هائلا من المعلومات ويسجل ملاحظة مفادها انه على عكس ما كان يتردد، فإن أغلبية المناصب الرئيسية فى الجيش التركى هناك كان يشغلها عدد من الضباط العراقيين، وان معظم وظائف اركان الحرب كانت فى ايدى الضباط العرب.

وبعد عودته الى استانبول قطع تذكرة الى لندن وبعد صعوبات منها انه استنفد اخر قرش! وصل الى لندن حاملا اخطر المعلومات عن الفظائع التى ارتكبها اليونانيون ضد الالبان المسلمين، وعن جبهات القتال فى (أدرنة).

من الدعوة للامارة الى ساحة الجهاد: ـ

من الأمور التى شغلت عزاماً وظل مشدوداً اليها فيما بعد، قضية (الامارة) فقد تعرف فى لندن عن طريق سيدة ارستقراطية بجمعية تدعى مساعدة ألبانيا على تحقيق استقلالها وهى (الجمعية الانجليزية الالبانية) يرأسها إنجليزى أشهر اسلامه حديثاً هو (اللورد هادلى) وقد امكن للسيدة والسيد أن يقنعا عزاما ويجعلاه يعمل فعلاً على حد تعبيره من أجل تنصيب هادلى ملكاً على البانيا، ولكن عزاماً يتحول فجأة عن الدعوة لهادلى ليدعو (للأمير المصرى فؤاد)[7] الذى كان يزور لندن آنذاك غير ان جهوده باءت بالفشل بسبب عدم تجاوب فؤاد مع تلك الفكرة بل رفض حتى مجرد مقابلته[8] ورغم ذلك فقد عاد عزام الى العمل السياسى ليشكل جمعية باسم (جمعية أبى الهول) تعرضت أثناءها لخلاف حاد حول مبدأ يريد عزام اقراره، وهو مبدأ (استقلال مصر التام) وجوهر الخلاف حول كلمة (التام)، لان هناك من بين مؤسسى الجمعية من

كتبه عنه الأستاذ بهجت القرمانلى فى مجلة الشهيد، العدد المزدوج (7 ـ 8)، من منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس، ص 285.

(7) الأمير فؤاد، أصبح فيما بعد سلطان مصر، خلفاً لأخيه السلطان حسين كامل من 1917 إلى 15 مارس 1922 م عندما رفعت الحماية عن مصر وأصبح فؤاد ملكاً على مصر حتى وفاته عام 1936، حيث خلفه ابنه فاروق فيما بعد، انظر الموسوعة العربية الميسرة، ط 1965، ص 1328.

(8) (أ) حلقة 3، عدد 7، 13، 17 مارس 1950، ص 22، (ب) فصل 3، ص 69.

يعترض عليها خشية اثارة الدولة العثمانية، وقد احتكم المختلفون الى الزعيم المصرى (محمد فريد) الذى كان مقيماً آنذاك فى النمسا، فجاء رأيه موافقاً لفكرة حذف الكلمة ولكن اصرار عزام على تثبيتها جعل الجمعية تأخذ برأى عزام.

ولعل ذلك الخلاف يشير الى توجهات الرجل المبكرة والمستقلة عن فكرة الرابطة العثمانية، ومن بين الأنشطة التى ساهم فيها مؤتمر للطلبة المصريين عقد فى شهر يولية 1914 دعى (بمؤتمر الشبيبة المصرية) حضره حوالى 200 طالب مصرى فى جنيف، وحضره أيضاً الزعيم محمد فريد، وأمين الرافعى، وبعض اعضاء الحزب الوطنى، وبعد انتهاء المؤتمر، حدث ان اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى، وانقطعت سبل المواصلات ولم يعد فى وسع الطلبة مغادرة سويسرا، فضلاً عن توقف اعمال المصارف، ولكن مشكلة انقطاع المواصلات لم تمنعه من أن يقرر بالجنيهات الخمسة الباقية معه أن يسافر الى مصر للاتصال باسر زملائه الطلبة وللبحث عن وسائل لاسعافهم بما كانوا يحتاجونه، وقد تمكن أن يسافر من جنيف الى (بروندیزى فى ايطاليا) ومنها الى (بيريه فى اليونان) ومنها الى الاسكندرية، حيث نزل فى ضيافة (محمود فهمى باشا)، وفى القاهرة اتصل برجال الحزب الوطنى ومنهم (اسماعيل صدقى) والدكتور (سالم هنداوى) و(زكى باشا) و(عبد المقصود متولى).

وعندما قرر العودة الى بريطانيا من جديد، ووجه بالرفض القاطع فاضطر للعودة الى دراسة الطب فى مدرسة الطب المصرية، وبحكم عمله فى مدرسة الطب تعرف الى جندى مصرى عثمانى اسمه (قفطان)، جرح فى معركة (قناة السويس) بين القوات العثمانية والبريطانية وعرف منه أنباء توجه نورى باشا شقيق (أنور باشا) الى طرابلس وأخبره ان العثمانيين ارسلوا كميات من المؤن والذخائر وأنه كلف بأن يعد مع المجاهدين الليبيين جيشا على حدود مصر لغزوها من ناحية الغرب، ومن هنا بدأت مغامرة عزام فى ليبيا فقد تعرف الى ضابط مصرى عثمانى اسمه شكرى مكلف بالتجسس لصالح الدولة العثمانية وللعمل على اشعال الثورة ضد الانجليز فى مصر. قرر عزام ان يتولى عنه مهمة نقل المعلومات التى حصل عليها من شكرى، ومن بينها خرائط هامة تفيد الجيش أثناء عملية غزو مصر من الغرب نقلها الى (نورى باشا).

ومع ابن قريته ورجلين من البدو، وبعد ايام بلغوا مرسى مطروح فى رحلة دامت 12 يوماً، كانوا فى ناحية (العقاقير)، وفى معكسر جيش المجاهدين لقى احد اولاد المجاهد المصرى (محمد ابو جبريل)[9] الذى اصطحبه الى خيمة القائد (نورى باشا) الذى رحب به، وتسلم ما كان فى حوزته من وثائق ومعلومات، ولدى خروجه من المقابلة لقى صديقه القديم (الدكتور سيد دسوقى) الذى سافر بعد اداء امتحانه النهائى من لندن الى البانيا فتركيا حيث تطوع للقتال ضد الانجليز فى الجيش العثمانى. تدرب عزام فى نفس المعسكر ويقدر عدد القوات الموجودة بـ 500 خمسمائة مقاتل مشاة مجهزين بمدفعين صحراويين وعشرة متر ليوزات (مدافع رشاشة) تدعمها مجموعة صغيرة من الفرسان لا تتجاوز العشرين فارساً من ضباط وشيوخ قبائل الى جانب قوة تابعة لاحمد الشريف وهى بقيادة الضابط المصرى (محمد صالح حرب)، وهذه القوة الأخرى تضم 3000 ثلاثة آلاف مسلح وقد قامت باحتلال الواحات. على أن عزاماً تناول فى كتابه الأول[10] مسألة مغادرة أحمد الشريف المنطقة الساحلية بصورة مختلفة نوعاً إذ يفيد أن القائدين أحمد الشريف ونورى باشا اللذين لم يحضرا معركتى (أم الرخم وماجد الاولى) وانما كانا يراقبان سير الأمور عن بعد، استمرا (اللعبة) ضد القوى البريطانية، ووجدا أنها ليست خاسرة اذا ما شغلت كل فئة من فئات المقاتلين المتطوعين جيشا بجنرالاته وألويته ومدفعيته ومشاته وفرسانه لأيام عدة وبصورة مستمرة[11]. وهكذا وطبقا لتلك الحسابات وجدا أن من الاسلم وضع خطة يتم بموجبها تبديد جيش العدو وارغامه على فتح جبهة تمتد من أسوان الى مطروح ما بين 500 و600 ميل، وبموجب ذلك تم تكليف بعض ضباط الحملة بمهمات احتلال مواقع محدودة وقد احتل (النقيب المصرى محمود صالح) جارة وسيوة بمساعدة الملازم العثمانى (عبدالله تمسكت)

(9) محمد أبو جبريل: هو شيخ القناشات من أولاد على أحد أشهر رجال القبائل التى شاركت فى قتال الجبهة الشرقية مع المجاهدين الليبيين ما بين عامى 1914 و1916 أنظر (أ) حلقة 5، عدد 1329، (31 مارس 1950 ص 2 (ب) فصل 5، ص 89.

(10) عبد الرحمن عزام، كفاح الليبيين فى سبيل الحرية، مصدر سابق، ص 31.

(11) المصدر نفسه، ص 31.

الذى كلف من جديد باحتلال واحة البحرية وتوجه (صالح حرب) نحو فرافرة الداخلة[12].

ولكن عزاماً فى ما نقرأ له من النصين الاخيرين يعرض بمعلومات مختلفة ربما ايضاحية لم يكن وقت الإفصاح عنها قد حان لدى وضعه كتابه الأول فى المانيا، قد افصح عن وجود خلاف بين أحمد ونورى استفحل مؤديا الى انقسام الجيش، بل ان الأمر قد تجاوز ذلك الى استيلاء أحمد الشريف على مخزون المؤن فلم يبق منه لنورى شيئاً، وكان ذلك سبباً فى قيام وضع خطير على الجبهة الشمالية التى تأمر بأمر نورى، وعلى أية حال فقد مرت العلاقات بينهما بتجارب غير مشجعة منذ البداية، ففى نهاية 1914 اصطدمت محاولات تحريك الجبهة الليبية العثمانية ضد الانجليز فى مصر بتصلب أحمد الشريف الذى أمر باعتقال البارونى فى أوائل فبراير 1915[13] وجمدت تحركات المجاهدين، هذا رغم استجابة (السلطان على دينار سلطان دار فور لنداء الخليفة العثمانى، وإعلانه الجهاد فى صيف 1915 على حدود دار فور الشرقية والغربية)[14]، فيما يعنى الحرب ضد بريطانيا وفرنسا، وحين تناول عزام تلك الفترة مشيراً الى مراسلات السلطان والخليفة التى كانت تمر عبر الصحراء الكبرى لا يفيد لأنها كانت تمر بعلم أحمد الشريف ولكننا لا نظن ان اموراً كهذه يمكن أن تظل خافية عنه خصوصاً، وان القوافل كانت تمر عبر مراكز محدودة داخل الأراضى الليبية ولكن عندما يضيف عزام انه (قرأ رسائل السلطان على دينار الموجهة الى الخليفة وأنور)[15] وان ذلك يتم فى ظل علاقته الوطيدة بنورى وبالجانب العثمانى فى الجبهة الشرقية، يتبين لنا ان المراسلات كانت حقيقة وأنها كانت تمر عبر نورى من والى دواخل القارة، ويخبرنا عزام أن على دينار كان يعلن سروره لاعلان

(12) المصدر نفسه، ص 32.

(13) محمد ابراهيم لطفى المصرى تاريخ حرب طرابلس، مصر بنها: ـ مطبعة مؤسسة الأمير فاروق، 1365 ـ 1946، ص 60.

(14) نفس المصدر، ص 67

(15) عبد الرحمن عزام، كفاح الشعب الليبى فى سبيل الحرية، ص 26.

الخليفة الجهاد ضد غاصبى حرية المسلمين[16]، وقد ظل احمد الشريف متشبثاً بموقفه الامنى على الحدود حتى أواخر عام 1915 عندما تحرك الملازم اول الليبى العثمانى (أحمد المختار الفيلالى) بامر من (جعفر العسكرى) للعمل ضد الانجليز وهاجم (البرانى) ولكن أحمد الشريف استدعاه إلى السلوم وحكم عليه بالاعدام إثر محاكمة متسرعة[17]، ولعل مقتل الرجل كان سبباً رئيساً فى إثارة انصار الحرب فى منتصف ديسمبر 1915[18] وبحال معنوية متدنية وفى ظروف غير سليمة. وعندما وصل عزام كانت احوال الجبهة تشير الى نهايتها وقد خاض طبقا لذكرياته (معركة العقاقير) وقد نضطر من باب التذكير بالشىء الى القول بان من نقائص البطل أن يتحدث عن بطولاته وعزام من هذا النوع من الرجال الذين يبسطون القول حول انفسهم، ولكن قد يكون مفيداً وصفه حاله فى اثناء تلك المعركة حين يبدأ الحديث عنها بالتفكير فى الهرب لأنه أخفى فرسا قد يضطر الى امتطائه[19] عند الفرار، وقد صدقت رؤيته ولكن بدل أن يمتطى ذلك الفرس يعثر على حصان كان يقوده أحد اطفال المجاهدين فيغير عليه عزام ويصرخ الطفل (أنه غنيمته) ولكنه يردفه خلفه حتى يبلغ مأمنه حيث يلتقى بنورى باشا، وهنا يستوقفنا نص خطابه لنورى: -

«يا باشا لقد غنمنا هذا الفرس بعد ان كدت أقع فى أسر العدو»[20]، وقد يبرر منطق ما السماح لعزام باشراك ذاته فى غنيمة الطفل ولكن بم نفسر

(16) طبقاً لمحمد ابراهيم لطفى المصرى المصدر السابق، ص 70، لم يجد السيد أحمد الشريف وجها للاعتراض على سفر بعثة عثمانية الى الفاشر لتتصل بالسلطان على دينار فى حين ينفى بريتشارد فى كتابه السنوسيون فى برقة ص 219 أية علاقة للسنوسيين بعلى دينار لأنه «لم يكن ودياً البتة مع السنوسية».

(17) محمد ابراهيم لطفى المصرى، المصدر السابق، ص 69.

(18) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(19) الفرس: - يقع على الذكر ويقال له حصان أيضاً وعلى الانثى ويقال لها حجر أيضاً؛ انظر: - المعلم بطرس البستانى، محيط المحيط، لبنان - بيروت 1977، 683.

(20) (أ) حلقة 6، عدد 1330، 7 أبريل 1950.

تحريف (الفعل غنمنا) من صيغة المتكلمين فى النص الأول ليصبح فى النص الأخير (غنمت)[21] بصيغة المتكلم؟

ربما تكون إفادة هامة تلك التى تناولت أسر جعفر العسكرى، وهيئة اركانه وسكرتيره (نهاد) مع الاشارة الى (أن الاسر تم على نحو غامض)، غير انه لم يذكر تفاصيل الحادثة؛ ربما لأنه كان قد تناولها فى كتابه الأول المشار اليه - حيث اعتبر أن الهزيمة فى العقاقير كانت قد لحقت بالانجليز، كما ذكر فى نفس المصدر ان الانجليز استغلوا واقعة الأسر وصاروا يهولون منها ومن شخصية (النقيب جعفر أفندى)، فى حين - على رأى عزام - لم يتول جعفر القيادة العسكرية العامة، لأنها كانت منوطة بنورى باشا، وقد عمد الانجليز فى مصر الى نشر أنباء الواقعة على نطاق واسع وبكل الوسائل؛ ومن ذلك انهم تعمدوا ان يشاهدها افراد الشعب المصرى الذى كان ناقماً ومتحفزاً للثورة على أمل منهم (أى الانجليز) «ان يثبطوا عزائم هذا الشعب حين جعلوا منه باشا، وساقوه تحت حمايتهم الى ساحة الأوبرا»[22].

وربما كان توافق مصادر المخابرات الايطالية مع نظيرتها البريطانية راجعا الى اتفاق المصالح الحليفة، فقد تتبعت المخابرات الايطالية جعفر العسكرى، ورصدت أحواله وتناولت اخبارية سرية ما جاء عن اسره يوم 26 فبراير 1916، مؤكدة من منطلق مشاهدات عملائها فى مصر «تلك الاشاعات التى كانت تتردد بين العرب ومؤداها ان جعفر باشا (كذا) اتفق مع الانجليز قبل نشوب تلك المعركة على ان يسمح بأخذه اسيراً»[23].

كما أوردت الاخبارية وصفا للمعاملة الخاصة التى لقيها جعفر من قبل السلطات البريطانية واخباراً عن تجواله مع الضباط الانجليز فى شوارع القاهرة.

(21) (ب) فصل 5، ص 93.

(22) يرد اسم (نهاد) لدى محمد ابراهيم لطفى المصرى، المصدر السابق، ص 74، ثنائياً فهو عنده (نهاد المهدوى) وربما ينتمى إلى عائلة المهدوى الليبية المعروفة.

(23) عزام، كفاح الشعب الليبى من أجل الحرية، ص 48، وقد أوضح عزام انه لا وجود لشخص باسم جعفر باشا وانما هو جعفر افندى.

ولعل ذلك مما يجعلنا نميل الى رأى عزام بشأن استغلال واقعة الأسر، فطبقاً لذلك ولما جاء فى صحيفة (المقطم) المصرية الصادرة يوم 6 من مارس 1916 (أنه الآن فى الأسر، وأنه لا يزال يعالج فى أحد مستشفيات الاسكندرية العسكرية وانه لدى اندلاع الحرب العالمية رقى الى رتبة بكباشى)[24].

مشاركون فى جهاد الفترة تنوه بهم الذكريات: -

لعل من أبرز المساهمات الجهادية فى هذه الجبهة والتى نوهت ذكريات عزام بوجودها على الساحة مساهمة قبائل أولاد على المصرية وهى مساهمة عامة، ومن المساهمات الخاصة مساهمة محمد ابو جبريل واولاده، والشيخ الجميعى عمدة الضبعة واليوزباشى المصرى سيد أحمد ابو شادى وامين بك وتوفيق ضابط المدفعية ومحمد الجبالى احد اعيان درنة، ومحمد فهمى، الذى ارسله نورى فى مهمة الى ادريس فى جدابية، وعبد الحليم حمدى المصرى، واليوزباشى طارق، وتحسين افندى، وبرتا توفيق الذى ارسله نورى لمفاوضة الانجليز بشأن ارسال تموين لأسراهم الضباط لدى المجاهدين بعد أن ضاقت بهم الأحوال، ولكن (برتا) لم يعد الا بعد أسابيع من عملية تخليص اولئك الأسرى من مأسرهم لدى المجاهدين[25].

(24) قصاصة المقطم جاءت مرفقة بالإخبارية السِّرية المرسلة من المندوبية الدبلوماسية الايطالية الى وزير المستعمرات الايطالية (بروما) مؤرخة فى 15 مارس 1916، رقم 728 سرى جداً، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس، شعبة الوثائق والمخطوطات، ملف (برقة وايطاليا) رقم 20، ولقد رأينا الرجوع الى الدوائر الموسوعية لنجد ان لقب الباشوية لا يمنح من العسكريين لرتبة ادنى من رتبة (ميرلواء) التى تقابلها فى الترتيب المعاصر جنرال و(لواء) أنظر: - بطرس البستانى، دائرة المعارف، مج 5 [بيروت] 1881، نسخة مصورة تهران، مؤسسة مطبوعاتى إسماعيليان ص 110.

(25) (أ) حلقة 8 عدد 1332 مؤرخة فى 21 أبريل 1950، ص 19، (ب) فصل 8، ص 116.

نورى وعمر المختار: -

بينما أصبحت قوة نورى تتضاءل يوما عن يوم بحيث لم يتجاوز عدد من ظل معه 100 من الضباط والجنود خلافاً لتقديرات المخابرات البريطانية لهم ب 5000 خمسة آلاف، رغم ذلك فقد كان من رأيه المخالف لآراء ضباطه ولرأى عزام، كان من رأيه إطالة أجل الصمود فى جبال دفنة غربى الحدود المصرية، وبينما كان يعانى من هذا التمزق قدم وفد من قبل محمد ادريس السنوسى فى جدابية يتكون من: (الشيخ عمر المختار وخالد الحمرى وابراهيم المصراتى)، وتتلخص مهمة هذا الوفد فى طلب إدريس من نورى الرحيل غربا نحو جدابية لمقابلته[26]، وكان نورى قد سمع اثناء ذلك ان غواصة ألمانية ظهرت على شاطىء العقيلة وسلمت ادريس حوالى 30000 ثلاثين ألف ليرة عثمانية ذهبية ونحو 40000 اربعين الف جنيه من الورق البنكنوت وحوالى 200 مائتي بندقية، وملابس وخياما[27]، وهكذا اتخذ نورى ورفاقه ومن بينهم عزام ومحمد ابو جبريل والآخرون وجهتهم صوب جدابية سالكين طريق المخيلى حيث قطعوها فى 15 يوماً.

عزام فى الزويتينة: -

بينما كان الجميع في جدابية، وصل فجأة وفد بريطانى ايطالى الى ميناء (الزويتينة)، ويرافق الوفد البريطانى (أحمد حسنين) الرحالة المعروف فيما بعد وصديق عزام القديم، يرافقه ايضاً (محمد الشريف الادريسى وابنه الميرغنى) من أدارسة الأقصر المنتمين لادارسة (عسير)، وقد نجد علاقة (لعزام) بما كان يجرى فى (الزويتينة) لأنه انتقل اليها من جدابية وفى ذلك يقول: - «وقد أتيح لى أن أزور الزويتينة أثناء هذه المفاوضات فقابلت صديقى احمد حسنين رحمه الله، وتحدثنا طويلاً عن الحالة وقدمنى لرئيس البعثة الانجليزية وتعرفت كذلك بأحد

(26) (أ) نفس الحلقة، ص 56 (ب) فصل 9، ص 121.

(27) (أ) نفس الحلقة والصفحة (ب)نفس الفصل والصفحة.

اعضائها ورأيت الكولونيل (ديفيت) رئيس الوفد الايطالى»[28].

وعن مهمة هذا الوفد (يقصد البريطانى) يقول الزاوى: - «وكانت مهمة هذا الوفد مفاوضة السيد إدريس فى ما يتعلق بعدم الهجوم على الحدود المصرية من ناحية الانجليز وايقاف الحرب فى برقة من ناحية الطليان، فدعا معه الأستاذ عبد الرحمن عزام ليشترك معه فى مفاوضة هذا الوفد»[29].

ويحدثنا عزام عن تلك المفاوضات قائلاً: - «كنت اريد ان أتعرَّف على ما يجرى وراء كواليس هذه المفاوضات السرية، فقد كنت أقضى ساعات طويلة فى كل يوم من الأيام التى قضيتها فى الزويتينة فى السير على شاطىء البحر مع اعضاء البعثة الانجليزية أو مع صديقى المرحوم احمد حسنين باشا»[30]، ومع ذلك كله فان (عزاما) حين يتعرض لشخصيات الوفدين، ينسى بعض الأسماء حين يقول عن رئيس الوفد الانجليزى: «اننى لا أذكر اسمه وإن كنت اذكر اسم رئيس الوفد الايطالى وكان اسمه الكولونيل ديفيت»[31]، مع ان علاقته بالوفد البريطانى فى الزويتينة أكثر وثوقاً!.

عاد عزام بعد ذلك الى جدابية عندما شعر - على حد قوله - بأن وجوده فى

(28) (أ) حلقة 9، عدد 1333، 28 ابريل 1950، ص 24، (ب) فصل 9، ص 132.

تصويب: وقع سهواً كما يبدو وضع رقم (8) على الحلقة السابقة المنشورة على العدد 1333 من المصور 1950، فى حين ان صحة رقم الحلقة هو (9).

(29) أحمد محمود (الطاهر الزاوى)، عمر المختار الحلقة الأخيرة من الجهاد الوطنى فى طرابلس الغرب. القاهرة، 1352 هـ، ص 13، أيضاً يتفق مع هذا القول رافائيل رابيكس (تأكيد السيادة الايطالية فى طرابلس الغرب، 1921 - 1925) تيينتسون، كيلى، 1937، ترجمة محمد ظافر المدنى مخطوط، بدار المحفوظات التاريخية، مصلحة الآثار، طرابلس، ليبيا، ص 39 - 40.

(30) (ب) فصل (9)، ص 133، قارن: (أ) حلقة 9، عدد 1333، 28 ابريل 1950، ص 55.

(31) (ب) فصل (9) ص 133، ومن الملاحظ ان هذه الفقرة هى إحدى إضافات النص (ب).

(الزويتينة غير مرغوب فيه وقدم تقريره واستنتاجاته الى نورى، وكان لا يزال على ثقة بإدريس ولم يكن يدرى حتى ذلك الوقت «ان ادريس كان يسعى للقيام بنفس الدور الذى قام به الشريف حسين فى مكة فى نفس الأيام ضد الأتراك»[32]، ومما يعطى علاقة (عزام بادريس) دلالة الخصوصية والوثوق، ان ادريسا حينما قرر تكليف رجال نورى بمهام مختلفة بهدف تشتيتهم، لم يشمل قراره فيمن شمل عزاماً، فقد استبقاه، ولم يحتفظ بأحد سواه، على ان ذكرياته تبرر ذلك باسلوب غير واثق.

حين يكلفه ادريس بمهمة، لا يذكر عزام ماهيتها فيقول: -

«وأظن ان ذلك كان للقيام بوظيفة كتابية»![33] ويؤكد عزام على ان ادريس انما قام بتسوية الزويتينة مع الانجليز والايطاليين ليتفرغ للانتقام من اعدائه فى غرب طرابلس، فأرسل قوة من (الجنود البدو) تحت قيادة مجموعة من الرجال المشهورين بالبسالة المتناهية منهم: - (عبد العاطى الجرم، وابراهيم الفيل، وصالح الاطيوش). وعندما عرف ادريس بما سلَّمه البارونى من عون

(32) (ا) حلقة (9)، عدد 1333، 28 ابريل 1950، ص 55، (ب)، فصل (9)، ص 134.

(33) (أ) نفس الحلقة والصفحة، قارن (ب) فصل (10)، ص 135، ويلاحظ أن هناك تشوشاً وعدم ثبات حول حقيقة العلاقة بين عزام وإدريس خلال هذه المرحلة بالذات أولاً: لدى الزاوى حين تضارب نصَّاه **وأولهما** ما أثبتناه فى الصفحة السابقة أخذاً عن الطبعة الأولى من كتابه عمر المختار، ص 13، **وثانيهما** أخذاً عن الطبعة الثانية لسنة 1970، إذ حذفت الإفادة المتعلقة بوضع عزام فى موضع الاستشارة الذى كان حقًّا لدى إدريس فى مفاوضات الزويتينة 1916، ويبدو أنَّ عزاماً نسى ما حرره بخصوص ذلك فى ذكرياته ومذكراته، أعنى نصيبها ﻫ وب، حيث يقول فى نصها الأول: - «وكانت علاقتى بالسيد قد نمت وكانت مكانتى عند نورى معروفة للجميع، فأخذت ألعب دورى فى السياسة العامة كرسول لنورى باشا وناصح للسيد»، أنظر: - النص الأول (ﻫ)، ص 24، وفى نصها الثانى حيث يقول: - «استطعت أن أدعم علاقتى بالسيد إدريس السنوسى، وكما كنت فى نفس الوقت موضع ثقة نورى باشا، فقد أخذت ألعب دورى فى السياسة العامة كرسولٍ لنورى باشا، وناصح للسيد إدريس السنوسى» أنظر: - النص الثانى (ب)، ص 277.

عثمانى لرمضان، وقيام الأخير بحشد قواته لمحاربة السنوسيين، لم يتمالك نفسه واحتج لدى نورى على تدخل الدولة العثمانية لمناصرة خصوم السنوسية، وعلى الرغم من ان مصادر عربية واجنبية تتَّجه الى القول بان سبب مغادرة نورى المناطق الشرقية إلى الغربية ما كان من أمر محمد ادريس السنوسى الذى أصبح على وفاق تام مع الحلفاء، بل وأصبح ملزماً باستبعاد جميع العثمانيين أو من يميل الى التعاون مع العثمانيين وحلفائهم[34]، على الرغم من هذا، فان عزاماً وهو شاهد عيان ـ يذهب الى ان الهدف من سفرهما إنما كان لاصلاح ذات البين بين السنوسيين ورمضان السويحلى، وكان ذلك فى أواخر الخريف وأوائل شتاء عام 1916 م، وفى (الهيشة)، لقيا قائد قوات رمضان وهو (الضابط اليوزباشى السيد حسن)، وطلبا اليه ان يلتزم السكون حتى يمكنهما الاتصال برئيسه رمضان.

وتستوقفنا فى النص (ب) عبارة وردت فى الحديث عن علاقة البارونى بالسنوسيين حين يقول عزام: ـ «وكان السيد ادريس يعتبر الشيخ سليمان البارونى خصماً شخصياً له، فقد سبق ان اعتقله لمدة سنة فى ناحية السلوم وقام بابعاده اليها»[35]، ولعلنا لا نختلف كقراء على ان المتبادر من معنى العبارة هو ان البارونى هو الذى قام باعتقال (محمد ادريس السنوسى) فى السلوم، وان ذلك كان السبب فى عداء السنوسى للبارونى، والواقع ان (احمد الشريف السنوسى) هو من قام باعتقال البارونى فى فبراير 1915 م، وذلك محاولة منه كف يد البارونى ورفاقه عن القيام بأعمال عدائية ضد الانجليز فى مصر، وقضية الاعتقال وردت فى النص (أ) من ذكريات عزام كالآتى: ـ «وكان السيد أحمد الشريف السنوسى حليفاً للدولة يقاتل أعداءها، وكان سليمان البارونى خصما

(34) الزاوى، نفس المصدر، ص 266، أيضاً كارلوقوق بورشيناري، العلاقات العربية الايطالية من 1902 م الى 1930 م، ترجمة عمر البارونى، من منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس ـ ليبيا، 1980 م، ص 284.

(35) (ب) فصل 12، ص 152، وترد فى هذا النَّص (ب) جملة (اعتقله لمدة سنة) بدلاً للجملة (اعتقله قبل ذلك بسنة) الواردة فى النص (أ).

شخصياً له... كان قد اعتقله قبل ذلك بسنة فى السلوم ثم رده الى الآستانة»[36]، وواضح ان النصين يختلفان مضموناً، وان كنا نجد العذر للاستاذ عارف، فى ما اختلط عليه من مفهوم العبارة الواردة فى النص (أ) فربما تومىء الى أن ضحيَّة الاعتقال كانت سنوسية وعلى اعتبار انها تحتمل (معنيين)، لم تكن قاطعة، الا اننا لا نجد المبرر لتغير الأسماء، ولا الكلمات حين يكون تغييرها سبباً فى تغير المضامين[37]، كما اننا لا ندرى مصدر التغيير أهو الراوى أم المحرر؟

من مصراتة الى برلين: ـ

يصاب عزام فى مصراتة بالملاريا، ويحس بالارهاق، فيقترح نورى ايفاده الى فيينا للعلاج، وفعلا تقله غواصة من (مصراتة) الى (بولا) فى النمسا على شواطىء الادرياتيك وذلك فى شهر اغسطس 1917 م، ومنها ينتقل الى فيينا ثم الى استانبول، حيث يقابل (جمال باشا) بتوصية من (نورى باشا). ويحدثنا عزام عن المقابلة التى كانت سبباً فى عدوله عن الالتحاق بالجيوش العثمانية التى تقاتل الانجليز فى الشام، لأن جمال باشا القى اللوم أثناء المقابلة على المصريين عموماً، لأنهم ـ على رأيه ـ لم يؤدوا واجبهم عند هجومه على (قناة السويس)، ولو فعلوا لانقذوا انفسهم من مغتصبى بلادهم، وقد قدم عزام حججا مقابلة دفعها جمال كلها ولم يقبل أى تبرير قائلاً له: ـ «ان المصريين لا يريدون ان يدفعوا ثمن الحرية، ولا ان يضحوا بشىء»[38]، وهكذا فقد صرف عزام النظر عن التطوع فى الجيش العثمانى فى الشام، ليقضى اياماً فى المرح، خالياً من أمور الحرب والسياسة، غير ان أنور باشا وزير الحربية استدعاه وكلفه بالسفر الى برلين ثم الى استوكهولم كمندوب للدفاع عن القضية الطرابلسية، وقد كان

(36) (أ) حلقة 11، عدد 1335، 12 مايو 1950 م، ص 22.

(37) قارن النصين.

(38) (أ) حلقة (12)، عدد 1336، 19 مايو 1950 م، ص 24، (ب) فصل 13، ص 159.

السفر بتدبير من منظمة (تشكيلاتى مخصوصة)[39] التى اختارت مندوباً عن كل بلد، ومن المندوبين الذين يذكرهم: ـ (عن مصر الشيخ عبد العزيز جاويش والدكتور أحمد فؤاد وعن سوريا الأمير شكيب أرسلان وعن تونس الشيخ صالح الشريف التونسى وعن مراكش (المغرب) الشيخ العنابى)، غير ان المؤتمر تأجل، فظلوا مقيمين فى برلين محوطين باحترام الالمان، وفى برلين شجعته وزارة الخارجية الالمانية على وضع (رسالة عن افريقيا)، هى نفس العمل الذى سبق ان اشرنا اليه تحت اسم (كفاح الشعب الليبى فى سبيل الحرية)[40].

استدعاء عزام الى استانبول: ـ

يتناول عزام هذه الواقعة فى اسهاب ذلك ان السفارة العثمانية فى برلين اتصلت به، وابلغه مندوب عن وزارة الحربية العثمانية قرار استدعائه الملح الى استانبول، وعندما بدا عليه التردد ابلغ بان ذلك امر عسكرى، الأمر الذى جعله يطلب المشورة من صديقه (الأمير شكيب ارسلان) الذى لا يزال فى برلين

(39) هى منظمة سرية ثورية عثمانية، انبثقت عن جمعية الاتحاد والترقى على الأرجح، وقد ظل مؤسسها وعقلها المدبر (اسماعيل انور أحمد) المشهور (بانور باشا) يشرف عليها ويسند مهامها الثورية والجهادية، داخل البلاد العثمانية والاسلامية عموماً الى شخصيات مدنية وعسكرية ذات كفاءات وصفات محددة أهمها: ـ الاخلاص والتضحية والاعتماد على النفس وروح التفاؤل، وقد انخرط ليبيون فى جناحيها السياسى والعسكرى وهذا الأخير عرف (بمنظمة الضباط الفدائيين)، ولدى هزيمة الدولة العثمانية، وتسلط الحلفاء على مقدراتها أثر اتفاقية مودروس 31 من أكتوبر 1918 م، حوكم اعضاء هذه المنظمة ونكّل بمن وقع منهم فى ايدى السلطات القائمة على عهد السلطان محمد وحيد الدين.

للتوسع، انظر: ـ

Stodard, Philip Hendrick, 92, the Ottoman Governement And The Arabs, 1911-1912: A Preliminary Study Of The Teskilati Mahsusa. Princeton University Ph. D, 1963, History Modern, P. 64, 95, 96, 100, 209, 210.

أيضاً: ـ د. عبد المولى صالح الحرير، مذكرات انور باشا فى طرابلس الغرب، الجماهيرية، 1979 م، ص 13 ـ 14.

(40) انظر الهامش رقم (1) من هذا المقال.

ويقول فى وصف حالهما: ـ «كنا فى برلين نزداد سخطاً على الأتراك يوماً بعد يوم[41]، وذلك بسبب سوء تصرفاتهم واعمال جمال باشا المنكرة فى الشام وبلاد العرب، وهكذا فقد تلكأ عزام فى السفر الى تركيا وهنا يتلقى برقية باسمه يطمئنه ويعده بامكانية العودة الى برلين ثانية.

وهكذا سافر ولقى نورى باشا فى استانبول، وقد حمل اليه خبراً مزعجاً، وهو خبر مقتل صديقه (الدكتور سيد دسوقى)، وذلك ضمن ضحايا قافلة كانت (تحمل مؤناً وذخائر وأسلحة ونقوداً)[42]، كان قد أرسلها نورى لاغاثة (احمد الشريف وجنده) بعد ان انتهى بهم المطاف الى (سرت) بموقع يعرف بـ (سلطان) حيث اعتدى على تلك القافلة، وقتل جميع رجالها بمن فيهم (الدكتور سيد دسوقى والشيخ أبو طريف والضابط عبد القادر طراف)، ومعهم ضباط آخرون يبلغ عددهم (24 ضابطاً)، «وقد تبين فيما بعد ان هذا الاعتداء كان مدبراً من رمضان»[43]، ويضيف عزام قوله: ـ «وحينما عرفت الخبر شعرت برغبة شديدة فى العودة الى طرابلس للانتقام له»[44]، (أى لصديقه دسوقى).

(41) (أ) نفس المصدر، حلقة 13، ص 31 (ب) فصل 13، ص 164.

(42) (أ) نفس المصدر، والحلقة والصفحة، (ب) نفس الفصل، ص 167.

(43) (أ) نفس المصدر، والحلقة والصفحة، (ب) نفس الصفحة.

(44) تناولت عدة مصادر وطنية حادثة مقتل رجال القافلة، وفيما عدا دفع الشيخ الطاهر الزاوى التهمة عن رمضان السويحلى، المصدر السابق، ص 290 ـ 291، واتهام الضباط الأتراك ومنهم أمين بك، تكاد تجمع على توجيه الاتهام لرمضان، انظر فى الخصوص: ـ

سليمان الباروني، صفحات خالدة، ج 2، ص 150.

أيضاً: ـ محمد مسعود فشيكة، رمضان السويحلى، ص 128 ـ 129.

أيضاً: ـ محمد الطيب الأشهب، المصدر السابق، ص 318.

أيضاً: ـ أحمد الشريف السنوسى فى رسالة منه موجهة الى الشيخ محمد النعاس الفقهى فى 5 جمادى الأولى 1336 هـ الموافق 16 فبراير 1918 م، مكتبة آل ابن يونس الخاصة، طرابلس ـ الجماهيرية.

أيضاً: ـ محمد الأخضر العيساوى، رفع الستار عما جاء فى كتاب عمر المختار، القاهرة، مطبعة حجازى، 1355، 1936. ص 52 ـ 54.

وفى تلك الأثناء قابل عزام أنور باشا وزير الحربية العثمانية، الذى وجد لديه مشروعات ضخمة، وكان يحلم بحركات واسعة ضد الانجليز والفرنسيين، فاختار عمه واخاه نورى لقيادة جيش الشرق (إسلام أوردوس) الجيش الاسلامى واختار للمهمة الأفريقية الأمير عثمان فؤاد، واختار عزاماً مستشاراً لقيادة القوات الافريقية، وقد سافر الأمير عثمان واركان حربه (عبد الرحمن نافذ) وفى رفقتهما عزام من استانبول نحو فيينا حيث رافقهم الأمير (براجانزا) الى برلين، حيث أجرى عثمان اتصالاته بشأن تأمين الامدادات ووسائل الاتصال، وهناك عرف عزام من اتصالاته بالرسميين وخاصة من البارون فاز ندنبرج خطورة الحالة وبأن حصار الحلفاء لألمانيا صار يفعل فعله[45].

حكاية صورة: -

نشرت على الصفحة 31 من عدد المصور 1338، صورة فوتوغرافية لعزام مع الأمير عثمان والبحارة على ظهر إحدى الغواصات الألمانية، كانت تقلهم من بولا على ساحل الادرياتيك الى مصراتة كما يخبر التعليق ان الرحلة استغرقت سبعة أيام، على اننا نجد الصورة نفسها منشورة على الصفحة 157 من النص الثانى بالتعليق التالى: - «صورة نادرة للمرحوم عبد الرحمن عزام، وهو يقف فوق برج الغواصة الألمانية التى حملته من شاطىء ليبيا الى ايطاليا قبل ان يواصل رحلته الى فيينا ومنها الى استانبول. . . ويظهر معه فى الصورة قائد الغواصة الألمانية ومجموعة من الضباط الأتراك الذين رافقوه فى رحلته بالغواصة الألمانية»[46].

ونحن نسجل هذا فقط للتذكير بمشاكل نقل الرواية وما يطرأ عليها خلال النقل، وهذا مثل امامنا لرواية مكتوبة، بل وموثقة بالتصوير الفوتوغرافى، ووجه

(45) (أ) حلقة 13، عدد 1338، 2 يونية 1950، ص 31. (ب) فصل 14، ص 172.

(46) (أ) نفس الحلقة والصفحة قارن (ب) فصل 12، ص 157.

صورة نادرة للمرحوم عبد الرحمن عزام وهو يقف فوق برج الغواصة الألمانية التى حملته من شاطئ ليبيا إلى إيطاليا قبل أن يواصل رحلته إلى فيينا ومنها إلى إستانبول. . . ويظهر فى الصورة قائد الغواصة الألمانية، ومجموعة من الضباط الأتراك الذين رافقوه فى رحلته بالغواصة الألمانية.

الاشكال هنا ان الرحلة التى توضحها الصورة انما هى الرحلة من بولا على ساحل الادرياتيك النمساوى الى مصراتة على الساحل الليبى وليس العكس، فضلاً عن الخلط الواضح الذى لا يوافق عليه ربما صاحب الذكريات حيث يشير التعليق الأخير الى ان الغواصة نقلته من شواطىء ليبيا الى الشواطىء الايطالية، ومعلوم ان الشواطىء الايطالية ارض عدو، وهكذا فربما كان الخطأ من قبل كاتب الذكريات الاستاذ جميل عارف، الذى ربما فاته تفحص النص الأول (أ) فاختلطت عليه قضيتا القدوم والمغادرة، فضلاً عن ان الصورة تحمل بياناً باللغة التركية كتب من قبل احد ركاب الغواصة نثبته هنا باللغتين: ـ التركية: ـ «تحت البحرك افريقيا ساحلنه مواصلتى» والعربية: ـ «وصول الغواصة الى الساحل الافريقى»[47]. وما دمنا قد تناولنا هذه الصورة فان التعليق الوارد الدال على واقعة السفر قد جاء كما يلى فى النص (أ): ـ «صاحب الذكريات مشاراً إليه بسهم على ظهر غواصة المانية، مع قواد الغواصة عند إبحاره الى شمال افريقيا فى صحبة الأمير عثمان، وقد استغرق السفر بحراً من بولا على البحر الادرياتيكى الى مصراتة سبعة أيام»[48]، ولا شك ان عدم التنبه الى البيان التركى على الصورة هو ما اوقع كاتب النص الأول أيضاً (الأستاذ لطفى رضوان) فى الخطأ عندما جاء تعليقه على الصورة يحمل دلالة ابحار الغواصة وليس وصولها كما يتضح من ترجمة الجملة، والفرق الزمنى بالنسبة لهذه الواقعة بين الدلالتين كان سبعة أيام.

ووجه آخر للمقارنة التاريخية لا يخلو ـ فى نظرنا ـ من إفادة، وهو ان التاريخ المثبت بأعلى (الصورة الأصل) 16 مايس 1334 (سنة مالية)[49] عندما يقابل هذا التاريخ بنظيره الميلادى يوافق 29 مايو 1918 م، على ان المعلومات المتوفرة لدينا حول وصول الأمير عثمان فؤاد الى مصراتة والمستقاة من عدة مصادر

(47) (أ) حلقة 13، عدد 1338، 2 يونية 1950، ص 31، (ب) فصل 12، ص 157.

(48) (أ) نفس الحلقة والصفحة.

(49) (أ) حلقة (13) عدد 1338، 2 يونية 1950 ص 31، (ب) فصل 12، ص 157.

تؤكد على ان ذلك حدث فى مارس 1918 م فطبقا للبارونى، «4 مارس وصل خبر وصول البرنس لمصراتة»[50]، كما يشير الزاوى الى انه وصل فى شهر مارس 1918»[51] على ان هذا التاريخ المثبت على الصورة قد لا يعنى بالضرورة تاريخ وصول الغواصة فربما لا يعنى تاريخ التقاط الصورة وهو يوم الوصول، إنما قد يعنى تاريخ تسلمها بعد عملية التحميض، وهو امر يضعنا أمام اشكالية على أية حال، ويدعونا الى زيادة البحث فى هذه المسألة.

طائرات بريطانية وايطالية تقصف الشواطىء الليبية: ـ

تروى الذكريات أيضاً قصة غارات الطيران اثر مقدم الأمير على الشواطىء، على ان الرجل لم يتبين حقيقة ما يشاع من ان الطيران البريطانى أيضاً يساهم فى القصف الى جانب الطيران الايطالى، رغم تحطم طائرة بريطانية قرب الشاطىء واسر طياريها، فقد انكرا كل شيء عن اشتراك الطيران البريطانى فى القصف، وقد أوصى عزام بحسن معاملتهما، وصارا فيما بعد يقضيان اغلب الوقت مع الاميرين عثمان فؤاد وبراجانزا، ويتناولان معهما الويسكى، يقول عزام «وقد بقيا الى نهاية الحرب فى هذا الاسر اللذيذ»[52]. ثم يروى كيف وقعت الخصومة بين اسحاق باشا قائد الجبهة الغربية، ورمضان السويحلى قائد الجبهة الشرقية، وذلك بسبب حرص رمضان «على إبقاء المواد التى تجلبها الغواصات فى منطقة نفوذه ولا يرسل منها الى الجبهة الغربية الا ما تقتضيه الضرورة»[53] وانه لولا تدخل الأمير عثمان لوقف إسحاق لوقعت الوقائع بينهما...

(50) سليمان البارونى، المصدر السابق، ص 248.

(51) الطاهر الزاوى، المصدر السابق، ص 313.

(52) (أ) حلقة 14، عدد 1339، 9 يونية 1950، ص 26 (ب) فصل 15، ص 175.

(53) (أ) حلقة 14، عدد 1339، 9 يونيه 1950، ص 27، (ب) فصل 16، ص 184.
وفى نفس (الحلقة والفصل) المقابل لها يشير عزام الى انهم اتخذوا «من منطقة اشتهرت بسيدى عبد الرزاق على بعد 30 كيلومتراً عن مصراتة مستودعاً للمواد الحربية التى

ثم يروى استحكام الخلاف بين احمد الشريف ورمضان السويحلى بسبب حادثة القافلة وكيف ان احمد الشريف كان بين نارى رمضان وإدريس، وان كليهما عدو له، غير انه لم يوضح كيف امكن لأحمد الشريف ان ينحاز الى (العقيلة) وهى منطقة نفوذ لادريس، مع اننا نجد تفسيراً لذلك لدى غيره: ـ «فبعد ان عانى مع اتباعه فى سلطان والعقيلة عنتا وارهاقاً عظيمين اسعفوا بالأرزاق والأقوات من قبل محمد ادريس وآخرين فى بنغازى»[54]. وعلى أية حالة وطبقا لعزام تمكن أحمد الشريف من مغادرة البلاد حيث اقلته غواصة مع اركان حربه (صالح حرب) الى النمسا، ومنها سافر الى تركيا، وكان لعزام جهد ما فى سفر احمد الشريف هذا[55].

آراء ومواقف حيال بعض القيادات: ـ

حين يتناول فترة اقامته فى مصراتة والمناطق الغربية من البلاد يصف علاقته الحذرة برمضان السويحلى قائلاً: ـ «كان موقفى فى تلك الأيام فى أشد حالات الحرج، أولاً لتصور رمضان السويحلى أننى سأنتقم منه يوماً للمذبحة التى دبرها وذهب ضحيتها صديقى المرحوم الدكتور دسوقى»[56].

أما نصيب البارونى من ذكريات عزام فيتسم فى بعضه بالخطأ وفى بعضه

كانت الغواصات تحملها الينا»، وقد تبين لنا بعد التحقيق ان صحة اسم الموقع هى (سيدى عبد الرؤوف) موقع يقع جنوب غربى مصراتة بحوالى 20 عشرين كيلومتراً، انظر أيضاً: ـ الزاوى: معجم البلدان الليبية، طرابلس، ليبيا، مكتبة النور، 1388 ـ 1968، ص 225.

(54) د. محمد فؤاد شكرى، السنوسية دين ودولة، القاهرة، دار الفكر العربى، 1948، ص 182.

(55) (أ) حلقة، عدد 1340، 16 يونية سنة 1950، ص 29 (ب) فصل 17 ـ ص 193.

(56) (ب) فصل 16، ص 188، وردت العبارة فى النص الأول تحمل حدة أكثر: «ولكن مركزى كان حرجاً، لأن رمضان السويحلى كان يظن اننى سأنتقم منه يوماً لصديقى ومواطنى الشهيد دسوقى»؛ حلقة 15، عدد 1340، 16 يونية 1950 ص 29.

الآخر بالتحريف؛ من ذلك «أن سليمان البارونى عندما عين واليا لطرابلس كان قد اتخذ مركزاً له فى فندق بن غشير فى مدينة مصراتة[57]، وهكذا بينما تكاد تجمع كافة المصادر على ان البارونى اتخذ العزيزية مركزاً له فان قصر بن غشير أيضاً يقع قرب مدينة طرابلس لا فى مصراتة.

ومما يؤكد ما قلناه من نفس الذكريات: ـ ان البارونى مع توليه مهام منصبه الجديد ارسل الى قناصل أمريكا واليونان وهولندا واسبانيا مذكرة يخبر فيها الدول عن طريقهم بانه نزل على ساحل مصراتة يحمل فرمان تقليده ولاية طرابلس الغرب وقيادة جنودها الاسلامية ويشير الى انه وصل زليتن وساحل الخمس فى مواكب لم يسبق لها نظير ويستطرد بعدها مشيراً الى واقعة الصلح بين ترهونة ومصراتة قائلاً: ـ

«وهناك جاءتنا الوفود من أطراف الولاية جميعها من فزان الى زوارة وبحضورهم عقدت الصلح بين ترهونة ومصراتة فى نصف ساعة وتقدمت الى مركز ترهونة ثم العزيزية ورفعت الراية العثمانية المنصورة بيدى على قلعة استحكام سيدى رمضان فى احتفال عظيم»[58]، وهكذا فقد قرىء الفرمان فى العزيزية التى اتخذت مركزاً لادارة الولاية[59]. وبعد ان يحدثنا عن دخول جنزور وانتظام حركة الغواصات بين سواحل الدولة العثمانية ومصراتة فانه يعرض فى خبر عجيب لاتصالات كانت على رأيه تجرى بين البارونى وأحمد الشريف عندما كان الأخير فى الآستانة إذ كان البارونى على حد قوله: ـ «يبعث اليه (أى الى أحمد الشريف) بالرسائل ليستنير برأيه فى الكثير من المشاكل ولم يكن السيد أحمد الشريف السنوسى يبخل عليه بالرأى والمشورة»[60]، ويضيف

(57) (ب) نفس المصدر والصفحة.

(58) (ب) نفس المصدر، ص 188 ـ 199.

(59) وبشأن مركز العزيزية الاستراتيجى نقرأ للزاوى فى جهاد الأبطال، ط 3 (أن العزيزية كانت المركز الأول للجيوش الطرابلسية ومركز قيادتهم العامة والمركز الثانى الزاوية) ص 334. أنظر لنفس المؤلف: ـ معجم البلدان الليبية، طرابلس ليبيا مكتبة النور، 1388 ـ 1968، ص 226.

(60) (ب) فصل 16، ص 199.

عزام قوله: ـ «واطلعنى سليمان البارونى مرة على واحدة من رسائل السيد أحمد الشريف اليه»[61] وقد اثبت عزام رسالة[62] اعتبرها من تلك المتبادلة بين الرجلين فى حين انها ليست سوى نسخة مبتورة ومحرفة عن رسالة ارسلها أحمد الشريف الى البارونى فعلاً، ولكنها لا تنتمى الى الفترة التاريخية التى اشار اليها عزام، وهى فترة وجود أحمد الشريف فى الآستانة، وقد لا تكون هناك أية رسائل متبادلة خلال هذه الفترة ولا المتأخرة عنها.

أما فى ما يتعلق بهذه الرسالة المبتورة، فاننا نجد نصها الكامل لدى أبى القاسم البارونى[63] وموضوعها يتعلق بالرد على رسالة البارونى اليه خلال الأحداث الدموية فى منطقة فزان حين قام السنوسيون بقيادة محمد عابد السنوسى (أخو أحمد الشريف ووكيله فى المنطقة الجنوبية)، لدى قيامه بمناوأة الدولة العثمانية التى كان يمثلها الضابط العثمانى الشجاع (من أصل ليبى) احسان ثاقب ورفيقاه[64]، وقد جاء فى الرسالة الأصل دفع أحمد الشريف عن أخيه محمد العابد تهمة مناهضة الدولة قوله: ـ «ومن خصوص السيد محمد عابد فعهدى به ابعد الناس عن التعرض لمناهضة الدولة وعسى أن تظهر الحقيقة ببراءته من كل ما نسبَ اليه»[65]، وفيما عدا هذه الفقرة المحذوفة لدى عزام فإن الرسالة مثبتة لدى أبى القاسم حرفياً كما أوضحنا. تبقى مسألة تاريخ الرسالة وهو (5 فى ذى القعدة 1335 هـ) لدى أبى القاسم، فى حين يصبح فى ذكريات عزام (ذى القعدة 1335 هـ) مغفلاً تاريخ اليوم، وعند مقابلة التاريخ بنظيره الميلادى يتضح انه يوم (23 من أغسطس 1917) أى قبل أن يغادر

(61) (ب) نفس المصدر والصفحة.

(62) (ب) فصل 16، ص 190.

(63) أبو القاسم يحيى البارونى، حياة سليمان باشا البارونى زعيم المجاهدين الطرابلسيين، ط 2، القاهرة، 1367 ـ 1948، ص 80.

(64) هو النقيب إحسان ثاقب، ورفيقاه فى المهمة هما: ـ السنوسى شوكت ومحمد الأرنؤوطى، انظر: ـ مصطفى على هويدى، تأثيرات الحرب العالمية الأولى على حركة الجهاد الليبى، ضمن كتاب: ـ بحوث ودراسات فى التاريخ الليبى، ج 2 الجماهيرية، 1984 ص 193.

الشيخ أحمد الشريف البلاد بما يقرب من عام كامل[66]. وتصادفنا نقلة سريعة فى علاقته برمضان، فمن ريبة وشكوك متبادلة الى علائق وثيقة!

أما بخصوص عبد النبى بلخير فتنبىء الذكريات عن فتور وتردد فى علاقة عزام به؛ لأن الأول كان يتسم فى تعامله بالحذر وشدة الحيطة.

فكرة الجمهورية ومولدها: ـ

يتناول عزام فى نهاية الفصل السابع عشر من النص (ب) فكرة تكوين حكومة وطنية تخلف الوجود العثمانى فى حالة افتراض هزيمة الدولة، الأمر الذى ابداه أمام رجلين هما: ـ عبد النبى بالخير ورمضان السويحلى، وقد قابله اولهما بكل حذر، اذ راوده شعور بان يكون مدسوساً من العثمانيين للتعرف على دخائلهما هو ورمضان فى حين اقتنع رمضان برأى عزام، وكان ذلك مقدمة لاعلان مولد الجمهورية فيما بعد، وطبقاً لهذه الدعوى «كانت اول مرة تطرح فيها فكرة انشاء حكومة عربية لمواصلة الجهاد»[67].

وهكذا يلاحظ ان عزاماً يحاول ابراز دوره فى جميع الأطوار على حساب القيادات الوطنية، ومن ذلك مثلاً وخلافاً للمصادر الأخرى يروى دوره فى تعطيل سفر الأمير عثمان ومن معه[68]، ويتعمد خلال ذلك ان يخبر عن البارونى بأنه ترك مكانه فى طرابلس وجاء الى الأمير فى مصراتة ليصحبه معه الى

(66) طبقا لارسلان: حاضر العالم الاسلامى، مج 1، ج 1، ص 153، غادر أحمد الشريف العقلية فى 7 ذى القعدة 1336 ويوافق 14 أغسطس 1918 م، متفقاً فى ذلك مع غابيللى الذى حدد المغادرة بمنتصف اغسطس 1918، أنظر: ـ أوتونى غابيللى، قطر طرابلس من نهاية الحرب العالمية الى قيام الفاشيست، ترجمة: ـ عمر البارونى وخالد زكي ثابت، مخطوط بمركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، ص 171، قارن بريتشارد، السنوسيون فى برقة، ص 222 الذى يحدد تاريخ مغادرته بسبتمبر 1918.

(67) (أ): حلقة 16 عدد 1341، 23 يونية 1950، ص 26، (ب) فصل 17، ص 198 ـ 199.

(68) (أ) حلقة 16، عدد 1341، ص 26، (ب) فصل 1، ص 203.

الآستانة، ولعلنا ندرك المغزى من إيراد اسم (طرابلس) ومن قوله: ـ إن مقدمه إلى مصراتة إنما كان بهدف مغادرة البلاد صحبة الأمير؛ فى حين ان البارونى قدم من غريان، ثم أن (البارونى وعزام) كانا صحبة الأمير فى الطريق من مصراتة الى (مرفأ الرومية)، وبينما واصل الأمير وعزام سيرهما نحو الموقع على الشاطىء، عاد البارونى من منتصف الطريق الى مصراتة معتذراً للأمير بخطورة أحوال البلاد مما يؤيد ان البارونى لم تكن فى نيته مغادرة البلاد إطلاقاً الأمر الذى قابله رمضان بسرور بالغ، فقد كان يظن أنه سيغادر البلاد[69]، على أن هذا التصرف جاء مؤكداً قوله للأمير العثمانى قبل ذلك: ـ

«أما انا فلا افارق إخوانى الى ان نحصل على نتيجة إن شاء الله»[70]، ويبدو ان عزاماً تستأثر بخياله فكرة الامارة والملك، اذ يتقلب بين الدعوة للجمهورية ـ على دعواه ـ الى تنصيب الأمير عثمان فؤاد ملكاً على طرابلس، وعندما فشلت الفكرة لرفض الأمير لها عاد مرة أخرى الى فكرة الجمهورية، وتذكرنا فكرة الامارة والملك بمحاولة تتويج سابقة خلال حرب البلقان ـ اسلفنا الحديث عنها ـ .

ومع حضوره كشاهد عيان على تلك الأحداث فاننا لا نتوقع الدقة فى تفصيلات روايته، ومن ذلك تحديده لعدد اعضاء مجلس شورى الجمهورية بثلاثين عضوا[71] بينما هم فى الواقع 22 إثنان وعشرون يضاف إليهم رئيس ونائب للرئيس.

ومن ذلك أيضاً فى ما يتعلق (بقسم الولاء) الذى كان ـ على دعواه ـ قد

(69) يذكر الاستاذ امين سعيد: ـ المصدر السابق، ص 328 «ان الأمير عثمان فؤاد عاد الى مصراتة ولم يسافر، فقد تلقت (أى الغواصة) أمراً بسرعة رجوعها الى المانيا رأساً وبدون ان تحمل ركاباً خوفاً من الوقوع فى أسر أساطيل الأعداء». قارن: ـ ابو اليقظان، المصدر السابق، ص 139.

(70) امين سعيد، المصدر السابق، ص 327، أيضاً، ابو اليقظان المصدر السابق، ص 135.

(71) (أ) حلقة 16، عدد 1341، 23 يونية 1950 ص 26، (ب) فصل 19، ص 10.

أعده بالصيغة التالية: ـ «أقسم بالله وكتبه ورسله وأوليائه أن أفدى بنفسى ومالى حكومتى الطرابلسية الجمهورية»[72]، هذا القسم يصبح فى النص (ب) بصيغة أخرى هى الصيغة المثبتة فى المصادر الأخرى والصيغة هى: ـ «أقسم بالله العظيم قابضاً بيدى على هذا القرآن الكريم ان اجعل نفسى ومالى فداء لوطنى وحكومتى الجمهورية الطرابلسية، وان اكون لعدوها عدواً، ولصديقها صديقاً ولقانونها الشرعى مطيعاً»[73].

الوساطة العثمانية: ـ

كنتيجة لاتفاقية الهدنة (هدنة مودروس) بين الدولة العثمانية والحلفاء، قدم (أكرم بن رجب) أحد الضباط الأتراك الذين شاركوا فى جهاد الفترة الأولى، وهو نجل رجب باشا احد ولاة طرابلس قبيل العدوان، ومن الأمور التى أدلى بها فى إطار مهمة الوساطة التى كلف بها أنه يريد مقابلة الأمير عثمان فؤاد وكان آنذاك فى ورفلة، لإبلاغه اوامر حكومته، وأهمها: ـ

1 ـ دعوة جميع المنتسبين للدولة العثمانية لتسليم أنفسهم للايطاليين.
2 ـ نصح الأهالى بعدم المقاومة.

كما صرح لعزام بقوله: ـ «إن الأوامر التى يحملها كتبت تحت ضغط الحلفاء»[74].

ومن متناقضات النصين لدى عزام أنه بعد ان يقرر فى النص (أ) «ان

(72) (أ) حلقة 16، عدد 1341، 23 يونية 1950 ص 59.

(73) (ب) فصل 19 ص 213، أيضاً: ـ أمين سعيد، المصدر السابق، ص 330 ـ 331 أيضاً أبو القاسم البارونى، المرجع السابق، ص 90، أيضاً: ابو اليقظان، المصدر السابق، ص 139، أيضاً محمد فشيكة، رمضان السويحلى البطل الشهير بكفاحه للطليان، طرابلس ليبيا، مكتبة الفرجانى، 1394 ـ 1974، ص 191.

(74) (أ) حلقة 17، عدد 1342، 30 يونية 1950، ص 29 (ب) فصل 20، ص 220 ـ 221.

الأمير كان فى ورفلة ضيفاً على حكومة الجمهورية وليس له من الأمر شيء[75]، وان الأمير تحول عنها فى طريقه الى الحدود التونسية عن طريق غريان»، يعود عزام فيقرر فى النص (ب) ان الأمير «تحرك ومن معه من رجال حاشيته والضباط الأتراك من مصراتة، وكان الضابط الوحيد الذى رفض ان يصحب الأمير هو إسحاق باشا الذى اخترناه قائداً للجيش»[76]. ويهمنا هنا أن بعض الوقائع وردت مشوشة مرتبكة، وخاصة فى ما يتعلق بإسحاق باشا إذ لم يتم اختياره قائداً للجيش من قبل رجال الجمهورية، بل واعفى من منصبه ليخلفه كما هو معروف اللواء (عبد القادر باشا الغناى)[77]، وفى رأينا أنه ليس من داع الى الرجوع لمصادر أخرى فى الموضوع لأن النص الأول لعزام نفسه يثبت ذلك حين يتحدث عن (ان المجاهدين أساءوا الظن به ولم يمكنوه من الجهاد معهم الخ)[78].

الرجل الحر: -

تشير الذكريات الى ان عزاماً عاد من الحدود التونسية بعد وداع الأمير الى مصراتة رأساً لينشر خبر مغادرة الأمر فى صحيفة كان يصدرها على (البالوظة) وكانت على حد قوله اللسان الرسمى للجمهورية، وهى صحيفة، (الرجل الحر)، وهى إحدى الصحف التى لم تصلنا أية أعداد منها، الأمر الذى يضعنا أمام تساؤلات عدة منها على سبيل المثال: - هل هناك علاقة بين هذه الصحيفة وصحيفتى (افريقيا) و(سيف الحق) اللتين صدرتا، بين عامى 1919 و1920 وكما جاء فى (البيبلوغرافيا الوطنية الليبية) فان الأخيرة «صدرت فى عهد

(75) (أ) نفس الحلقة والصفحة، (ب) قارن فصل 20، ص 217.

(76) (ب) فصل 20، ص 220 - 221.

(77) الزاوى: جهاد الابطال، ص 336، أيضاً مقالنا - الجمهورية الطرابلسية المنشور بمجلة الشهيد، عدد 2، من منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، 1981، ص 36 - 58.

(78) (أ) حلقة 17، عدد 1342، 30 يونية 1950، ص 29.

الجمهورية بإشراف عبد الرحمن عزام (مجاهد مصرى)، مصراتة[79] أيضاً: - ما مدى صلتها بصحيفة تناولتها (زعيمة البارونى) فى مذكرات والدها: - صفحات خالدة، تحت اسم (صحيفة الجمهورية)؟[79].

معارك عام 1919 م: -

تتناول الذكريات معركة وقعت على رأى عزام بمبادرة هجومية إيطالية، ولم تكن للمعركة قيادة وطنية بمعنى الكلمة، بل هى معركة قاد مجموعاتها ضباط ممتازون، يضع على رأس القائمة (الضابط المصرى ابراهيم عوض)، على انه افادنا من حيث تقديراته لاعداد المجاهدين والجانب الايطالى فقد قدر قوة المجاهدين بأقل من أربعة آلاف مجاهد والقوات الايطالية بأكثر من عشرين الف جندى، ومن بين من تسجل الذكريات انهم شهدوا المعركة: - الحاج صالح بن سلطان، والسنوسى العسبلى والشيخ المنصورى وعبد العاطى الجرم، والصويعى الخيتونى، وقد حاولنا خلال دراستنا المضمنة فى كتاب (بحوث ودراسات فى التاريخ الليبى) حاولنا التعرف من خلال وصف الذكريات الذي ينقصه التحديد والتوثيق، ومن خلال المعلومات المتجمعة لدينا من مصادر مختلفة الى

(79) وزارة الاعلام والثقافة، البيبلوغرافيا الوطنية الليبية، ج 1 الدوريات 1282 - 1391 هـ، 1866 - 1971 م، طرابلس - ليبيا، مطابع الجمهورية، 1972، ص 40.
قارن: ماريو سكابرو، مقال تحت عنوان: (صحافة طرابلس منذ الاحتلال الايطالى، 1911 - 1933) نقله الى العربية محمد بهجت القرمانلى، 1983، ص 7 - 8، مخطوط بمكتبة المترجم، طرابلس.

(79 م) سليمان البارونى، المصدر السابق، ص 349 - 352.
تبينت لنا نقاط شك حول صحيفتى سيف الحق وافريقيا ومدى صحة صدورهما أصلاً من خلال ما حدثنا به الاستاذ على مصطفى المصراتى، حيث أفاد بأنه استفسر عنهما من الأستاذ عبد الرحمن عزام نفسه خلال زيارته الأخيرة لليبيا سنة 1973، أنظر دراستنا المعدة للنشر بالعدد الخامس من مجلة الوثائق والمخطوطات، تحت عنوان: - (محرَّرات عزام فى صحيفة اللواء الطرابلسى).

ان المعركة المقصودة هى (معركة رأس الغولة)، التى تدعى بمسميات عدة منها: ـ معركة الزاوية، معركة الطويبية ـ قرقوزة، معركة ترِّينة[80]، وفى نفس الحلقة يتناول مفاوضات الصلح، ويعتبر هذه المفاوضات استئنافاً لها! ربما ينطلق فى ذلك من اتصالات المجاهدين المبكرة اثر (اعلان تشكيل الجمهورية الطرابلسية)، وهذا فى رأينا ـ صحيح، وفيما عدا اشارته لرد الجمهورية عن هذه المرحلة من مراحل المفاوضات فانه لم يحدثنا عما جرى خلالها مع كونه طرفا فعالاً فيها، ولعل من بين حسنات ذكريات عزام وهو يتحدث عن المفاوضات وتبادل الأسرى تعليق أثبته على الصفحة 239 فى النص (ب) يوضح فيه المقصود من كلمة (اخوتك) التى وردت فى مقدمة رسالة الكولونيل جينتيلوتشى الى رمضان، تلك الرسالة التى جاءت فى كتاب (صفحات خالدة)[81] دون تعليق وبقراءة مقدمة الرسالة: ـ (جناب رمضان الشتيوى المحترم بعد اهداء السلام، قد جئت اليك بالسفينة الحربية، ومعى اخوتك الذين كتبوا لك الجواب الملفوف لهذا، وليس قصدى الا المذاكرة معك قبل مباشرة الحرب ووقوع البلايا والمحن)[82] اما التعليق المثبت لدى عزام فى اسفل الصورة فقد جاء كما يلي: ـ واحدة من وثائق الجمهورية الطرابلسية، وهى رسالة بعث بها الكولونيل الايطالى جينتيلوتشى الى رمضان السويحلى الشتيوى يدعوه فيها للمفاوضة معه بشأن الافراج عن اخوة رمضان، وكانت السلطات الايطالية قد اعتقلتهم واودعتهم السجن للضغط عليه بعد ان اعلن الحرب على الايطاليين[83] وقد عين عزام فى الصفحة السابقة «ان من بين الأسرى اخوا رمضان احمد السويحلى ومحمد سعدون الخ»[84].

(80) أنظر، مقالنا: ـ حركة الجهاد الليبى خلال الفترة 1919 ـ 1921 م ضمن كتاب: ـ بحوث ودراسات فى التاريخ الليبى، ج 2 لمجموعة من الاساتذة والباحثين باشراف الدكتور صلاح الدين حسن السورى وحبيب وداعة الحسناوى، الجماهيرية، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى 1984، ص 197، وما بعدها.

(81) سليمان الباروني، المصدر السابق، ص 280.

(82) (ب) فصل 22، ص 239، أيضاً سليمان الباروني، المصدر السابق، نفس الصفحة.

(83) الباروني، المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(84) عزام: المصدر السابق، ص 238.

الفترة المغفلة: ـ

يتناول عزام فترة اقامته فى طرابلس مع بعض الأعيان فى بيت استأجروه، تلك الفترة التى اتسمت بالنشاط السياسى والثقافى ولكن دون ان يظهر اثر لأى من اولئك الأعيان على سطح ذلك النشاط، فان عزاما كما تدعى الذكريات يفتتح المدارس ويصدر جريدة باسم اللواء الطرابلسى مستوحاة من انتسابه للحزب الوطنى وجريدته اللواء.

ويضيف عزام مباشرة قوله: ـ (وأثار نشاطى انتباه المسؤولين الايطاليين فأخذوا فى تشجيعى[85]، ولكنه لم يفسر لنا ماهية هذا التشجيع ولا كيفيته واهدافه، اما عن خروجه من مدينة طرابلس فقد كان اثر احساسه بان الأمور بدأت تسوء اكثر وان الفتنة بدأت تنذر بحرب اهلية، وكان ذلك كله بعد اسناد الولاية لوال جديد مدنى بدل الجنرال (غاريونى) وتمكن من الوصول بالقطار الى العزيزية، وهناك يكرمه قائمقامها (مفتاح الزينى)[86] ولكن الأحوال لا تعجبه فيقرر الانتقال الى ترهونة.

وفى فصل مفرد من ذكرياته (النص ب) يحدثنا عن زواجه من كريمة احد شيوخ القبائل فى غريان، ولكنه لم يمض معها سوى 19 يوماً انشغل بعدها بالحرب، وكعادته لم يحدد الفترة التى غادر فيها زوجته، ولكن ذكر انه كان قد تزوجها قبل نشوب الحرب بين المجاهدين والايطاليين بعدة أسابيع، ويمكن الاطمئنان الى ان هذه الحرب هى تلك التى بدأت مع بداية عام 1922، والتى غادر البلاد بعدها بصحبة ادريس السنوسى فى أواخر عام 1922[87].

(85) نفس المصدر، ص 242.

(86) صوابه: التريكى استناداً الى عدة مصادر.

(87) (ب) فصل 23، ص 247 ـ 249، وبخصوص مغادرته النهائية للأرض الليبية يقول د. محمد فؤاد شكرى فى كتابه: ـ السنوسية دين ودولة القاهرة ـ مصر، دار الفكر العربى، 1948، ص 262 ـ 263، (إنَّ عزاماً رافق محمد ادريس السنوسى من جدابية ومعهما أيضاً نورى السعداوى ومحمد الصادق بن الحاج فى طريقهم الى مصر وذلك يوم 21 ديسمبر 1922 وبلغوا مريوط يوم 19 يناير 1923 ووصل إدريس الى القاهرة يوم 27 منه).

ولا ندرى سبباً لاغفال الرجل تلك الفترة الحافلة ونعنى بها ما بين عامى 1919 ونهاية 1922 بحيث لا يجد خلالها حدثاً ينوه به سوى حدث زواجه المأساة.

وفى النهاية لا يزال إسهام عبد الرحمن عزام فى الحياة السياسية خلال مراحل من جهاد هذا الشعب جديراً بعناية الدارسين والباحثين بحيث لا يمكن المرور سريعاً على حياة حافلة كحياة عزام، بل ينبغى الغوص فى اعماق تلك الحياة لنكتشف اية شخصية واية حياة عاشها رجل لا يزال اسمه علماً فى قاموس سياسة هذا القرن، لم يكشف عن كثير من جوانب مسمَّاه التى تتسم فى مجملها بالغموض.

الفصل الثالث

الجمهورية الطرابلسية

أ ـ مقدمة فى أصول المصطلح.
ب ـ الجمهورية الطرابلسية وبناء الكيان.

الجمهورية الطرابلسية[1]

1 ـ «مقدمة فى أصول المصطلح»

ربما كانت لازمة ثقافية للحديث عن موضوع الجمهورية الطرابلسية، كحدث فريد فى التاريخ السياسى المعاصر عربياً واسلامياً، أن نعود قليلاً إلى جذور اللفظ العربى لهذه الكلمة (الجمهورية)، محاولين التعرف على علاقته بالصيغ اللفظية فى لغات الشمال (كالريبوبليكا ـ Republica)، وما حُرِّف عنها، وهو يأخذ طريقة إلى الاستعمال المغاربى (كالروببليكا)، وما يتصل بهما (كالبوبليك Public)، ومع ما يبدو من تأثير الثقافة الشمالية الوافدة ذلك التأثير الثقافى المتبادل قديماً وحديثاً، عن طريق معبر جبل طارق بخاصة، بحيث ترك صوراً لصياغات شمالية فى اللغة العربية؛ فإن هٰذه الألفاظ، وبما صارت إليه، إنما جاءت للدلالة على المصطلح التنظيمى الشعبى، وعلى نمطيّة الحكم، محاولة الإفادة من شتى الحركات الشعبية، التى قامت فى الشمال، بما شكل هذا الشمال من مُثُلٍ فى تاريخ العالم الحديث والمعاصر، كان أبرزها مَثَلُ الثورة الفرنسية. وهكذا، فإن انتشار الصيغ اللفظية لهذا المصطلح فى لغات الشمال من لاتينية وغيرها، وكذلك استمرار التواصل بين شمال وجنوب البحر المتوسط، وبخاصة الصلات الرابطة بين أقرب يابستين فيهما، إن هذا يدفع بنا إلى التساؤل: ـ هل تبدو العلاقة وثيقة بين تلك الصيغ وبين المصطلح الشعبى المستعمل فى المغرب (السيبا) مقابل تنظيم سلطوى هو (المخزن)؟ وهنا قد نستطيع القول بوضوح

(1) نشر هٰذا البحث جزئيّاً فى العدد الثانى من مجلة الشهيد، من منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، الصادر فى أكتوبر 1981.

العلاقة، وتوفر الصلة، بما يكفى لمحاولة تأصيل معرفيَّة فى هٰذا المجال، فحينما يرد لفظ (الريبوبليكا) فى ثقافة الرومان ومن قبل لدى اليونان يسرى من قَبْلِهِمَا معاً فى الليبية، ونعنى بالليبية الواقع التاريخى للجمهوريات القبلية الليبية قديماً، وما تحدَّر عنه من تراكمات التراث الثقافى الذى استمدت منه التجمعات التاريخية وتستمد كثيراً من الصفات لِحَرَكةِ الاجتماع المميزة لكل تجمع بشرى فى التاريخ، وحين يذكر لفظ (الجمهورية ـ الريبوبليكا) الشمالى نجد أن مقابلَهُ فى الجنوب لفظ (السِّيبا)، وعلى اعتبار مدلولى اللفظين فإنهما يمثلان الطرف الحر النازع إلى المشاكسة، والتفلُّت من قيود السلطة، أما حين يُذكر لفظ (المملكة أو الامبراطورية) الشمالى فإن مقابله فى الجنوب (المخزن) للدلالة على الطرف السلطوى، أو من يجرى فى ركاب السلطة، بما يعنى فى الغالب (الحكومة)، أو بما يعنى من تنظيم سماتُه البارزة النزوع إلى الاستقرار والثبات والسكون. ودون أن نتوسع فى هٰذا الجانب الثقافى فإن الوصف لشعبية نظام الحكم (بالريبوبليكا) كما أسلفنا فى لغات الشماليين وتطبيقاتهم فى الدلالة على حكم الشعب، كان يسمح بوصفه تجربةً أو حالةً اجتماعيةً عُرفت لديهم ولدى الشعوب الإفريقية، فكانت عنوانَ نظامِ حكمِ القبيلة فى التاريخ الليبى القديم، وربما تَحَدَّرَ ذٰلك النظام من أصول حضارية تطورت عن خبرات التجارب الأقدم، وقد كانت فى تاريخ العرب قبل الإسلام أمثلة متعددة التماثل مع ما سبقت إشارتنا إليه هنا، ومن تلك الأمثلة (دار الندوة) التى كانت أشبه بنظام الجمهورية، وقد تمثلت فيها دلالة الجمهرة الشعبية لتحقيق ورعاية مصلحة كل أفراد شعب مكة والقبائل المحيطة بها، وتحديد النوعية لعلائق مجتمع مكة[2].

وعن الخبرة الأقدم فى مجال حديثنا هذا نشير إلى الدلالة الجغرافية لمصطلح (ليبيا والليبيون) كما حدده هيرودوت جغرافياً، حيث قال: ـ «أنا على استعداد لأثبت أنه لا الأيونيون ولا بقية الإغريق يعرفون كيف يحسبون: ـ ذلك أنهم يعتقدون أن العالم يتكون من ثلاثة أجزاء هى آسيا وأوربا وليبيا، ومن

(2) د. حسين الحاج حسن، أدب العرب فى عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، 1404 هـ 1984 م، ص 215.

الواضح أنهم يجب أن يضيفوا جزءاً رابعاً هو الدلتا المصرية ما داموا لا يحسبونها ضمن آسيا أو ليبيا، وحسب نظريتهم فإن النيل هو الحدّ الفاصل بين آسيا وليبيا، ولكن النيل يتفرع عند بلوغه رأس الدلتا، ويجرى حولها فيحولها بذٰلك إلى قطعةٍ منفصلة من الأرض الواقعة بين الجزأين (آسيا وليبيا)»[3].

فى ذلك الحيز الجغرافى من العالم القديم كما حدد معالمه هيرودوت ـ أبو التاريخ كما يسمونه ـ كان نظام حكم القبيلة فى التاريخ الليبى القديم، فكانت تجربة، أو حالة اجتماعية عُرفت عبر التاريخ الإفريقى القديم أيضاً، فتبيَّن من هٰذا ظهور الحالة الاجتماعية فى شكل مجلس لإدارة القبيلة عرف بمجلس الأربعين[4]، الذى خلَّف آثارَهُ على حالاتٍ اجتماعيةٍ تالية أدركنا بعضاً من متأخراتها، فقد عَرَفْنَا (مجلس العمارة) القبلى الذى كان يعم مناطق واسعة من الجبل الغربى، فكان مجلساً ادارياً رئاسياً حين تنعدم القيادة، وفى أحيان أخرى كان ادارياً مساعداً بالعدد المذكور على نطاق (ناحيةٍ)[5]، ومصغَّراً بما يناسب كل قريةٍ أو قبيلةٍ الخ، وكان يتولى فى جميع الحالات أموراً غير محددة تتعلق غالباً بالأَمْن والتعمير واصلاح ذات البين، وتزويد ساحات الجهاد وامدادها بالمجاهدين وبالمؤن وبما تتطلبه التعبئة من ضروريات.

علاقات دلالية: ـ

يكاد أن يكون متفقاً عليه أن وجدت صلة منطقية بين لفظى (سيبا المغربية) (وريبوبليكا Republica) الشمالية، اللتين عرفتا على فترات فى المنطقة المغربية الاطلسية، ولعلنا فى ايجاز شديد نبلغ مرحلة نجد فيها صلة الكلمتين

(3) د. عبد اللطيف الدغوق، فى التاريخ الليبى القديم، منشورات الجامعة الليبية، دار صادر، بيروت، ص 257.

(4) جاك بيرك، الخطابى وجمهورية الريف (وقائع مؤتمر تاريخى عقد فى باريس 1980) دار ابن رشد، 198، ص 89.

(5) عُرِفَتْ (الناحية) كنطاق إدارى خلال الفترة المعاصرة يديرها مسؤول إدارى هو (مدير الناحية)، وقد ساهمت مجالس العمَّارة بدور هامّ فى حركة جهاد الليبيين المعاصرة، وقد حافظت على تشكيلات تتطابق فى العدد مع المجالس القديمة.

حين نجد فيهما الحركية الانسانية نحو الحرية والانعتاق من تسلط القوى الأخرى، وحين تكون وسيلة الإنسان فى ذلك الجمهور والجمهرة بما فى الأخيرة من معنى التجمع والتكتل، مضافاً الى كل ذلك أن الجمهورية والسيبا هما ـ فى رأينا فى الأساس ـ حالتا تمرد، وتكاد كلمة السيبا تبين بأكثر من غيرها عن ذلك، بما تعبر عنه من ردة فعل ضد تبعية المخزن، حين تعبر هذه عن ارتباط وثيق بالسلطة وبخدمة السلطة، فهى (أى المخزن) فضلاً عن كونها مخزن غلال جاهز على الدوام يستخدم من قبل السلطة ولأجلها، فان رجال هذا المخزن جنود طيّعون للسلطة لعوامل تاريخية، وموضوعية، منها أنهم لحاجتهم كعسكريين محترفين الى مورد رزق، كانوا يُسْتَغلُّون من قبل من يملكون الموارد، وهكذا كانت السيبا تعبيراً عن تفلُّتٍ من الارتباط بأصحاب الموارد المتسلطين أيًّا كانت جهة تسلطهم.

فيما ذكرنا يمكن أن يثير الانتباه أمر ارتبط باللفظتين كمفهوم، وهو أنهما من (فوضى)، وقد نجد فى الثقافة الشعبية المغربية ما يشير الى اختلاط مفهومى الفوضى بالجمهورية، كأن يصف أحدهم حالة انعدام الأمن أو اختلاله، أو اختفاء أى شكل من أشكال الادارة أو الحكم (بالجمهورية)، ويعبر الفرد عن الفعل المصاحب بقوله: ـ (جمهرت) أى صارت الى الجمهرة بمعنى الفوضى كتلك الحالة التى يصف فيها أحد المجاهدين لقيته فى شهر الربيع (مارس) 1985 م قال ان (قيام حال من انعدام القيادة اثر حادثة اعتقال الشيخ عمر المختار سنة 1931 م وتفرق أدواره ووقوع معركة وادى الفارغ التى اسشتهد فيها مئات المجاهدين، حينها كانت الحكومة جمهورية[6]، على أن فى هذا الخلْط شيء من التعسف فى دلالته، ذلك أنه مثل ما فى الجمهورية من نظام، وبما يشبه فى ذلك السيبا فان التوافق جاء من كونهما نظامين يهدفان الى التحرر أصلاً، وقد يمكننا التثبت من دلالة لفظة السيبا اللغوية حين نتتبع ـ ولو بحذر ـ تحدر هذه الكلمة من العربية: فالسائبة من الابل تترك حرة، والعبد حين يحرر، (سائبة وسائب أو مسيبة)، وهكذا تتضح العلاقة الدلالية لمفهومى اللفظتين.

(6) رواية المجاهد: جاد المولى بو المرضى العبيدى، منطقة عين مارة (رواية مكتوبة).

أما اذا تتبَّعنا الصلات اللفظية بين العربية ولغات الشماليين، فاننا سنجد ـ ولعل هذا من باب التأثر والتأثير ـ أن هناك متشابهات قد تمنحنا بعض الاضاءات التاريخية، منها على سبيل المثال: ـ

1 ـ لفظة Camorra[7]، فى اللغتين الايطالية والانجليزية وتعنى مدلولاً متشابهاً لجمعية سرية تسعى لتحقيق أغراضها بطرق غير مشروعة، وغاياتها غير شريفة، وفى الاسبانية جمعية مصغرة لعناصر تسعى الى تحقيق غايات فى المجال السياسى بنوع خاص، ولكن عن طرق مشروعة أو غير مشروعة، وهكذا تبدو للكلمة قرابة لفظية من العربية، يجعل انتماءها الى العربية محتملاً، ونحن نميل الى القول بتحدرها عنها أى عن العربية اذا ما قلنا ان المعنى المتبادر من لفظة الجمهورية التاريخى، والذى جاءت الدلالة فيه على نوع من التنظيم الشعبى للحكم، كان معروفاً فى الحضارات التاريخية الليبية والعربية واليونانية والرومانية الخ، وكانت لفظة الريبوبليكا دالة عليه فى بعض اللغات الأوربية، وقد يبدو التأثير العكسى لكلمة الريبوبليكا هذه أخيراً حين دخلت الفظة (الشارع الريفى فى المغرب الأقصى) ودخلت اللفظة البوبليك[8] (الشارع الاوراسى فى الجزائر)،

(7) من المفارقات اللفظية التى يجدر بنا استقراؤها لفظة Chimera ـ خيميرا الإغريقية)، والتى يمكن مقارنتها بكلمة Camorra التى أشرنا اليها، وبخاصة حين تعنى أولاهما المخلوقات الأسطورية ذات الرؤوس المتعددة والمختلفة فى أشكالها، وقد جاءت فى محاورات أفلاطون الباحثة عَنْ نِظام حكم سويٍّ، وكانت تُدعى (المخلوقات الشوهاء)، ولخاصيَّة القدرة على تغيير أشكالها وقدراتها المتعددة صار التمثيل بها من قبل حكماء الجمهورية؛ وترمز الى نظام حكمٍ تتعدد فيه القيادات وتتباين فيه الكفايات، أو ما يمكن أن يشير إلى الحكم الجماعى؛ (الأغلبية)، وسيادة التعددية (الجمهور)، أنظر بخصوص ما ذكرنا: ـ
أفلاطون، جمهورية أفلاطون، دراسة وترجمة: د. فؤاد زكرياء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974، ص 557.

(8) البوبليك، من پوبليك ـ Public وتعنى (الشعب)، وقد اتخذت كمصطلح شعبى للحكم فى جبال الأوراس خلال ثورة معاصرة على الاستعمار الفرنسى فى الجزائر 1916 ـ 1917 م، من تدخل للمؤرخ جيلبار ما ينبيه خلال بحث جاك بيرك فى ندوة باريس، مصدر سابق، ص 39.

ولكن هذا التأثير الطافى ـ وقد شهدنا أمثلة له كثيرة خلال الفترة الاستعمارية وحركة المقاومة ـ سوف يختفى ويندثر لما ندرك من كونه تأثيراً عارضاً، لأن الاتجاه كان قوياً ضده، وقد ازداد قوة منذ مرحلة التحرير الفعلية، ولأن التأثير كان ضعيفاً فقد جاء التعبير عن جمهورية الريف مثلاً بلفظة (الروبيبليك)، المحرفة عن اللفظة الغربية، ولكن من جهة أخرى لا تسجل انحرافاً أو انقطاعاً عن المفاهيم العربية على أية حال، هٰذا مع الاعتراف بأن التحريف كان يقع على الصياغات المصطلحية لصالح اللغات الشمالية.

المفهوم التنظيمى وجمهوريات عربية: ـ

على الرغم من تميز الجمهورية الطرابلسية حدثاً وكياناً وأثراً، فان من الباحثين الغربيين ربما مجاراة للرأى المسبق الذى اتخذته حكوماتهم حيالها من وجوب معارضتها ومقاومة وجودها وتجاهل تاريخها[9] كانوا يقفون منها الموقف السلبى غفلة أو تغافلاً، ومن المؤرخين العرب كثرة كاثرة فعلت فعلهم، ربما دون أن تدرى بما كان يمثله هذا الفعل من جناية. لقد كان مؤرخو الغرب حينما يتعاملون مع مادة الجمهورية الطرابلسية انما ينطلقون من تلك النظرات والرؤى الرسمية الضيقة، وهم ـ ما صحت تحليلاتنا ـ يَضِيقُ تفكيرهم مع ادعاء علميته بحدود لا يتجاوزها، فلا ينطلق الى أبعد مما ترسمه لهم مخططات حكوماتهم، والرأى عندى أن باحثاً موجَّها (ذا رسالة)، بمعنى ذا وظيفة محددة، باحث لا يرى أبعد من أنفه، محجور عليه ـ والوصاية قاسية ـ إن باحثاً كهذا لا يصلح

(9) قامت الحرب العالمية الأولى، وقام معها تحالفان يضرب أحدهما الآخر، أولهما كان يضم دول التحالف المركزى، وهى بريطانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا، وعندما قامت الثورة الروسية فى اكتوبر 1917 م، انسحبت روسيا من هذا التحالف وحلت محلها الولايات المتحدة الامريكية، أما تحالف دول الوسط المقابل، فقد كان يضم المانيا والنمسا وبلغاريا وتركيا، على أن الصراع الذى كان يدور فى أوربا وخارجها لم يكن يدور لخلاف حول قضايا الشعوب أو نصرتها حين تطالب بحرياتها، بل إن الصراع كانت تقوده مصالح مادية لغايات مادية.

للخوض فى قضايا التاريخ الانسانى، التى يطالبون لها بلزوم الحيدة وضرورة الموضوعية. ليسمح لى القارىء الكريم حين أرى أن هذا الاستطراد ضرورى، فقد اتخذت الأنظمة الأوربية من قضية الاستعمار موقفاً موحداً، ومن مواجهة الحركات الواعية مواقف أكثر وحدة وجِدَّة، فكان أبرز مثل لهذه السياسة المتصلة ما يتعلق بالتحالف المركزى على وجه الخصوص، لقد اتخذت حصاراً صارماً ضد كيان الجمهورية الطرابلسية، وحين يتحول هذا الحصار الى خطة عداء تهدف الى القضاء عليها بكل الوسائل، فانها بذلك المدى الابعد لا تنظر الا الى اطالة فترة سيطرتها على مقدرات الشعوب الضعيفة، وهذه النظرة كما نعلم مُتَخَلِّفَةٌ وقاصرة أثبت الزمان بطلانها.

واذا كانت الجمهورية الطرابلسية لا تقاس، ولا مجال أبداً لمقارنة أى من تلك التجارب الصغرى، أو التى لم يدرك بعض منها أيّاً من مفاهيم الجمهورية بها، بل اننا نعتقد أن هذه المفاهيم الجمهورية التى أُلصقت بعدد من أحوال التمرد الصغيرة، لم تقترن بهذا الاسم المحدد للجمهورية الا فى خيال بعض المؤرخين المتأخرين، حين يتلمسون آثار الماضى ليلصقوا صفات ما بحركات قد لا تمت احداها الى الأخرى بصلة، بل وليس فى استطاعتنا أن نحمِّل هذه التجارب فوق ما تحتمل[10].

واذا كنا نقارن بين الجمهوريتين المغاربيتين (الطرابلسية والريف)، فلأن التجربتين تجاوزتا حدَّ هذه المرحلة، وصار اثبات فعلها بعد اثبات النظرية أمراً واقعاً، أمر كذلك نستطيع التأكد منه والتأكيد عليه فى سياق بحثنا عن الحركية والفعلية فى الوطن العربى والاسلامى منذ أوائل هذا القرن، وفعلاً منذ أحداث الحرب العالمية الاولى التى تزامنت مع حَرَكَةِ جهاد الليبيين بخاصة والعَربية

(10) من هٰذه التحميلات المتعسفة ما نُسب من تحركٍ جمهوريّ لبعض أحداث التمرد الصغرى قصيرة المدى، لعل أبرز مثالين لها ما أُضفى من هالة على واقعة التمرد المعاصرة لثورة 1919 م فى قرية زفتى فى صعيد مصر، وما وقع بشكل مشابه فى منطقة (الرقة) بسوريا فى الفترة ذاتها. أنظر، جاك بيرك، مصدر سابق، ص 39 ـ 40.

عموماً على اختلاف فى الرؤى والأفعال، بل وتناقضٍ فى هذه الأخيرة يدعو الى العجب أحياناً أخرى[11].

إنَّ ما نريد التأكيد عليه ـ والحرب قائمة بين غربٍ وشرقٍ، شمالٍ وجنوبٍ، صليبٍ وهلالٍ ـ، أنَّ تحالفاً استراتيجياً كان يقوم بشكل واضح منذ أواخر 1914 م، وكان يهدف أولاً الى تصفية الدولة الاسلامية كوحدة، ثم عدم السماح بقيام أى نظام تتبين فى هيكليته أية ملامح لصورة الكيان المستقل القائم بذاته، الباحثِ عن عناصر قوته، ودواعى استمراريته، وسواء أكانت هذه العناصر إسلامية أم قومية، ودون إفاضة فى هذا الجانب من القضية، فإن ملامحَ توافقٍ وتناظرٍ كانت واضحة لدى دول الوفاق المركزية الأوربية، إزاء كل الحركات الوطنية صغيرتها وكبيرتها، فبدءاً بأولاها (الجمهورية الطرابلسية) 16 نوفمبر 1918 م، ومروراً بالمحاولات التمردية الأخرى، ووقوفاً عند (جمهورية الريف) بما حاولت أن نثبته للناس فى (أنوال)[12] وغير أنوال، ما بين سنتى 1920 ـ 1926 م، فقد كان هناك توافق بل اتفاق سياسى أكيد، كانت قد وضعت أسسه على مستوى دولى ورسمت له أبعاده ومخططاته، ليضع تلك النهايات الدامية والحزينة لكل محاولة جادة على مستوى الساحة الكبرى. وتعترف الباحثة ليزا أندرسون (بصعوبة اقامة جمهورية ثابتة، واستمرارها فى وجه معارضة أوربا[13])، وفى رأى الباحثة أن (أجل الجمهورية كان قصيراً على

(11) جاك بيرك، المد الوطنى والديمقراطية القاعدية فى الأمة العربية 1915 ـ 1925 م، بحث ألقى فى ندوة باريس، مصدر سابق، ص 39 ـ 40.

(12) فى أنوال القلعة المغربية الشهيرة حاصرت قوات الثورة الريفية بقيادة المجاهد المغربى محمد عبد الكريم الخطابى قواتٍ اسبانية معتبرة وقتلت منها 16000 ستة عشر ألف جندى وعدداً من الجنرالات والضباط لا يستهان بهم، فكانت أعظم معركة شهدتها الساحة المغاربية فى العهد المعاصر وكان تاريخها فى 17 من شهر ناصر (يوليو) 1921.

(13) ليزا أندرسون، جمهورية طرابلس 1918 ـ 1922 م، دراسات الشرق الأوسط فى كلية الدراسات الشرقية والافريقية، لندن، بالاشتراك مع جمعية الدراسات الليبية بتاريخ 13 ـ 15 يولية 1981 م، ترجمة محمد رمضان المصرى، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، ص 1، (ولعل الجمعية المذكورة) هى مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.

نقيض السنوسية التى أيد البريطانيون زعيمها لسبب لين عريكته، وأما الجمهورية، فلم يكن لديها كفيل دولى يتدخل لصالحها مع ايطاليا[14])، ولأن التحالف الأوربى عاد الى تركيبته بعد أن وضعت الحرب الثانية أوزارها، تلك التركيبة التى اختلت شيئاً ما خلال الحرب، وبعودة تلك التركيبة (كوفئت السنوسية بالزعامة فى ليبيا...[15]).

واذا كانت المقارنة بين تجربة الجمهورية الطرابلسية، وثورة عام 1919 م التى قادها سعد زغلول بعيدة وضعيفة فإن ذلك كان لأسباب منها: ـ

1 ـ ضعف العلاقة، وعدم اهتمام القيادة المصرية فى مصر بما يحدث فى غير مصر من بلاد العرب، ونعنى بذلك انغلاق ثورة 1919 م على نفسها لأن سعد زغلول لم يكن يؤمن بجدوى الوحدة، ومن نقاط عدة يراها الباحث محمد أحمد أنيس فى أسباب ضعف العلاقة، وخصوصاً بين ثورة 1919 م وجمهورية الريف «أن قيادة الثورة المصرية لم تكن تؤمن بالتضامن بين الثورات العربية وكان سعد زغلول زعيم الحركة الوطنية المصرية يردد «صفر + صفر = صفر، أى أن مصر + البلدان العربية = صفر»، وان هذه الثورة كانت تكتفى بتحديد الوطنية المصرية، وترفض رفضاً باتاً مفهوم التضامن العربى أو الاسلامى[16]. وقد مثل محمد أنيس لهذه العقلية بكتاب عودة الروح لتوفيق الحكيم قائلاً: «لقد كانت هذه الثورة لا تُدخل ضمن اطارها مفهوم الجمهورية، لقد كانت بالأحرى تكافح من أجل الاستقلال فى اطار الملكية[17]»، هذا وكما أشرنا الى المقارنة الممكنة بين الجمهوريتين الرائدتين (الطرابلسية والريف) فلأن أول شبه

(14) نفس المصدر والصفحة.

(15) نفس المصدر، ص 3.

(16) محمد أحمد أنيس، بحث شارك به فى ندوة باريس تحت عنوان (عبد الكريم ومصر)، مصدر سابق، ص 319، (لعل رأى سعدٍ كان منطلقاً من إيمانه بأن حالات الضعف المتناثرة لا تخلق حالة وحدة مؤثرة).

(17) المصدر نفسه والصفحة، وان كنا نجد أن توفيق الحكيم أو غيره من كتاب المرحلة لا يمثلون سوى قطاع صغير جداً من الشعب الذى يكتبون له ومن خلاله.

بينهما واضح كان قد تمثل فى الأساس الشعبى لحركة عرفت بالجهاد فيهما، وان هذه الحركة العفوية القاعدية هى التى كانت تفرض وجودها وبخاصة فى المنطقة المغاربية، وعلى الرغم من معضلة القيادة على مستوى هذا النطاق أيضاً، ومشاكل الميراث الاجتماعى والسياسى الثقيل الذى فرض نفسه على الأحداث، مؤثراً على ايجاد قيادات وراثية، فان معارك الجهاد كانت تفرز قادة لم يكن لهم أى نصيب من ذلك الميراث، وبطبيعة الحال كان لهذا النمط القيادى أثره الايجابى فى حركة الجهاد، وقد نجد بعملية احصائية بسيطة أن مساهمات هذا النمط الأخير (العفوى) مساهمات ثقيلة فى ميزان الحركة سيبرزها البحث الموضوعى لا ريب.

وان الشبه الآخر عائد الى طبيعة التركيبة الاجتماعية الأكثر تجانساً فى النطاق المغاربى والتى عرفت المجالس القبلية الشعبية كميراثٍ اجتماعىٍّ تواصل بفعل الثقافة الشعبية.

واذا كانت (الجمهورية الطرابلسية) مثالاً وقدوة، كونها أول جمهورية عرفها الوطن العربى على الأقل وأنها بأنظمتها الرائدة كانت جديرة بأن توضع فى مرتبة التأثير والنشر نقول بذلك دون أن نغفل حركة الفعل والاستجابة، وسنجد أن جمهورية الريف أقرب اليها تأثراً بها[18]، وبما سبقها من حركات الفعل التاريخية المغاربية أو المشرقية، واذا كنا نعيد الاستجابة الفعلية ونعدها للشعب ومن الشعب، لعناصره وفئاته البسيطة، لقاعدته العريضة، ولقيادته الصغرى (النخبة)، بعد أن كان الاحساس بضرورة الثورة قد اختمر لديها على أى من مستوياته، فاننا لا نجد مفهوم الجمهورية واضحاً على مستوى قيادة الريف الكبرى، وعلى الرغم من أن المجال هنا لا يتسع لتجذير المسألة، فان هناك

(18) من مداخلة لآندريه نوشى، فى مؤتمر باريس، مصدر سابق، ص 43، يشير فيها الى وثائق مثيرة وجدها فى الأرشيف الإيطالى (آرتوهيستوريكو - Arto Historico) بالعربية، كانت تصل المناطق المغربية الفرنسية من 1915 - 1918 م عن طريق أسبانيا والريف، ويعنى بها الرجل المنشورات الدعائية لحركة الجهاد فى ليبيا، وللحثّ على مثلها فى المناطق المغاربية الأخرى.

أسباباً وعوامل موضوعية تساهم بالاضافة الى ما قرره محمد عبد الكريم الخطابى نفسُه بشأن مستقبل نظامه فى الريف، منها: -

1 - الأصول التاريخية الاجتماعية.

2 - لم يكن المفهوم لدى المواطن الثائر متحدراً عن رؤية علمية محددة (بمعنى قادرة على التعرف على أصول هذا النظام مدركة لجدواه الاجتماعية)، بل ان الأمر - فى رأينا - كان عن تبعية مطلقة متأتية عن خليط من مشاعر تقديس القيادة، دينية واجتماعية، ترى في الأمير خلاصها من الكَفَرة، فى نفس الوقت الذى تبينت فيه جهود عناصر شعبية فعالة، ولكنها - القلة النخبة ربما - كانت وراء العمل الثورى المسلح، وكما أسلفنا، كانت مضطرة الى استيراد مصطلحها المعبر عن (السيبا) من وراء البحر، فكان زرعها لمصطلح (الروبيبليك - الجمهورية) فى الريف والتى لا نقول إنَّ الأمير محمد عبدالكريم الخطابى كان يستغلها، ولكنه كان يستعملها لفائدة عمل استقلالى عن المستعمر فى الريف، ولعل هذا الرأى الأخير يتضح بما فيه الكفاية حين نعرض لما جاء فى مقابلتَيْ صحفيَّيْن أميركيين هما: -

1 - سكوت مور من صحيفة شيكاغو ديللى نيوز.

2 - فنسانت شين من صحيفة شيكاغو تريبيون.

قابل أولهما فى شهر التمور (أكتوبر) 1924 م وقابله الثانى فى شهر الربيع (مارس) 1925 م والمقابلتان تشككان فى وجود صيغة (دولة الجمهورية الريفية)، على أن المقابلة الثانية منهما جاء فيها ما يثبت هذا الرأى حين صرح الأمير محمدعبدالكريم قائلاً: «إن حكومته الحالية تقوم على اَلمَلَكِيَّةِ المطلقة، وانه يتصور الانتقال نحو اَلمَلَكِيَّة الدستورية خلال جيل»[19]، ويضيف «ان عبارة

(19) دانيال ريفييه، القيادة الفرنسية وردود فعلها تجاه الحركة الريفية 1924 - 1926 م، بحث ساهم به فى مؤتمر باريس، مصدر سابق، ص 85.
يؤيد هذا ما جاء لدى: - محمد العلمى فى كتابه: زعيم الريف محمد عبد الكريم الخطابى ط 2، المنشورات الاطلسية، الدار البيضاء، 1969 م، ص 99، حين قرر نقلاً عن علال الفاسى فى كتابه: الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى «أن تأسيس

جمهورية الريف خطأ كبير فى التسمية، لن تكون أبداً لنا جمهورية، ولم نتصورها أبداً، إنه الاسم الذى نستعمله لتسمية مجموعات كلية صغيرة أصغر حتى من القبائل تماماً من «الخونتاس- Juntas» الاسبانية»[20]. وواضح من هذا أن الاعلان عن الاسم كان فعلياً، وان تكن الصلة بين التسمية والمسمى ضعيفة على الأقل لدى القيادة، وهنا يمكننا طرح السؤال الذى لن نجد له اجابة وهو: فيما لو قدر لجمهورية الريف أن تعمر ويطول عهدها، فهل كان يقدر له أن يتحول بها (أى عبد الكريم) الى نظام ملكى مطلق؟، أم أن التطور كان سيجعل الاحداث تسوق بعضها الى صور أكثر تقدمية؟

الجمهورية الريفية لم يكن عدولاً عن فكرة الملكية فى نظر من قاموا بها من زعماء الريف».

(20) خونتاس Juntas فى الإسبانية تعنى التجمع التعاونى المتصل (دون انقطاع)، وقريباً من ذلك المجلس المعاون على المستويات الدنيا من الإدارة، كمجلس البلدية الاستشارى.

2 - الجمهورية الطرابلسية وبناء الكيان

الجمهورية من التجريد إلى الواقع: -

حفل تاريخ الجهاد الليبى ضد الغزو الايطالى بشتى المظاهر والظواهر التى تمثل سبقاً فريداً فى دنيا الشرق العربى والاسلامى، فالى جانب حركة المقاومة العنيفة التى شهدتها الساحة الليبية، والى جانب ما افرزته مراحلها من فنون الحرب والقيادة، فان مجالات التنظيم السياسى والادارى والعسكرى سجلت أيضاً ظواهر متقدمة حق لنا ان نفخر بها وبمن حقق تلك الانتصارات فى شتى المجالات، كما أوجب علينا ذلك دراستها والغوص فى أعماقها.

ولعل من أبرز الظواهر التى شهدتها البلاد ظاهرة تشكيل كيان الجمهورية الطرابلسية (نوفمبر 1918).

على ان أول تساؤل ربما يخطر بالبال هو المتعلق بالفكرة نظرياً، من أين جاءت؟ ومن أوحى بها بحيث جاءت مثلاً لم يسبق اليه فى المنطقة؟

للاجابة عن هذا التساؤل استعرضنا ما وصلنا اليه من كتابات - على قلتها - ومن وثائق وروايات حاولنا ان نتبين وجه الحقيقة بما امكن من موضوعية وحرص، فالقضية من بين قضايا تاريخنا المعاصر لا تزال فى حاجة الى الكثير من الدرس والتمحيص، ولأن الآراء اختلفت حول مصدر الفكرة حتى إن بعض الباحثين نسبوها لشخصيات غير ليبية على ان آخرين ترجح لديهم غير ذلك، وسنعرض فى هذه العجالة لهذه الآراء مع زيادة تأكيد ان الموضوع بحاجة الى وقفات متأنية، فقد جاء فى (جهاد الأبطال) ان الأمير عثمان فؤاد المقيم بمصراتة

تناهى اليه خبر سقوط تركيا الذى اسره له البارون (فريد فون توندورت) القائم بادارة اللاسلكى، قرر بعد تفكير ان يسافر الى تركيا هو ومن معه من الضباط الأتراك تنفيذاً لمعاهدة (مودروس) وتوجه نحو موقع بحرى يدعى (الرومية) شرقى قصر احمد بعشرة كيلو مترات، ويذكر الشيخ الزاوى ان الغواصة كانت قد جلبت عبد القادر الغنای وكان يصحب الأمير عثمان الضابط التركى عبد الرحمن نافذ كما صحبه مودعا كل من عبد الرحمن عزام وسليمان البارونى، وذكر الشيخ الزاوى هنا ان عزاما لم يكن يعلم بالأمر فاستفسر من ربان الغواصة فصرح له بما وقع، وهنا سأله عزام عما تعتزمه المانيا فرد بانها ستقاتل حتى النهاية، فقال عزام: ونحن يمكننا تشكيل حكومة عربية فى طرابلس لمداومة الحرب ضد ايطاليا بشرط ان تتعهدوا بامدادنا بالمال والسلاح وعلى الا يسافر الأمير فى هذا الدور لنستعين بوجوده فى تشكيل الحكومة فوافق ربان الغواصة وتقرر بينهما إلغاء سفر الأمير.

كما أورد الشيخ الزاوى سبباً آخر لالغاء سفر الأمير هو ان البارون (فريد فون توندورت) لم يؤمر بالسفر ولذلك فانه تدخل لدى ربان الباخرة وسعى دون سفر الأمير او غيره، واعتذرت الغواصة للأمير بانها لن تنقل احداً لخطورة المسالك وشدة مراقبة أساطيل العدو على ان تعود الغواصة ثانية فى أقرب فرصة[21].

وقد ذكر نفس المرجع ان الأمير لدى رجوعه ولقائه بالزعماء فى مصراتة صرح للجميع بحقيقة الأمر، وهناك (ظهرت فكرة الجمهورية وطرحت على بساط البحث واشترك فيها رمضان بك وعزام بك والبارونى باشا وسمو الأمير عثمان ومختار بك كعبار وعرض على الأمير ان يكون رئيساً لها فوافق على فكرة الجمهورية ولم يوافق على الرئاسة، لأنه كان متأثراً بتسليم تركية وببقائه فى

(21) الطاهر الزاوى: جهاد **الأبطال** طرابلس الغرب، ط 3، ليبيا، دار الفتح، 1393 هـ - 1973 م، ص - م 321 - 322.

طرابلس واتفق الكل على تأسيس الجمهورية وأرسل رمضان الى عبد النبى للتشاور فى الأمر)[22].

كما أشار الشيخ الطاهر الى ان الجميع تحولوا الى مسلاتة حيث دعوا الى اجتماع يعقده الزعماء هناك[23]، ثم اشار أيضاً الى ان عثمان فؤاد خاطب الحاضرين قائلاً: إن عبد الرحمن عزام سيخطب فيهم بالنيابة عنه وانه سيتكلم بلسانه ورجاهم ان يوافقوا على ما سيطلبه منهم الخ[24]... وقد خطبهم فعلاً وكان من بين ما اثاره هو طرح فكرة اقامة حكومة وطنية وقد وافق الجميع على اقتراحه، وسميت الجمهورية الطرابلسية، وقد اسفرت انتخابات اعضاء الجمهورية عن اختيار أربعة أعضاء هم: رمضان السويحلى، وسليمان البارونى، وأحمد المريض وعبد النبى بالخير[25].

وهكذا وان لم يقطع الشيخ الزاوى بان عزاماً هو صاحب الفكرة، فان المشتركين فى الفكرة حسب قوله هم: السويحلى وعزام والبارونى ومختار كعبار والأمير عثمان، واتفق هؤلاء على تشكيل حكومة الجمهورية، وأرسل السويحلى الى عبد النبى للاستشارة وقد كان عبد النبى آنذاك بورفلة، على انه لم يشر الى مسألة استشارة احمد المريض الذى كان مقيماً آنذاك بترهونة.

وفى موضع آخر من كتابه المذكور يشير الى تكوين الجمهورية وعناصرها المؤسسة قائلاً: «وكيفما قدرت اسبابها وظروفها فقد لاقت نجاحاً باهراً بفضل ما بذل لأجلها من جهد من عناصر وطنية وغير وطنية. وكان للاخوة الاسلامية الفضل الأول فى جمع ثلاثة عناصر: تركى ومصرى وطرابلسى وطنى. وكان كل منها دعامة فى اقامة هذه الجمهورية مع تفاوت بين هذه العناصر فى السعى لتكوينها ومدها بأسباب الحياة والصلاح»[62].

(22) نفس المصدر، ص 322.
(23) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(24) نفس المصدر، ص 322 - 323.
(25) نفس المصدر، ص 324.
(26) نفس المصدر، ص 321.

على ان من الكتّاب[27] من ينسب الفكرة الى دعوة تجديدية لما كانت المانيا وتركيا خلال فترة الحرب العالمية الأولى قد اوحتا به الى بعض من احرار المغرب بشأن وجوب الثورة على فرنسا فى البلاد المغربية تمهيداً لتشكيل حكومة تسمى (جمهورية شمال افريقيا)، وكان من شأن تلك المساعى أن قامت ثورة الحامة فى الجنوب التونسى التى وان لم يكتب لها النجاح، الا انها أتت فى رأينا بنتائج لمصلحة المانيا وتركيا لأن فرنسا اضطرت الى تجنيد (40) اربعين الف مقاتل للحفاظ على هدوء المنطقة المتاخمة لحدود طرابلس، مع ما يرتبط بذلك من تأمين خطوط مواصلات وارتباطات لتأمين الحدود مما اثقل كاهل فرنسا وخفف الضغط على المانيا من جهة فرنسا، على اننا مع معرفتنا بوقائع ثورة الجنوب التونسى منذ 1915 وارتباطها بحركة الثورة الجهادية فى طرابلس وتأثير حركة الجهاد الليبية على تلك الثورة فاننا لا نجد سنداً سوى ما ذكره الاستاذ أمين سعيد فى (كتابه)[28] عن جمهورية شمال افريقيا وهو ما اعتمده الشيخ الطاهر فى كتابه (جهاد الأبطال)[29] وما أشار اليه الاستاذ المرزوقى فى كتابه (دماء على الحدود)[30] أخذا عن الشيخ الزاوى.

ولعل من الأهمية بمكان ان يتم التعرف على صحة ما قيل عن اعتراف الدولتين تركيا والنمسا بعد الاعتراف الالمانى بها ثم تسجيل هذا الاعتراف (بمقر المحكمة الدولية بلاهاى)[31]؛ فما بين ايدينا من قرائن لا ينجدنا بشيء فى هذا السبيل، ولكن حرصنا على تحقيق ما يصل الينا من قول، يدعونا الى مناقشة هذه الاخبارية وواقع الحدث مرتبطاً بالزمان؛ فاذا كانت الدول الثلاث المشار اليها يخيم عليها آنذاك نظام ملكى امبراطورى، فهل من منطق الأمور ان تسعى تلك الأنظمة الى اقامة نظام جمهورى يضم بلاد المغرب كلها؟

(27) أمين سعيد، **الدولة العربية الثامنة**، ج 3، القاهرة، 1938 م، ص 80.
(28) نفس المصدر، ص 78 ـ 80.
(29) الطاهر الزاوى؛ المصدر السابق، ص 315.
(30) محمد المرزوقى: **دماء على الحدود**؛ ليبيا ـ تونس؛ الدار العربية للكتاب، 1395 هـ ـ 1975، ص 37 ـ 47.
(31) أمين سعيد، المصدر السابق؛ نفس الصفحة.

هذا عن فترة سنة 1915 التى شهدت ثورة الجنوب التونسى، واذا كانت الأنظمة الثلاثية قد استمرت على ما هى عليه حتى 11 من نوفمبر 1918، وظلت الى ما بعد ذلك، لا نستثنى سوى المانيا التى تم اعلان الجمهورية فيها اعتباراً من ذلك التاريخ[32] مضافاً اليه ان الدولة العثمانية الممثلة لاحدى ركائز الحلف الثلاثى لدول الوسط خلال احداث الحرب العالمية الأولى، ومع تقديرنا للدور الهام الذى نهضت به قبل وخلال تلك الحرب 1914 ـ 1918، والمساعدات المادية التى ساهمت بها خلال تلك المرحلة، فان اسهامها البشرى كان محدوداً تمثل فى ارسالها مجموعة صغيرة من الضباط أسهموا الى جانب الضباط الألمان وخبراء السلاح والبريد فى إرساء دعائم بعض الصناعات الحربية وتأمين المواصلات اللاسلكية، الا ان تلك المجهودات كانت تقترن بسوء الادارة من قبل اولئك الضباط العثمانيين، ومن أبرز أولئك كان اسحاق باشا (مارس 1918) الذى قدم مع الأمير عثمان فؤاد بدلاً لنورى باشا وممثلاً للدولة العثمانية فى طرابلس وقائداً عاماً للجيوش الأفريقية، أى ان ذلك كان قبل انتهاء احداث الحرب الأولى وحتى قبل توقيع اتفاقية هدنة (مودروس). وما نريد الاشارة اليه هنا هو ان اسحاق باشا الذى تجاوز صلاحياته، كان يمارس الحكم بتعسف بالغ، ويتصرف دون روية، كما كانت احكامه تتسم بعدم الشرعية فى اغلب الأحيان مما أقام بينه وبين أغلب زعامات البلاد حواجز كثيفة من انعدام الثقة التى كادت أن تتحول الى صراع دموى، كما انه ـ مع ضباط اتراك آخرين موالين له ـ كان يوقع الضرر بحركة الجهاد خلال تلك الفترة من الحرب الممتدة حتى أواخر سنة 1918، اذ لم يرتفع اغلبهم الى مستوى مسؤولياتهم، ففى تلك الفترة القصيرة بذروا بذور الفتنة، ونفروا المجاهدين عن الجهاد، وقصص صلم[33] آذان المشبوه فيهم وقطع أصابع ايديهم، ثم اعدام من يعثر عليه فى

(32) موريس كروزوية: **العهد المعاصر**، تعريب يوسف داغر وفريد داغر، بيروت؛ منشورات عويدات، يناير 1970، ص 870.
(33) الزاوى: المصدر السابق، 335، أنظر أيضاً سليمان الباروني: صفحات خالدة من الجهاد، ج 1 من الكتاب الثانى، بيروت لبنان، 1381 هـ 1962 م، ص 307، أنظر أيضاً: محمود الشنيطى؛ قضية ليبيا، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1951.

معسكر المجاهدين بأذن مصلومة أو اصبع مبتورة، تدل دلالة واضحة على سوء تدبير الرجل وجهله بأبسط قواعد الشرع والانسانية، ولعل اعدامه (40)[34] اربعين مواطناً فى مدى أسابيع محدودة، ثم اتباعه اساليب غريبة فى قبول بعض المتطوعين وطرد آخرين من مناطق معينة، يكفى لادانة الرجل الذى ينعته بعض كتابنا بالاخلاص والحزم والعزم، اما عثمان فؤاد فليس سوى رجل من اولئك ارسلته الدولة العثمانية، وهو الأمير العديم الخبرة يسبق الى اى غنم، وعندما اصبح الغرم قريباً تولى، بل وحاول ايقاف تعاون الضباط الأتراك، اذ وجه منشوراً[35] اليهم جميعاً بوجوب التخلى عن اى نشاط عسكرى ضد ايطاليا ووجوب مغادرة البلاد الليبية الى تركيا، إذ ان وضعهم - حسب قوله - مختلف عن الضباط المحليين (الوطنيين الليبيين) الخ... وبرغم ان الدولة العثمانية تستسلم هناك فى استانبول بل وتتقبل دولة الخلافة الاحتلال ويقيم السلطان بين ظهرانى جيوش الحلفاء المحتلة، فان عثمان فؤاد يتخلى عن اية مساهمة، فى الوقت الذى كان بامكانه التشبث حتى النهاية بالجهد المتبقى فى ليبيا برغم سقوط الدولة الأم، فهل كان الأمير ابن عم الخليفة حفيد السلاطين يقوى وهُوَ هُوَ على تبنى فكرة الجمهورية وليداً حياً يخلف دولة الخلافة المنهارة؟

أو لم يقتصر جهده خلال اقامته القصيرة بعد هدنة 1918 فى مسلاتة وترهونة وورفلة ثم غريان قبل مغادرته البلاد الى تونس، على مساعيه المحمودة من قبل ايطاليا؟ التى سنعالجها فى موضع لاحق من هذا المقال هى الى جانب مساعى (أكرم بك)[36] لا تخرج عن تحقيق مطالب ايطالية فرضت على حكومة (الآستانة)، كما ان رسالته الهاتفية الى اعضاء الجمهورية والاهالى ليس فيها مع

(34) محمد فؤاد شكرى؛ **السنوسية دين ودولة**، القاهرة، دار الفكر العربى، 1948، ص 75.

(35) سليمان الباروني: المصدر السابق، ص 307، أيضاً نسخة من نفس الرسالة، بملف عبد النبى بالخير، مكتبة مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، قسم الوثائق، طرابلس.

(36) أمين سعيد، المصدر السابق، ص 327.

طولها ما يشير الى أدنى اعتراف بتلك الجمهورية. اما عن المدعو عزام فاننا نبحث عن وجه للتقدمية فى افكاره[37] فلا نعثر عليه؛ اذ بعد فترة قصيرة من عمر الجمهورية الطرابلسية، اصبح الرجل يطالب خلال فترة المفاوضات مع الحكومة الايطالية منذ بداية 1919 بتشكيل امارة يرأسها أمير مسلم[38]، وَإِلَّا يكون الرجل مشبوهاً فانما قدم البلاد لغرض فى نفسه أو فى نفوس الآخرين الذين كانوا وراءه، فما هو التقدم الذى تحرزه البلاد بتحويلها عن النظام الجمهورى الى نظام (اميرى)، كان مِنْ وراء المطالبة به خلال تلك المفاوضات، وظل الرجل يحاول تنصيب ذلك الأمير خلال فترة نشاطه لصيقاً برمضان السويحلى ثم بأحمد المريض حتى عام 1923، حيث كان سفره مع ادريس السنوسى الى مصر مع انه كان موفداً من طرف هيئة الاصلاح المركزية لتقديم بيعة الهيئة له، كما اننا لا نجد فى مقالاته التى حررها على صفحات جريدة اللواء - لسان حال حزب الاصلاح فيما بعد - ما يفصح عن أية دعوة من هذا النوع الى جمهورية أو ما أشبه، على اننا نجد من بين الكتّاب - ولا اقول المفكرين - من يستكثر ظهور فكرة كفكرة الجمهورية فى بلاد كليبيا، ربما لاعتبارها اكثر تخلفاً وانها بلاد صحراوية خالية، انطلاقاً من ذلك المفهوم الاستعمارى الخاطىء بل والمغرض الذى يتجاهل كل ما هو ايجابى على هذه الأرض، ومن ذلك الخلط الفاضح الذى يجعل من البلاد الليبية أرضاً بلا شعب، وان وجد هذا الشعب فهو المتخلف المتسم بسيادة الأمية والجهل بين أبنائه، وفى الواقع - والأمور نسبية - نجد الأمية فى بلاد عربية كثيرة ومنها مصر مثلاً ارفع وأكبر منها فى ليبيا، مع ملاحظة انه ينبغى تأكيد حقيقة ندركها نحن هنا على هذه الأرض، وهو ان المدارس القرآنية كانت منتشرة انتشاراً هائلاً، وان القرى والأرياف وحتى النجوع لم تكن لتخلو من معلمين يعلمون القرآن ويرشدون الناس، وقدسية القرآن والعلم كانت فوق كل مقدس، كما ان الشعر الشعبى كان لا يماثله دور نظائره فى أية بلاد عربية باعتراف الكثيرين من

(37) سليمان الباروني المصدر السابق، ص 308.

(38) شكرى المرجع السابق، ص 242.

المفكرين من امثال المرحوم الاستاذ محمد فريد ابو حديد الذى اتيحت له فرصة الاطلاع عن كثب، فقد اشاد به فى حديث له بطرابلس واعتبره ظاهرة ادبية فكرية لا مثيل لها فى بلاد العرب. وانا هنا لا احط من قيمة ما يحدث فى البلاد الأخرى، ولكننى أحاول الاشارة فقط الى بعض الظواهر الفكرية ذات الفعل التأثيرى، ويبقى بعد ذلك ان يهتم غيرى بدراسة العلاقات الفاعلة فى الزمان والمكان.

وعلى كل حال ـ وكما اسلفنا ـ فان التهمة تنتفى اصلاً وان العاقل لا يستغرب بروز افكار تبدو متقدمة فى بيئة كهذه أو تلك مع ادراك أى واع بأن فكرة كفكرة الجمهورية لن تكون أغرب من سيادة حالة جهاد لا مثيل لها خلال واحد وعشرين عاماً بلا انقطاع، ومن بين هؤلاء الكتّاب الذين عنوا بتاريخ الجهاد الليبى الدكتور محمد فؤاد شكرى الذى حاول تأكيد أن الجمهورية كانت من بنات أفكار عزام الذى اقنع بها الرجلين عثمان فؤاد ورمضان السويحلى قبل ان يتم استدعاء البارونى من غريان ويتعرف على الاقتراح وعلى عزم عثمان فؤاد على السفر الى تركيا بصورة عاجلة، ثم ما تم من محاولة سفره وفشلها الخ[39]، على ان الأستاذ محمد مسعود فشيكة يشير فى **(كتابه عن السويحلى)**[40] الى تغيب البارونى عن مصراتة وان الأمير عثمان استدعاه بعد ان سلم مفتاح الخزينة المالية لرمضان دون ان يفصح له عن شيء بشأن البرقية التى تسلمها والتى تفيد بهزيمة الدولة العثمانية وقرب سقوطها، وعندما تقدم البارونى أسر له بالنبأ، ثم ان الاستاذ فشيكة أورد نص الحوار التاريخى الذى جرى بين البارونى والسويحلى الذى نقله عن الاستاذ ابى القاسم البارونى[41] الذى سنعرض له بشيء من الدرس فى موضوع لاحق من هذا البحث.

(39) محمد فؤاد شكرى المرجع السابق، ص 334.

(40) محمد مسعود فشيكة: **رمضان السويحلى**؛ طرابلس ـ ليبيا؛ دار الفرجانى؛ 1394 هـ 1974، ص 188.

(41) أبو القاسم يحيى البارونى، **حياة سليمان باشا البارونى زعيم المجاهدين الطرابلسيين**، ط 2، القاهرة: 1367 هـ ـ 1948 م، ص 90.

أما الأمير شكيب ارسلان، فبعد ان أتى على قصة عجز الدولة العثمانية وهزيمتها وانتهاء الحرب وسفر الأمير عثمان فؤاد قال: «ولكن بقيت الحكومة فى طرابلس على ما كانت عليه وهى (حكومة حلفية) مركزها مصراتة وعبد الرحمن عزام هو الذى يدير أمورها ويرتق فتوقها ويؤلف بين الجهات المتنافرة حتى يتسنى لهم بالاتحاد حفظ استقلالهم» ويستمر الأمير فى السرد، ملحقاً بالسابق قصة غزو رمضان لورفلة ومقتله بها، وان ذلك راجع الى غلبة شِرَّة رمضان على نفسه الخ، وما يفهم منه ان الرجل يخلط بين فترتى الجمهورية الطرابلسية وحكومة القطر الطرابلسى خلطاً واضحاً فى السرد مع ايجاز شديد مخل[42].

وهنا لا تغيب عن بالنا اشارة الاستاذ فشيكة الى رأيه بشأن فكرة الجمهورية بقوله: «وفكرة جعل مجلس الادارة من أربعة أعضاء لا نستبعد اقتباسها من كيفية نشوء الثورة الفرنسية التى لم يكن تاريخها مجهولاً لدى مثقفى ابناء طرابلس فى معاهد الترك المدنية والعسكرية إلا انها معزوة لشخصية سياسية غير طرابلسية كما جاء فى بعض التواريخ المتحيزة»[43]...

ولعل مما يؤيد ما ذهب اليه الاستاذ محمد فشيكة من ان فكرة الجمهورية لم تكن مجهولة، كتاب صدر خلال المرحلة المتقدمة من الجهاد للصحفى جورج ريمون الذى زار ليبيا فى الفترة ما بين 17 من يناير 1912 و20 من مايو من نفس السنة ونشر كتابه سنة 1913[44]، وما يهمنا هنا هو انه خلال تلك الزيارة قابل العديد من زعماء وقادة الجهاد من امثال الشيخ سليمان البارونى والشيخ محمد فرحات، وفى احد لقاءاته مع الشيخ محمد فرحات دار حوار رائع

(42) لوثروب ستودارد الأمريكى، **حاضر العالم الاسلامى**، ت: عجاج نويهض، مع تعليقات الأمير شكيب ارسلان، مجلد 1 ـ ج 1، القاهرة؛ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 4، 1394 هـ 1973 م، ص 150 ـ 151.

(43) فشيكة، المرجع السابق، هامش ص 195.

(44) جورج ريمون؛ **من داخل معسكرات الجهاد فى ليبيا**، ترجمة الدكتور محمد عبد الكريم الوافى، طرابلس ـ ليبيا: دار الفرجانى، 1392، ص 136.

(47) سليمان البارونى، مصدر سابق، 458، وتؤكد زعيمة أن القصد الأخير وهو الوفاء للخلافة والبيعة الشرعية لها كانا أخطر المقصدين.

بين الرجلين جورج ريمون والشيخ محمد فرحات الزاوى يدل دلالة واضحة على انه الى جانب الوف المناضلين حاملى الحراب والسيوف والبنادق العتيقة كان يوجد رجال ذوو فكر ثاقب، وثقافة عالية عميقة، فالشيخ فرحات يرجو الصحفى بألا يسوق عن جهاد الليبيين عبارات (الحرب المقدسة) التى يمكن ان يفسرها البعض فى فرنسا بالحرب الدينية المتعصبة، وانما ـ ولنتأمل هذا التوجيه ـ: «قل عنا ان اردت، اننا مواطنون يرتدون أسمالاً مهترئة ممزقة ويمشون حفاة الأقدام تماماً كما كان يفعل جنود الثورة الفرنسية، ولكن لا تقل اننا متعصبون للدين»[45]. واردف الشيخ فرحات محذراً الحكومة التركية من فكرة تخليها عنهم خلال حرب 1911 ـ 1912، قائلاً: «اذا عنّ للحكومة التركية ان تتخلى عنا فى هذه الظروف، فاننا سنعلن من جانبنا انه لم تعد لها اية حقوق فى بلادنا ليبيا، ولسوف نعلن الجمهورية الطرابلسية، وسترى اننا سنثبت للعالم اجمع اننا بقوتنا وحدها لقادرون على الذود عن حمى أرضنا، كما كانت تفعل بلادك فرنسا كلما تعرضت لغزو خارجى»[46]...

فاذا كان الشيخ فرحات يتحدث فى ذلك الوقت المبكر من عام 1912 بأمل عن (جمهورية طرابلسية) ويستخدم ليبيا للدلالة على الوطن الطرابلسى، كما يتحدث بتفهم واع عن احداث الثورة الفرنسية ومفاهيم الشعب الفرنسى التى سادت خلال الثورة، اذا كان الشيخ فرحات احد زعيمين قادا حركة المقاومة الوطنية الى جانب الضباط الأتراك فى مرحلتها الأولى، فان من الطبيعى ـ والحالة هذه ـ ان تعرف الفكرة لدى الآخرين، وان تعرف لدى زميله وصديقه البارونى على وجه الخصوص، وإن كانت الجمهورية تترجح لدى البارونى بقيادة جماعية، لارتباطه العقيدى المفرط بالجامعة الإسلامية، والخلافة الإسلامية، وكما تفيد كريمته زعيمة كان رفضه لرئاسة جمهورية وطنية عائداً إلى ما كان يمنعه من «الوفاء للحكومة التي غُلبت على أمرها في آخر الأمر، وهى تركيا كذا أمر البيعة الشرعية للخليفة والثبات على قوانينها».

(45) المصدر نفسه، ص 136.

(46) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

الحوار التاريخى:

والى هنا حيث نبلغ مرحلة نقاش نستعرض فيها الحوار التاريخى الذى وعدنا بدراسته وهو الحوار الذى جرى بين الزعيمين رمضان السويحلى وسليمان البارونى، اثر فراغ البارونى من رحلة وداع الأمير عثمان فؤاد لدى اعتزامه مغادرة البلاد، التى أشرنا اليها فى أكثر من موضع يهمنا اثبات النص الأصلى أو على الأقل الأقدم ومقارنته بالنصوص الأخرى المتأخرة عنه، وذلك لما وقع فيه الباحثون والكتاب من خطأ وخلط، وقد كنت أرى واعتمد النص المثبت فى كتاب البارونى لأبى القاسم البارونى[45] قبل اكتشافى ان النص منقول عن المصدر الأقدم لأمين سعيد (الدولة العربية المتحدة)[46]..

ثم ان الاستاذ محمد مسعود فشيكة قام بنقل النص عن ابى القاسم محاولاً صياغته كما يقول بأسلوب المحاورة التخاطبية[47] وما نجده لدى كليهما: ابى القاسم البارونى ومحمد فشيكة، ان ابا القاسم لم يضع الحوار فى اسلوب تخاطبى، فوضع تعبيرات الزعيمين متلاحقة بفواصل، وبدون فواصل أحياناً، أما الأستاذ فشيكة فانه عندما قام بنقل الحوار عن ابى القاسم كما أشار على هامش ص 191 من كتابه، لم يتنبه الى الخلط الذى وقع من قبل أبى القاسم، ومثال ذلك ان عبارة السويحلى الثانية (بشرط ان تكون رئيسها) ضمت الى عبارة البارونى الأولى، فأصبحت الجملة بعدئذ هكذا:

البارونى: إنى معكم الى النهاية الا انه لا بد من انشاء حكومة وطنية بلا تردد ولا امهال، بشرط ان تكون رئيسها.

كما نسبت عبارة البارونى الثانية: (دع الرئاسة جانباً) الى السويحلى.

ثم إن نفس العبارة بدل ان تنتهى بجملة (وأكون رابعكم) ضمت لها عبارة (وان تكون انت الوالى كما كنت فى السابق).

(45) أبو القاسم البارونى؛ المرجع السابق، ص 90.

(46) أمين سعيد المصدر السابق، ص 327.

(47) فشيكة، المرجع نفسه، ص 192.

وهى العبارة الثالثة للسويحلى.

وهكذا فان اثبات النصين، النص المنشور فى كتاب (الدولة العربية المتحدة) والنص المثبت فى كتابى الاستاذين: المرحوم ابى القاسم البارونى ومحمد مسعود فشيكة ـ اطال الله فى عمره ـ مفيد جداً بل وضرورى لتصحيح ما ظهر من آراء حيال فكرة الجمهورية ومصادرها، فالاستاذ محمد مسعود فشيكة اعتماداً على نص الحوار الذى نحن بصدده وخطؤه ليس مقصوداً بلا شك جاء رأيه ملخصاً فى قوله: «ولقد كان لرمضان الفكر السديد والرأى الحسن فى ما اقترحه على أخيه البارونى، بأن يقام فى البلاد بعد سفر الترك نظام جمهورى وان لا يجعل له رئيساً معيناً بل يدار من قبل أربعة أعضاء»[48].

والرأى عندنا انه وان كنا لا نختلف مع استاذنا الكبير محمد مسعود فشيكة فى ما ذهب اليه من نفى ورود فكرة (الجمهورية) من خارج الوطن، لعلنا اقتربنا من الحقيقة باثبات هذا المذهب ان لم نثبته فعلاً، الا ان دراسة هذا الحوار وحتى قبل الاضطرار الى العودة الى مقارنة النصوص، هذه الدراسة المبدئية قد تنجدنا بتفسير يتضح ـ وأيضاً بدون مقارنة ـ من عبارة السويحلى التالية:

«وان تكون أنت الوالى كما كنت فى السابق» وهى عبارة لا غموض ولا لبس فيها للدلالة على ان السويحلى لم تصدر عنه فكرة الجمهورية خلال الحوار وانه يفكر (بولاية البارونى كما كان فى السابق) مشيراً الى فترة إلحاق طرابلس الغرب من جديد بدولة الخلافة العثمانية ولاية تتبع الدولة العثمانية كما كانت قبل معاهدة اوشى، وفترة الولاية تلك امتدت منذ سنة 1916 حتى سنة 1918 حيث كان الوالى خلالها سليمان البارونى عندما انتهت بتخلى الدولة العثمانية من جديد وبتشكيل حكومة الجمهورية يوم 16 من نوفمبر سنة 1918. ولعل مقارنة النصين المشار اليهما ستضع النقاط على الحروف مفسرة كل لبس موضحة كل غموض:

(48) فشيكة المرجع نفسه، ص 191.

أ) النص الأول المثبت فى كتاب (**الدولة العربية المتحدة**):[49]

السويحلى: انك لم تخيب فيك ظننا اذ لم تسافر فلا عذر لك فى تركنا ونحن على ما ترى.

البارونى: انى معكم الى النهاية الا انه لا بد من انشاء حكومة وطنية بلا تردد ولا امهال.

السويحلى: بشرط ان تكون انت رئيسها.

البارونى: دع الرئاسة جانباً فانى ارى أن تكون لنا حكومة جمهورية تتألف من أربعة أعضاء فقط انت وأحمد بك المريض وعبد النبى بك بالخير وأكون رابعكم.

السويحلى: على ان تكون انت الوالى كما كنت فى السابق.

البارونى: لا، إنما اكون كالسابق فى منطقة الحرب قريباً من الذى نعينه قائداً لجيش الجمهورية.

السويحلى: انا موافق من الآن الا انى أخاف ان لا يوافق المريض بك على مواصلة الحرب.

البارونى: انه احرص منى ومنك على استمرارها الى ان نصل الى نتيجة.

السويحلى: إذا لقد تم الأمر.

ب) النص الثانى المثبت فى كتابى (**حياة سليمان باشا البارونى** زعيم المجاهدين الطرابلسيين[50] **ورمضان السويحلى** البطل الليبى الشهير بكفاحه للطليان)[51] ونكتفى بصورة واحدة من النصين هو نص الأستاذ محمد مسعود فشيكة فقد تم نقله عن أبى القاسم بأمانة سوى ما أشرنا اليه من صياغته فى صورة تخاطبية ونسبة العبارات الى اصحابها بصورة اجتهادية احياناً، وهذا هو النص:

(49) أمين سعيد المرجع السابق، ص 327.

(50) أبو القاسم البارونى؛ المرجع السابق، ص 90.

(51) فشيكة؛ المرجع السابق، ص 192.

السويحلي: انك لم تخيب فيك ظننا اذ لم تسافر، فلا عذر لك فى تركنا ونحن على ما ترى.

البارونى: انى معكم الى النهاية، الا انه لا بد من انشاء حكومة وطنية بلا تردد ولا امهال، بشرط ان تكون رئيسها.

رمضان: دع الرئاسة جانباً، فانى أرى أن تكون جمهورية تتألف من أربعة أعضاء فقط: انت واحمد المريض وعبد النبى بالخير واكون رابعكم وان تكون انت الوالى كما كنت فى السابق.

البارونى: لا، أنا أكون كالسابق فى منطقة الحرب، قريباً من الذى نعينه قائداً لجيش الجمهورية.

رمضان: انا موافق من الآن، الا انى أخاف ألا يوافق المريض بك على مواصلة الحرب.

البارونى: انه أحرص منى ومنك على استمرارها الى ان نصل الى نتيجة.

رمضان: اذاً اتفقنا.

والآن نترك الأمر لفطنة القارىء على ان لنا كلمة أخيرة فى الموضوع وهى: إن أقدم النصوص كما أشرنا هو نص الاستاذ امين سعيد إذ إن كتابه صدر عام 1938، وبرغم ان عيب أغلب الكتابات التى تناولت تاريخنا المعاصر (ومنها كتابات الاستاذ امين) تكمن فى إغفال الاشارة الى مصادر البحث، وتلك مشكلة لا يشذ عنها حتى بعض من انيطت بهم مسؤولية تدريس التاريخ فى بعض الجامعات العربية، وربما يعود ذلك الى الثقة الزائدة عن الحد فى معلوماتهم، الا ان ذلك لا يشكل مبرراً لتخطى العلمية بالنسبة لهم على الأقل.

أما كتاب أبى القاسم البارونى فقد صدر عام 1948 ولا شك انه استفاد من كتاب الاستاذ امين ونقل عنه عدا الحوار معلومات اخرى وصوراً من الرسائل والوثائق الهامة كما هو واضح عند الاطلاع على الكتابين، وبالنسبة للاستاذ امين فنعتقد انه استقى كثيراً من معلوماته عن جهاد طرابلس بما فيها نص هذا الحوار من الشيخ سليمان البارونى لدى زيارته اياه ببغداد فى أثناء اقامة

البارونى بها آنذاك[52] ومن غيره من المجاهدين الليبيين والشخصيات الليبية المهاجرة.

كيف ومتى تم تشكيل الجمهورية؟...

واكبت الأيام السابقة لظهور فكرة الجمهورية عدة أحداث، لعل أهمها وأبرزها وصول الضابط التركى ذى الرتبة العالية، من أصل ليبى (عبد القادر الغنای)... وقد ذكرت بعض المراجع انه كان مرسلاً من قبل الدولة العثمانية (للترويج للسياسة التركية وبث روح الثورة فى الناس على المعاهدات التى عقدها ادريس مع الطليان والانجليز، وعقب وصوله الى مصراتة جاء الخبر بسقوط حكومة الآستانة، وتسليمها للحلفاء فى الحرب العالمية الأولى، فعدل عن تنفيذ الخطة التى جاء من أجلها واقام بمصراتة الخ)[53].

على اننا نرى الأخذ بما جاء فى مراجع اخرى على انه الأقرب الى الترجيح ومنها ان عبد القادر الغنای انما قدم الى مصراتة (حتى يتسلم القيادة من الأمير عثمان)، ادى الى ذلك ربما حرص العثمانيين مرة أخرى على ان تربطهم بطرابلس رابطة ما... فعينوا عبد القادر الغنای قائداً عاماً بعد عثمان فؤاد قائداً عاماً اسمياً)[54] يقود السياسة التركية فى ذلك - كما هو على الدوام - ضعف روح الثقة فى العنصر الوطنى الليبى، الذى دل عليه تخبط السياسة العثمانية منذ سنة 1915 وحتى أكتوبر 1918 - إذ إنها لم تدع الأمور تستقر على نمط واحد فبدلت وغيرت، ويذكرنا اسلوبها هذا بسياسة تغيير الولاة خلال عهود ما قبل العدوان.

.. أما فى برقة فان الأمور لم تعد فى مصلحة السياسة العثمانية والجهاد بصورة عامة، وان الأتراك لم يعد لهم مكان فى الشق الشرقى من الوطن، فقد

(52) محمد المرزوقى؛ **عبد النبى بالخير داهية السياسة وفارس الجهاد**، ليبيا - تونس؛ الدار العربية للكتاب، 1398 هـ - 1978 م، ص 239.

(53) الزاوى؛ المصدر السابق، ص 337.

(54) شكرى؛ المرجع السابق، ص 334.

طردوا وطوردوا من قبل ادريس السنوسى تنفيذاً للبند العاشر من اتفاقية عكرمة 16 من ابريل 1917 المكملة لاتفاق الزويتينة 31 من يولية 1916 التى نصت أبرز بنودها على احكام العقد بين ادريس والسلطات الايطالية والبريطانية ثم فيما بعد الفرنسية[55] على الا يبرم طرف منهما اى اتفاق الا بعد موافقة الطرف الآخر وعلى ان يعترف لادريس بصفته (شيخ الطريقة)[56]، وقد تمادى ادريس فى مطاردة جميع الضباط الأتراك، وكل من له صلة بهم، وكان ينفذ فى ذلك تعليمات الحكومة الايطالية وحلفائها، وقد بذل كل جهده فى سبيل ان يوفر الامن والطمأنينة لقوات العدو، كما وعد نائب الوالى فى مدينة بنغازى المدعو (الفريق موكاغاطا) بكل ذلك، وبأنه يعتزم اتخاذ اجراءات قاسية ضد كل من تسول له نفسه من المحافظية التسلل الى مواقع الاعداء بأسلحتهم الخ[57].

قد يكفى هذا العرض الموجز للوضع فى القطاع الشرقى من الوطن ليعطى الانطباع بأن الدولة العثمانية - وخاصة بعد (هدنة مودروس) 31 من أكتوبر 1918 ووضع جميع تصرفاتها تحت المراقبة من قبل جيوش الحلفاء التى تحتل عاصمتها - لم تعد تفكر فى تجديد أو تحريك الثورة فى الشق الشرقى لأن الوضع انتهى هناك الى ما يشبه الاستسلام، وهو ما أصبحت تدعو اليه السياسة العثمانية الجديدة!...

فالأمر اختلف إذاً، وحقيقته تتمثل فى ان جميع المجهودات العثمانية التى بذلت بعد هدنة (مودروس) هى مجهودات مشبوهة بذلتها الدولة العثمانية تحت تأثير القوى المهيمنة عليها...

ولعل باكورة ذلك الجهد هى ارسال اللواء عبد القادر الغنای لتولى مركز

(55) الشنيطى؛ المرجع السابق، ص 5 عن إيفانس بريتشارد؛ **سنوسيو برقة**، ص 134.

(56) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(57) **رسالة محمد ادريس السنوسى** الموجهة إلى نائت والى بنغازى (الفريق موكاغاطا)، ملف الكزة، مكتبة مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى - قسم الوثائق والمخطوطات، طرابلس المؤرخة فى 16 من شوال 1335 هـ - الموافق 5 من أغسطس سنة 1917 م، و(المحافظية هم المجاهدون)، أنظر الملحق رقم (1).

قيادة الجيوش الافريقية بدل عثمان فؤاد الذى قرر - كما اسلفنا - التخلى عنها ربما بضغط من الدولة العثمانية وهو أقرب الاحتمالات فى رأينا... ذلك ان تكيفه مع ظروف البلاد وتعرفه على كثير من أمور الجهاد والمجاهدين وربما اكتسابه شيئاً من روح الحماس فى مواجهة الأعداء ما جعل السياسة التركية العاجزة خلال ذلك الظرف تعمل على ابعاده من ميدان الحرب المنتهية رسمياً، ولأن شيئاً آخر يؤيد ما ذهبنا اليه، هو ان عثمان فؤاد يمثل الخلافة العثمانية فى ليبيا، وكونه من بين أفراد البيت المالك يجعل صفته تحمل رسمية التبعية العثمانية، وهذه الصفة تناقض بنود اتفاقية (مودروس) القاضية (بوجوب قطع جميع الصلات بين تركيا وطرابلس فى حالة عدم انصياع الأخيرة لأمر التسليم)[58]... أما المجهودات الأخرى التى تلت ذلك فقد تمثلت فى ارسال اكرم بن رجب (باشا) كوسيط تركى بين الحكومة الايطالية وحكومة الجمهورية، وسنأتى على شىء من خبر تلك الوفادة فى موضعها من هذا البحث... وارسال الغنای يحقق اموراً ثلاثة: -

أولها: ان تعيين الرجل لهذا المنصب يجعل الابقاء على صلة ما بطرابلس امراً ممكناً، ولا يحرج الدولة العثمانية الحريصة على مجالسة وارضاء دول الاحتلال، ذلك ان الغنای ضابط ليبى عثمانى، اى انه من الضباط الليبيين العاملين فى الجيش العثمانى.

وثانيها: ان الرجل يمثل السياسة الايطالية التى لم يعلن عنها، ولكنها تبينت بوضوح فى اجتماعاته المبكرة بزعماء المجاهدين، وقد صدرت منه بعض كلمات جعلت البارونى مثلاً يبدى فيه ارتيابه وشكه أمام الأمير عثمان، لولا ان الأمير اصر على توليته[59]...

ولا شك ان موقفه الأولى الغريب من فكرة الجمهورية وهو الموقف المتسم بمعارضة مبدأ الجمهورية أساساً والمنطلق من باب مجاملة الايطاليين اذ فسره

(58) موسى الكاظم التونسى؛ **وثائق التدخل الأجنبى فى الوطن العربى**، ج 1، دمشق؛ دار البعث للصحافة والنشر والتوزيع، 1972، ص 103 - 104.

(59) أمين سعيد؛ المصدر السابق، ص 328.

بقوله: (إن الحكومة الايطالية لا يمكن ان توافق عليها)[60] (أى الجمهورية) لا شك ان موقفه ذاك هو ما بعث الشكوك حوله...

وثالثها: ان الأمير عثمان ارضاء لغالبية زعماء المجاهدين الذين ضجوا بالشكوى من اسحاق باشا، ويرون وجوب التخلص منه رأى ان يعمل على استغلال الظرف فبذل كل جهده مقترحاً تعيينه بدلاً لاسحاق...

مؤتمر مسلاتة:

لا ضرورة لتكرار ما اتضح من ظهور فكرة الجمهورية فى مصراتة واقتصارها فى اطار المكان على خمسة رجال هم: سليمان البارونى، ورمضان السويحلى ومختار كعبار ثم الأمير عثمان وعبد الرحمن عزام اثر عودتهما من مرفأ (الرومية) الى مصراتة، والتئام شمل الجماعة من جديد، مما جعل أمر الاتصال ببقية زعامات البلاد وقياداتها امراً ملحاً، فتم الاتصال بالزعيمين عبد النبى بالخير فى ورفلة، واحمد المريض فى ترهونة، ثم ببقية الزعماء الآخرين ودعوة الجميع لمؤتمر عام يعقد بمسلاتة، وقبل مؤتمر مسلاتة تمت عدة لقاءات من بينها (مؤتمر البويرات)[61] بترهونة يوم 15 من نوفمبر 1918، على ان اهم اجتماع هو ذلك الذى تم انعقاده بجامع المجابرة بمدينة القصبات بمسلاتة، تكاملت فيه الوفود وحظى بنقاشات حادة إذ إن المرحلة افرزت اتجاهات ثلاثة:

احدها: يدعو الى اتخاذ النظام الجمهورى ويرى اصحابه انه الملائم لطبيعة التركيبة الاجتماعية فى البلاد، من حيث طغيان الفردية والقبلية على حياة الناس، وخاصة فى الدواخل ويمثل هذا الاتجاه:

سليمان البارونى ورمضان السويحلى وعبد النبى بالخير.

(60) شكرى؛ المرجع السابق، ص 235.

(61) نفس المرجع، ص 236، أنظر أيضاً، لنفس المؤلف؛ **ميلاد دولة ليبيا الحديثة**، ج 1، مجلد 2، القاهرة؛ مطبعة الاعتماد 1957، ص 522.

بسم الله الرحمن الرحيم

جناب صاحب السعادة الفريق موكاغاطّه نائب الوالى فى قطر بنى غازى دام محترماً.

سلاماً واحتراماً

وصلنى كتابكم وسرَّنى ما اتخذتموه من الاحتياطات لأجوبة هلال وزبطكم* لجواب الشيخ جلفاف فأشكركم مزيد الشكر وانني قد نبهتم* بشدَّة، وإن عاد سنعودوا* إليه بالتأديب وما ذكرتموه من بيان المادة الشرقية وما هم عليه بعض المحافظية من جهة المرج من توجهم إلى داخل شبكات الحكومة بسلاحٍ مخبيين* فى أثوابهم فأسفت جداً وكل هٰذا عن عدم ولوجى بنفسى داخلهم لأننى كنت متجنبهم يفشوا الوباء بهم* والآن مرتحل بتاريخه للشرق وسنعمل كل اللازم فى الإرشاد إن شاء الله، وقد سرَّنا فتح الأسواق وتقسيم المواد الغذائية بها.

معلومكم أننا قد أخذنا فى الاحتياطات من مكاد الأتراك وفسادهم بالمعاملة الشديدة مع كل منتسبٍ إليهم وكل من به تهمة، ومن هؤلاء لا يزال بالجبل الأخضر قسمٌ منهم ولربما حين يبلغهم معاملتنا مع أصحابهم هنا مع كوننا طلبناهم بشدة لربما يقع منهم شقاق فيلزم إن وقع أن تتخذ معنا الحكومة المساعدة ضدهم فى كل ما تبين لنا منه المساعدة من أى خصوص لعدم

* صحتها: ـ ضبطكم: (أى الإمساك بها).
* لعل صحتها: ـ نبَّهتُهُ لأن الإشارة للمفرد.
* صحتها: ـ سنعود.
* مخبيين: ـ صحتها مخبئوه أو مُخْفُوه.
* متجنِّبهم يفشُّوا الوباء بينهم: ـ محذّراً إياهم من نشر الوباء بينهم.

استفحال أمرهم* وهذا من قبيل الاحتياطات واعلمكم أن هلال كتب لنا كتاب* (كذا) من* خصوص عائلته وهذا طيه ردٌّ منا له على ذلك.

وفى الختام أكرر تحياتى

محمد إدريس السنوسى.

16 شوال سنة 1335 **الختم**

وكما تبين من هذه الرسالة الموجهة إلى نائب الوالى الإيطالى فى بنغازى (موكاغاطًا) والتى يوافق تحريرها بالتاريخ الميلادى (5 من أغسطس 1917؛ فإن محمد إدريس السنوسى كان ينشط فى اتجاه التشديد على العناصر العثمانية التى لا تزال حتى ذلك الحين فى القطاع الشرقى من البلاد بالطرد إلى القطاع الغربى، أو إلى خارج الأراضى الليبية، أو بالتشريد والنفى إلى أصقاع نائية؛ مثلما فعل بالضابطين المجاهدين: ـ (موسى اليمنى وأبى القاسم قشاش)[62] إذ اعتقلا بأمره فى الزويتينة بعد استيلائه على مبالغ عثمانية كبيرة جاءت لنورى، وعددٍ من الأسرى الإنجليز كان المجاهدان يخفرانهم كنتيجة لإحدى معارك الجبهة الشرقية

* من أى خصوص لعدم استفحال أمرهم: يقصد فى أى جانب حتى لا يستفحل أمرهم.
* صحتها كتاباً.
* صحتها بخصوص.

(62) مكرر: ـ الأول منها ضابط يمنى عثمانى والثانى ليبى عثمانى، جمعتهما جبهة الحرب الجهادية ضد الانجليز فى مصر، وقصة هذين المجاهدين من مرويّات أستاذنا الجليل محمد الأسطى (أطال الله فى عمره)، وتجرى الآن محاولة حفظها عنه فى تسجيل صوتى آلى؛ حيث يجرى معه الأخ الزميل (عمار جحيدر) لقاءات دورية مستمرة يجيب من خلالها عن شتى الاستفسارات المتعلقة بحركة جهاد الليبيين، وما يتصل بها من شؤون ثقافية.

(والكتاب ماثل للطبع، جاءنا نبأ وفاة أستاذنا طيب الذكر محمد محمد الأسطى عن عمر تجاوز التسعين سنة، حيث انتقل إلى رحمة الله مساء يوم الاثنين 4 شعبان 1400و.ر ـ 18 من شهر النوار (فبراير) 1991 م. فكانت خسارتنا فيه كبيرة، أثابه الله عن العلم والتاريخ خير الجزاء، وإنا لله وإنا اليه راجعون).

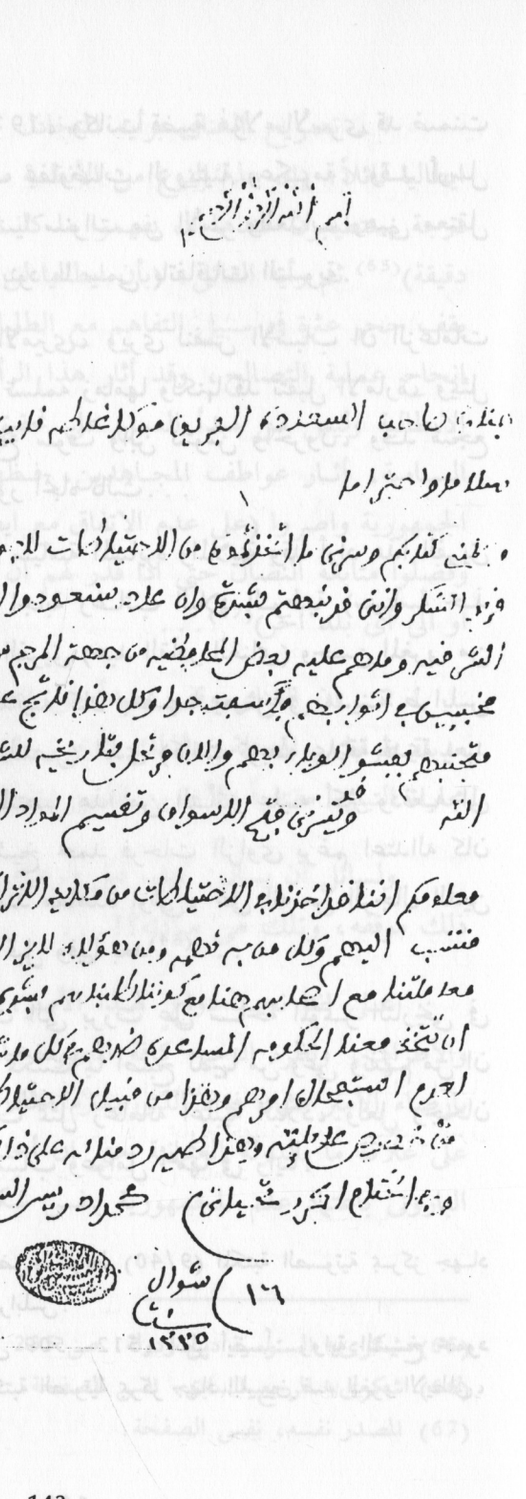

داخل حدود مصر الغربية سنة 1916، وكانت قضية هؤلاء الأسرى قد ضمنت حوار إدريس والحلفاء، فيما عرف بمفاوضات الزويتينة وعكرمة، وقد أرسل المجاهدان إلى الكفرة، حيث أمضيا سنوات من الأسر والعذاب رهينى معتقل السنوسى، ارضاءً لِمَنْ أمْلَوا عليه بنود ما سمى باتفاقيات التسوية.

وثانيها: يدعو الى النظام الأميرى، ويرى لنفس الأسباب ان الزعامات القبلية لا تلتقى على زعيم واحد تسلمه زمامها ولكنها قد تتقبل الامارة، ويمثل هذا الاتجاه: احمد المريض والشيخ سوف وابن تنتوش وآخرون، وقد شجع هؤلاء على اتخاذ ذلك الموقف ظهور اتجاه ثالث...

ثالثها: وهو اتجاه يدعو الى سياسة المسايرة والملاينة وقد أراد هذا الفريق الاتفاق مع ايطاليا، على أساس اجابة رغائب البلاد الوطنية (سياسة خذ وطالب) ويبدو ان على رأس هذا الفريق (عبد القادر الغناى) وحسن المغربى من العسكريين مع عناصر أخرى مدنية كان بعضها يعيش فى مدينة طرابلس المحتلة، ومن أبرز أولئك (احمد المنتصر) الذى (كانت تربطه علاقة قديمة يعبد القادر الغناى)[63]، وقد تمكن المنتصر هذا من التأثير عليه أكثر ودفعه الى مواقف أكثر خضوعاً، كما ان الشيخ محمد فرحات الزاوى برغم اعتداله كان يميل الى هذا الرأى، ويعمل له منذ معاهدة اوشى، على انه من الرجال الذين وضحت لهم مواقف مشهودة فيما قبل وفيما بعد[64]...

ورغماً عن هذه الاختلافات التى برزت على ساحة المؤتمر التاريخى فى مسلاتة الا ان القيادات المجتمعة تمكنت بما اصبح لديها من وعى وتفهم من ان تنتصر لمبدأ الجمهورية الذى كانت تمثل زعاماته اغلبية البلاد، ولعل رجحان كفة انصار الجمهورية يعود الى أسباب وعوامل أهمها فى رأينا:

(63) الحاج عبد السلام الصغير المريض؛ شريط (9/40) المكتبة الصوتية بمركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.

(64) الزاوى؛ المصدر السابق، ص 509 ـ 512، أنظر أيضاً: **رواية الشيخ محمود المسلاتى**؛ شريط (47/2)، المكتبة الصوتية بمركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.

1 ـ تصريح الغناى برأيه المتخاذل حيال الجمهورية وتجاه التعامل مع ايطاليا قائلاً: (إن هذا النوع من الأنظمة متعذر فى بلد لم يبلغ اهله من التقدم درجة يستطيعون عندها ان يفهموا ما كانت تنطوى عليه الجمهورية من معان دقيقة)[65] ثم رأيه القائل: (بأن ايطاليا لن تتقبل الجمهورية وان اعلانها سوف يقف حجر عثرة فى سبيل التفاهم مع الطليان)[66] واذن فالرجل كان قادماً بنية انجاح عملية التصالح، وقد أثار هذا الرأى المنطلق من مبدأ مجاراة المطالب الايطالية وليس من مبدأ العمل على تحقيق المطالب الوطنية العادلة، والقيم السامية، أثار عواطف المجاهدين، فظهرت فكرة التحدى لدى انصار الجمهورية واصروا (على عدم الاتفاق مع ايطاليا اذا عارضت انشاء الجمهورية، وفضلوا متابعة النضال حتى اذا قدر لهم ان يغلبوا على أمرهم هاجروا الى تركيا او الى أى بلد آخر)[67]...

2 ـ ان الغناى وقف بعيداً عن انصاره لأن اغلبهم كانوا يحيون داخل مدينة طرابلس المحتلة، ولذلك لم يجرؤ على اتخاذ وقفة التحدى، بل اضطر الى مجاراة التيار، مقتدياً بالآخرين الذين يمثلون قوى أعظم...

ولسائل أن يسأل: كيف قبل الزعماء باسناد اخطر منصب فى البلاد لرجل ذلك موقفه، وتلك هى مبادئه؟!...

على اننا نجد دواعٍ لهذا الأمر، من بينها مجاملة بعض النزعات والأطراف، ونظرة الزعماء كافة المعهودة والمتعاطفة مع الدولة العثمانية بدءاً بارضاء الأمير عثمان فؤاد الذى يعتزم مغادرة البلاد، واحساساً بضرورة الابقاء على علاقة ما بالدولة العثمانية حتى إن أحداً لم يفكر فى الاعتراض على مقترح البارونى باعتماد علم للجمهورية بنفس شكل ولون العلم العثمانى، اذ أكدت

(65) شكرى؛ **السنوسية دين ودولة**، ص 235.

(66) شكرى؛ المرجع السابق، نفس الصفحة.

(67) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

الروايات الشفهية ان لون ذلك العلم كان أحمر يتوسطه هلال ونجمة خماسية[68]...

قرارات ادارية - سياسية - تشريعية...

تقرر فى مؤتمر مسلاتة التاريخى عند الساعة الرابعة والنصف من مساء يوم 13 من صفر 1337 هـ الموافق 16 من نوفمبر 1918 م تشكيل حكومة باسم (الجمهورية الطرابلسية) على ان يديرها مجلس مكون من اربعة اعضاء هم: سليمان الباروني، ورمضان السويحلي، وعبد النبى بالخير، واحمد المريض، ولم ينص القرار على تعيين أو اختيار رئيس لها، مما يشير الى ان الأمر كان مؤقتاً وموكولاً للزمن، وان الجهد ينبغى ان يوجه نحو تحرير البلاد، قبل التفكير فى ترئيس احد، ولعل هذا ما حذا بالأمير شكيب ارسلان ان ينعت هذه الحكومة بأنها حكومة (حلفية)[69]، وقد علق الشيخ الطاهر الزاوى على هذا النعت موضحاً ان الأمير شكيب (انما يقصد حكومة الجمهورية وهى التى كانت تشتمل على معنى الحلف)[70]...

وبايجاز شديد فان حكومة الجمهورية الطرابلسية شرعت فى تنظيم هيكلها الادارى والتشريعى، فكان قرارها الثانى ينص على تشكيل مجلس شورى الجمهورية من اثنين وعشرين عضواً يرأسهم الشيخ محمد سوف وينوب عنه فى الرئاسة الشيخ يحيى الباروني، كما انتخب الحاضرون (مجلساً شرعياً) للجمهورية من المشائخ: الشيخ عمر الميساوى، والشيخ الزروق أبو رخيص، والشيخ محمد الامام، والشيخ مختار الشكشوكى...

(68) **رواية محمد الحداد**؛ شريط (2/35) المكتبة الصوتية بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس. أنظر أيضاً: **الحاج عبد السلام الصغير المريض**؛ مقابلة تسجيلية خاصة أجراها الأخ/ عبد السلام الشرتاع، سبتمبر 1981 م.

(69) شكيب ارسلان؛ **حاضر العالم الاسلامى**، ص 150.

(60) الزاوى؛ المصدر السابق، هامش ص 313.

كما أقسم الحاضرون قبل انصرافهم (قسم الولاء) للوطن والحكومة الجمهورية. كما تم الاتفاق على اتخاذ العزيزية مركزاً لمجلس الجمهورية.

كما صدرت عن الجمهورية عدة بلاغات: -

بلاغ (1): - ويتلخص فى اعلان تشكيل الجمهورية على الشعب وقد كان مذيلاً بتوقيع اعضاء مجلس الجمهورية الأربعة وبتاريخ 13 من صفر 1337 هـ.

بلاغ (2): - وهو المتعلق بدعوة الضباط الوطنيين المخلصين الى تقديم الطاعة لحكومة الجمهورية الطرابلسية تمهيداً لتقليدهم المهام المطلوبة للدفاع عن الوطن.

بلاغ (3): - موجه الى رئيس الحكومة الايطالية ويتلخص فى طلب الاعتراف من قبلها بحكومة الجمهورية الطرابلسية وسد كل باب يضطرها الى استمرار حالة الحرب بينهما بتاريخ 13 من صفر 1337 هـ.

ولعل أهم ما جاء فى ملحق هذا البلاغ دعوة الحكومة الايطالية الى عقد هدنة تجرى خلالها مفاوضات بغرض الصلح بشرط الا يتم اى تحرش أو خرق لهذه الهدنة وعلى الا يجرى اى اتصال خاص بالمواطنين بما فى ذلك المواطنون داخل المناطق المحتلة، كما ان حكومة الجمهورية مستقلة تمام الاستقلال وغير ملزمة بأى اتفاق أو تعهد يجرى بشأن بلادها مع ايطاليا من قبل أية دولة.

كما ان على الحكومة الايطالية ايصال مراسلاتها الى قناصل الدول المقيمين فى طرابلس دون الاطلاع على شىء منها.

أيضاً فان أية مراسلات مع الحكومة الايطالية لا تجوز الا تحريراً.

13 من صفر 1337 هـ

بلاغ (4): - موجه الى الرئيس ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ويشبه غيره مما وجه الى بعض الدول غير انه يشير الى القواعد المشهورة (مبادىء ويلسون الأربعة عشر) بأمل كبير فى تحقيق العدل والمساواة

بين البشر وتحرير الانسان ورجاء مساعدته على وضع المسألة الطرابلسية على بساط البحث فى مؤتمر الصلح العام.

بلاغ (5): ـ الى رئيس الوزارة البريطانية وهذا البلاغ يشبه ما ارسلته الى الرئيس ويلسون مع مخاطبة جوانب عطف بريطانيا على القضية العربية.

بلاغ (6): ـ الى رئيس الوزارة الفرنسية ولعله أطول بلاغ تخاطب فيه فرنسا من جانب كونها بلاد الثورة الفرنسية حامية الحرية الخ... على انها تذكر فرنسا ان الأمة الطرابلسية لم تملكها دولة من الدول كما ملكت غيرها ملكاً مطلقاً واستعبادها مستحيل وحياة البداوة وسكنى القفار دليل على ايثارها الحرية على الخنوع والذلة.

اتصالات مبكرة

ومباشرة عقب صدور هذه البلاغات تم ارسالها الى قناصل الدول فى طرابلس يستثنى من ذلك البلاغ الموجه للحكومة الايطالية فقد كلفت حكومة الجمهورية وفدا برئاسة مختار كعبار رئيس ماليتها فكان له اول لقاء مع أقرب قيادة عسكرية ايطالية وهى قيادة منطقة الخمس وعلى رأسها (العقيد بيتسارى) الذى سارع الى مقابلة الوفد مؤملاً الحصول على افضل النتائج، ولكنه على الرغم من انه لم يكن مخولاً باتخاذ القرارات السياسية الا انه تقبل أول طلب وهو ايقاف جميع العمليات فى شكل هدنة، ووعد بالاتصال السريع بحكومته لابلاغها بقية الطلبات ومن أهمها: طلب الاعتراف بحكومة الجمهورية الطرابلسية دولة مستقلة بتاريخ 13 من صفر 1337 هـ الموافق 18 من نوفمبر 1918 م وكان هذا البلاغ موقعاً من قبل أعضاء الجمهورية الأربعة.

نقل فحوى الرسالة برقياً الى روما فكان رد الوزير المسؤول: «ليس لى رد على الكتاب المقدم من الثوار للعقيد بيتسارى»[71].

(71) الآنسة بينيلدى غابرييلى: أطروحة دكتوراة بعنوان: ـ **حكومة المستعمرة الطرابلسية فى علاقاتها مع الأهالى والسياسة الوطنية** 1918 ـ 1922 م، ترجمة بتصرف الأستاذ فؤاد =

ولعل هذا الرد المقتضب يفسر الحالة النفسية المسيطرة على روما إذ إنها لا يمكن ان تصدق بما يجرى على الساحة فى طرابلس من تغيرات وتطورات اديا الى ابراز كيان جمهورى، ولسان حال السياسة الايطالية حيال ذلك ان الجمهورية ما هى الا صورة تشويشية فوضوية مغفلة او متغافلة عن انها منبثقة عن شعور عربى اسلامى اخذ فى التصاعد ابتداء بسنة 1908 هـ بفضل (تركيا الفتاة) وانتشر من المغرب حتى الهند، فكانت سنة 1919 بداية عهد جديد من الكفاح الليبى امتاز بارتباطه بالحركات الوطنية المجاورة والحركات التحررية الأخرى وبالحزب الاشتراكى الايطالى[72].

ومن هنا فان المفاوضات بصورتها المبكرة بدأت متعثرة وقد توقفت فعلاً نتيجة ذلك الرد المتعجرف، ولعل هذا ما حدا بزعماء البلاد الى ان يضاعفوا جهدهم وحذرهم فكان تحول أعضاء الجمهورية كل الى منطقة نفوذه ما عدا سليمان البارونى فقد فضل الاقامة قريباً من قائد جيش الجمهورية وكانت قيادة الجمهورية فى الزاوية وقد ظل البارونى يتنقل بين الزاوية ومركز الجمهورية فى العزيزية.

خيانة عبد القادر:

لا شك ان ابرز احداث اواخر عام 1918 عقب تشكيل الجمهورية وبناء مؤسساتها السياسية والعسكرية ومحاولة التحول الى التدابير الاقتصادية اللازمة كان هو نجاح المناورة السياسية الايطالية فى عقد صلات (مع عبد القادر الغناى) وقد تجاوب معها خلافاً لما ينبغى وخلافاً لقرارات الجمهورية بعدم جواز الاتصال الشخصى بالعدو.

اعلن عبد القادر ـ افتراء ـ ان حكومة الجمهورية عقدت الصلح مع الطليان برغم اعتراض ضباط كثيرين من امثال (عبدالله تامسكت) و(عبد

= ـ الكعبازى، السنة الاكاديمية، 1976 ـ 1977 م، ص 2 أنظر أيضاً: ـ الزاوى، المصدر السابق، ص 129، أيضاً: ـ شكرى، المرجع السابق، ص 235.

(72) بينيلدى؛ المرجع السابق، ص 3.

العاطى الجرم) وغيرهما وقد وقع الحادث الجلل يوم 24 من ديسمبر 1918[73] أى بعد شهر فقط من مؤتمر مسلاتة. . . التاريخى ويتلخص فى ان عبد القادر تمكن من ايقاع الفوضى بين صفوف المجاهدين قادة وجنوداً نتيجة سحب غالبية الضباط والجنود من مواقعهم على خط النار فى الزاوية وانضمامهم معه الى الصفوف الايطالية.

اجرى البارونى على اثر ابلاغه نبأ الخيانة اتصالات برقية سريعة ببقية اعضاء الجمهورية يستنجد فيها بالأعضاء الآخرين ويطلب القوة مالا ورجالاً فوصل اثر ذلك احمد المريض كما نجد فى رسالة[74] موجهة من رمضان الى البارونى ما يفيد بأنه استجاب بسرعة لطلب النجدة وان (الجبخانة والنقود) فى طريقهما اليه مع عبد النبى وانه يجمع القوة مالا ورجالاً وسيوجهها اليه بالسرعة الممكنة ويبدى استعداده لأية تضحية كما كان دائماً.

التاريخ 1 من كانون الأول 1334 هـ يوافق 24 من ديسمبر 1918 م.

وبوصول السويحلى الى العزيزية تكامل عقد الجماعة فيها مع بقية قادة المجاهدين محاولين تقوية الجبهة تحسباً لأية تطورات، وقد صار تكليف الضابط عمر ضياء المدفعى قائداً لجيش الجمهورية، وكان نتيجة احتلال الطليان لمدينة الزاوية احتلالاً كاملاً يوم 1 من يناير 1919 ان اضطر المجاهدون لاخلاء جنزور مؤقتاً فحاولت القيادة الايطالية اغتنام الفرصة وقامت بعمليات قصف مستمر لمواقع المجاهدين فى ترينة والحشان[75] واعقبتها بزحف كبير حشدت له كل الامكانات، ولكن جبهة العزيزية تمكنت من الصمود وصد قوات العدو ودحرها مراراً فى معارك ترينة والحشان وغيرهما مما جعل الحكومة الايطالية تراجع حساباتها حيال هذا الكيان الجديد وتحاول تجديد اتصالاتها بالمجاهدين.

(73) سليمان البارونى؛ المصدر السابق، ص 317، أنظر أيضاً الشيخ محمود المسلاتى؛ شريط 47/2، المكتبة الصوتية، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.

(74) سليمان البارونى، نفس المصدر، ص 316 ـ 317.

(75) المصدر نفسه، ص 324، أيضاً الزاوى، المصدر نفسه، ص 347.

المفاوضات من جديد:

إثر المحاولات اليائسة التى بذلتها الحكومة الايطالية لاحتلال السوانى والعزيزية، واثر فشلها فى إحراز النصر فى معاركها بترينة والحشان وغيرهما، ونتيجة حشد الحشود من قبل المجاهدين فى تلك المناطق، فان الحكومة الايطالية جددت اتصالاتها بالمجاهدين مستغلة وضع تركيا الضعيف فاستجلبت المدعو اكرم بك وهو ابن احد ولاة طرابلس الاتراك السابقين (فهو ابن رجب باشا) استجلبته من تركيا ومنحته توكيلاً لمخاطبة المجاهدين باسمها وحملته عدة رسائل الى المجاهدين بعضها بخط الشيخ محمد فرحات الزاوى الذى كان مقيماً بطرابلس منذ 1912 وكان موقفه واضحاً حيال قضية التفاهم مع الايطاليين ومحاولة اخذ ما يمكن منهم فى سبيل تحقيق مكاسب اكبر، وبرغم ذلك وبرغم مواقف مشبوهة له خلال احداث تسليم الزاوية فان للرجل مواقف طيبة مشهودة حتى فى مدينة طرابلس نفسها ثم ان للرجل جهده مستقبلاً جهاداً وهجرة[76]. نذكر هذا لندرك ان حكومة الجمهورية كانت لا تزال على شىء من احترامها الرجل فقبلت ان يكون الوسيط وحلقة الاتصال بينها والحكومة الايطالية وانها (أى الجمهورية) لن تقبل بأى اتصال له خارج هذه الدائرة[77].

اجتمع اكرم فى العزيزية بأعضاء الجمهورية فى يوم 22 من فبراير 1919، ولأن وساطته لم تكن فى مصلحة القضية الوطنية فالرجل يعرض عليهم العفو عما اقترفوه تجاه ايطاليا فى مقابل صلح تجريه الحكومة الايطالية معهم. فهو يطالبهم بالتنازل من جانب واحد عن حقوقهم المشروعة والخضوع كما خضعت شعوب كثيرة ودول قوية، فكان رد زعماء الجمهورية له رداً لطيفاً ولكن ردهم على الحكومة الايطالية كان يطفح بالحماس والتحدى ومما جاء فيه: «إننا قوم لا نأبى الصلح ولكننا لا نرضى المذلة والعار ونحن الذين يجب ان نمنحكم العفو

(76) الزاوى؛ المصدر نفسه، ص 348، أنظر أيضاً **رواية الشيخ محمود المسلاتى شريط** 51/2 المكتبة الصوتية بمركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى.

(77) أمين سعيد؛ المصدر نفسه، ص 34.

على هذا الاعتداء الفظيع واذا أصر الطليان على هذا العناد فسنواصل الحرب الى النهاية».

واذا لم يكن من الموت بد فمن العجز ان تكون جبانا[78]

وقد ادرك ساسة ايطاليا انهم كانوا واهمين فى تقدير قوة المجاهدين ولكنهم برغم ذلك رأوا جس نبض هذه القوة قبل الاقدام على عمل دبلوماسى جديد.

سلبيات: ـ

لعل اخطر جانب سلبى ذى اثر على حركة الجهاد كان يتمثل فى ظهور زعامات قبلية الى جانب الزعامات السنوسية التى اشرنا الى دورها فى مقاومة التيار القادم من الشق الغربى للوطن خشية منه على كيانه، كما اشرنا الى علاقاتها البينة مع دول الحلفاء وقطع اية علاقة للبلاد بالدولة العثمانية وبدول تحالف الوسط وما اقترفته قيادة ادريس السنوسى من مثل ابعاد (احمد الشريف السنوسى) واضطراره الى الهجرة الى تركيا عام 1918[79]، ظهور تلك الزعامات القبلية التى كانت ترى فى نفسها الجدارة والاستحقاق لتولى قيادة البلاد دون غيرها كان عامل هدم لأن تلك القيادات كانت تؤدى بها الاثرة احياناً الى اتخاذ مواقف لا تخدم مصلحة الوطن العليا ولا تحقق اهدافه، وقد حاولت دائرة السياسة الايطالية استغلال بعض تلك الزعامات وتمكنت بأساليب كثيراً ما كانت غير مباشرة من الايقاع بها أو دفعها الى الالتجاء اليها، لم يتضح هذا كثيراً خلال فترة الجمهورية القصيرة ولكن المناورات الخفية والمعلنة لم تنقطع يوماً ونحن نتلمس بعض الدلائل والاشارات الى تلك المحاولات الايطالية التى سيكشف مستقبل البحث عنها وعن آثارها فى جلب الشقاء والخراب للبلاد.

(78) الزاوى؛ المصدر السابق، ص 348.

(79) طبقاً للأمير شكيب ارسلان؛ المصدر السابق، ص 153 ـ 154؛ غادر أحمد الشريف موسى العقيلة بساحل سرت فى 7 من ذى القعدة 1336 هـ ويوافق ذلك 14 من اغسطس 1918 م.

الجمهورية مغنم وطنى:

على ان ما اوردناه عن الظروف التى صاحبت ميلاد الجمهورية الطرابلسية لا ينفى عنها الدور البارز الذى نهضت به فى الدفاع عن الأرض إذ إن الجنرال بانتانو قائد القوات الايطالية فى طرابلس وبالتفاهم مع الجنرال تارديتى رئيس دائرة السياسة بطرابلس قرر التوغل فى داخل البلاد، وحاول دون جدوى، لأن قوات المجاهدين من جبهة العزيزية والخط الموازى لها لم تمكنه من تحقيق أى تقدم فاضطر الى عرض طلب معاودة المفاوضات من جديد على المجاهدين برغم مما ينبىء بأن موقفه لم يكن من القوة بحيث يفرض شروطه برغم تفرغ القوات الايطالية بعد توقف الحرب العالمية، وبرغم ايفاد قوات كبيرة لدعم القوات الايطالية الموجودة بليبيا لتبلغ 100000 مئة ألف جندى مزودين بأحدث الأسلحة والمعدات، وعلى ذلك فإن الجمهورية ـ نظرياً وفعلاً ـ كانت مغنماً وطنياً وقومياً، ذلك ان فكرتها التى تحققت بتضحيات سبع سنوات اريقت فيها الدماء غزيرة وفقد الوطن خلالها عشرات الآلاف من ابنائه ذهبوا فداء ليوم تحرير الأرض وتحقيق كرامة الانسان، كانت ـ على اعتبار فترتها ـ فكرة غريبة حقاً قياساً الى دنيا الشرق العربى والاسلامى، ثم ان بناء مؤسساتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تعتمد الشريعة الاسلامية فى تحصيل الزكاة ومراعاة الحقوق العامة والخاصة تعطى الانطباع لدارس تلك المكتسبات بأن كيان الجمهورية كان تجربة رائدة فعلاً ومثيرة على اعتبار الزمان والمكان وان ظهورها كان ذا اثر لا ينكر فى المنطقة..

أثر قيام الجمهورية على الشرق والغرب العربيين

ما نريد تأكيده هنا هو أنه برغم تداخل التأثيرات والمؤثرات من شتى البلدان والحركات، الا ان تأثير ظهور الجمهورية الطرابلسية، الدولة ذات السيادة، محققة سلطانها على أغلب تراب القطاع الغربى من ليبيا، كان تأثيراً طاغياً وسارياً الى جميع بلاد المشرق والمغرب، فقامت الشعوب فى مصر مثلاً وفى تونس أيضاً وفى غيرهما، بانتفاضات وتحركات، حاولت التعبير عن استيائها من

الأوضاع السيئة التى وجدت فيها، ولكنها كانت محاولات فجة، لم ترق الى مستوى المعركة التى كان يجب أن تخوضها، ولذلك فانها لا تعدو - فى نظرنا - أن كانت مظاهرات علا فيها الصراخ على الفعل، ولذلك فإن نتائجها كانت الخيبة والفشل، لا نستثنى من تلك الحركات سوى ما قام به الشعب المغربى فى منطقة الريف من تحد بالغ العنف بدءاً بسنة 1920 وحتى 1926، تمكن خلالها من تحقيق انتصارات رائعة، متمثلاً تجربة الجمهورية الطرابلسية، باعلانه (جمهورية الريف) بقيادة عبد الكريم الخطابى[80]، ولعل ما نلحظه من تكالب الدول الاستعمارية، سواء منها ضد تجربة الجمهورية فى ليبيا، أو ضد تجربة الجمهورية فى المغرب ينهض دليلاً على ان الاستعمار كان واعياً بخطر التجربتين، وكان داعياً الى بذل كل الامكانات والطاقات لتحطيمهما ووأدهما، وعلى المدى الطويل كانت تلك الدول الاستعمارية تخطط جاهدة وبكل حرص لعدم السماح لأنظمة كتلك يمكن أن تتطلع اليها شعوب المنطقة، ولأن تلك الدول كانت تعى وتدرك أن الحرية واحدة وأن الرغبة فيها تمثل عامل وحدة فكر، وجدت أن لا مناص من صدها والوقوف فى سبيلها حتى لا تعم وتنتشر.

المفاوضات تحل الجمهورية

تحت تأثير جميع الظروف التى لازمت بناء الجمهورية ومؤسساتها من ادارية وعسكرية، فان استجابة حكومة الجمهورية كما يبدو - برغم كل الاصرار على التحدى والتصدى الذى برز بكل وضوح فى معارك جبهة العزيزية الزاوية - لنداء المفاوضات والصلح كانت سريعة، وحتى لا نكون مغالين فى تقدير حجم قوات الجبهة الوطنية، بعد أن أدركنا أن تلك القوات لم تكن من التكاتف والتساند على درجة يمكن الركون اليها باستمرار، وانما هى الحمية وحماس المجاهدين المعروف والمألوف، وتقويماً أولياً لامكانات المجاهدين الفعلية، نجد أن حكومة الجمهورية تقف دون سند دولى أولاً، وهو هام بالنسبة لظروف

(80) أمين السعيد؛ المصدر السابق، ص 386 - 387، (وعبدالكريم الخطابى هو محمد عبد الكريم على الرغم من غلبة اسم والده عبدالكريم)

البلاد التى مرت بسنوات حرب وقحط ومجاعة، ثم بحصار اقتصادى ضربته دول الحلفاء عليها لاجبارها على الرضوخ للتفاوض والتصالح، شجعها على ذلك رضوخ ادريس السنوسى فى الشق الشرقى من الوطن، الذى ركن منذ 1916 الى سياسة مهادنة هى اقرب الى الصلح منها الى الحرب.

وثانياً: - خروج ايطاليا من الحرب العالمية منتصرة برغم كل الظروف التى وجدت فيها نتيجة معاناة الحرب من خراب ودمار وفوضى سياسة، وتذمر محاربين ومللهم من مواصلة الحرب، فان وضعها أصبح دون ريب أفضل بكثير، إذ ارتفع حجم القوات الايطالية العاملة بليبيا من ثلاثين ألف جندى الى ما يناهز المئة الف جندى مزودين بكل المعدات التى حولت من الجبهة الأوروبية الى الجبهة الليبية، إذاً فقد أصبح الوضع العسكرى فى مصلحة ايطاليا، وهى نقطة أساسية تحسب لسياسة التفاوض.

وثالثاً - إن وضع البلاد العربية المجاورة مثل تونس ومصر، بما يحويه من تناقضات وما يعبر عنه من اذلال، كان رغماً عن ذلك يجذب اليه انظار بعض القادة والمثقفين بما تحفل به تلك البلاد من تعبير صحافى واعلانى، ومن تشكيلات حزبية سياسية تبهر الانظار.

كل تلك الظروف والملابسات كانت فى رأينا عوامل تخدم قضية العروض السلمية، فكانت المفاوضات.

الفصل الرابع

مفاوضات خلة الزيتونة*

فكرة التفاوض ومواقف حولها:

من خلال تتبعنا لمحاولات الاتصال خلال شهر فبراير 1919 م، وردود أفعالها، يتبين لنا موقف الجمهورية الطرابلسية تجاه العروض الايطالية، وانها لم تكن متحمسة لبذل الجهد فى مجال الأخذ والعطاء معها، غير أن ما بدا استثنائياً، ان لم يكن فجائياً هو تحول موقف الجمهورية الى قبول عرض (الجنرال بانتانو) السالف الذكر، فقد اجتمع البارونى فى العزيزية بمن كان قريباً من رجال الجمهورية، وأرسلوا ردهم على ما ورد فى خطابه بشأن تحديد مكان وموعد مباشرة التفاوض، وقد أبلغهم (بانتانو) أن يوجهوا ذلك الرد الى (الجنرال تارديتى) مدير مكتب السياسة العسكرية فى طرابلس، وقد قرر الزعماء المتواجدون فى العزيزية دعوة بقية الزعامات، وأعضاء مجلس الشورى، وقد وعدوا (الجنرال تارديتى) فى ردهم الأولى بأن يأتيه جواب لاحق بعد ستة أيام من تاريخ تحرير هذا الرد المؤرخ فى 26 من فبراير 1919 م، والموقع من قبل: سليمان البارونى عضو الجمهورية ومحمد سوف رئيس مجلس الشورى والهادى كعبار متصرف المركز والصويعى الخيتونى قائد جنزور وقائمقام النواحى الأربع، كما أن هؤلاء أبلغوا الجنرال (تارديتى) عدم استعدادهم لقبول أية مراسلة ايطالية عن طريق الزاوية، وانما يتم توجيه الخطابات الى محمد فرحات عن طريق جنزور، ومن ثم يقوم بتحويلها اليهم فى العزيزية، ويمكن ملاحظة أن موقف

* بحث لم ينشر بعد.

(محمد فرحات الزاوى) صار الى الملاينة بل ربما الى شيء من التقارب تجاه قيادات الجمهورية الذين صاروا يخاطبونه بروح أكثر لطفاً، بعد موجة من اللوم والعتاب[1]، وقد نرى أن مرحلة عودة فرحات الى صفوف رفاقه كانت تقترب.

«جواب من سليمان باشا البارونى الى فرحات بك[2].

الجواب مرسول منه الى متصرف مركز الجمهورية الهادى بك كعبار وهو هذا

جمادى ثانية 1337 هـ

فرحات بك، اطلعت على جوابك المفتتح باسم الهادى بك ورفاقه، وما كنت أظن أن قلمك يصف يوماً ما حكومة المجاهدين بالنهب والغصب، لو أن هذا الجواب من قلم ايطالى لكان مقبولاً، أما منك وأنت تدعى خدمة الوطن بل إنه لمن رجلٍ (. . .) يرى ويسمع فى التاريخ. ما كنت مؤملاً منك تعاطى التجارة معهم فى ميدان يدافع فيه اخوانك عن دينهم وشرفهم بأنفسهم وأموالهم بالله عليك أى خدمة وطنية أو دينية أو انسانية رأيتها فى مجيئك الى الزاوية وسعيك لانفصال أهلها عن أبناء وطنهم الذين يسعون لنيل سعادة مستقبل ذريتهم. . . نعم استفدت (. . .) ألوفاً من الأوراق على سبيل التجارة ستفنى (. . .) لكنك أضعت ملايين من أموال أهل الزاوية (. . .) الذين تدعى انك جئت لحمايتهم بدون أن يطلبوك إن من له ذرة من العقل وأنت فى مقدمتهم يعلم ذلك جئت بقوة تحافظ بها أموال الزاوية المتشتتة فيما بين حدود جنزور والعزيزية وزوارة والجبل وغريان كل أحد يعلم (وأنت أعلم) أنما فى نزولك

(1) أنظر من هذا اللون: خطاب سليمان البارونى المرسل اليه بتاريخ جمادى الثانية 1337 هـ ولعل أول شهر مارس 1919 م (وفق مقابلة للتاريخ الذى تحمله المراسلة).
ملاحظة: هذه المراسلة ـ كما تبين بوضوح ـ ليست بخط البارونى ولا توقيعه، ونعتقد بأنها نسخة عن رسالة كتبها البارونى ونقلت نقلاً سيئاً عنها، وأشبه بذلك ما وقع عند تصويرها عن الأصل الذى لا نجده الآن، وسنحاول فى المبيضة التالية الوصول إلى القراءة الممكنة، وقد نشير الى الصعوبات بنقاط بين قوسين.

(2) النقاط بين قوسين تشير إلى صعوبات القراءة أو تعذرها.

بشرذمة العرب المأجورين والحبش فى الرأس الأحمر الا بلاء ودماراً أكبر على الزاوية المظلومة. ان ايطاليا تعلم هذا ولكن لا يهمها أن خربت الزاوية ولحقت بها العجيلات وجنزور وزوارة ويفرن وفساطو. نَـزَلَتْ هى فى الرأس الأحمر واتَّخَذَتْهُ ملجأً للمفلسين فى الوطنية والدين من أسافل أهل البلاد لتستخدمهم ضد مساعى رجال الوطن المخلصين وإيطاليا لها الحق فى هٰذا لأنها ما قطعت البحار وصرفت الأموال إلا لذٰلك ولعلّى برجالها يتمثلون بقول القائل (ما لا يدرك كله لا يترك أقله)، أما أنت يا فرحات بك ان أقدمت على هذا العمل معتقداً خلافَ هذا فأولى لك أن تعد نفسك من الأموات حساً ومعنى (لا زلتُ أشهدُ لك بالعلم) (. . .) عملك ولا زلت أحسنُ بك الظن فلِمَ خيبت ظنى بك؟ وقد اشتق اسمك يا فرحات بك من الفرح، ووضع لك (. . .) فماذا كانت النتيجة يا ترى كانت على الزاوية مسقط رأسك ومدفن أجدادك حزناً وهماً، ولا راد لقضاء الله سبحانه (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)، ان حكومة الجمهورية الطرابلسية يا فرحات بك الطرابلسى لم تغصب ولم (. . .) مال أحد من أهل الزاوية الصادقين ولا مال غيرهم كما تعلم بل محافظة على أموال الغائبين قررت وضع اليَدِ عليها وعلى (. . .) وعلى كل من جاءها ملتحقاً باخوانه سلمت اليه أمواله، وقد شكلت هيئة لتحقيق هذه المسائل وحفظ قيودها مخصوصاً منتخباً من امناء الوطن ورجاله العاملين (فرحات بك) قل لى بالله الى أى شيء تدعو هؤلاء الناس (. . .) فى هاوية هتك الأعراض والمحو أأعجبتك مجازر صياد والطويبية والماية (قبل واقعة سوانى بن يادم أم أصم أذنيك خرير دماء المظلومين العاجزين (. . .) من النساء والصبيان فى أزقة جنزور أم راق فى نظرك ذلك التمثيل الفظيع بالمخدرات وأهل العلم والدين فى الواقعة المذكورة فى السنة الماضية؟ أترضى يا فرحات مع علمك ووطنيتك القديمة أن تكون مأجوراً لخائن وتظن أن الأمة الطرابلسية تعتبر أى كلام منك يصدق وأنت بهذا الوصف ان الأمة الطرابلسية اذ حكم عليها القدر (. . .) أن تقبله مباشرة من مأجور، فرحات بك ان كنت لا علم لك فإن الأمة الطرابلسية قد تمركزت فى صدورها الوطنية الخالصة فلبت داعى الحق (. . .) من عقالها اللدود عن حقها المشروع الى آخر قطرة من دمائها، وآخر

شبر من بلادها والله كل صاحب عجب وجدان منصف حتى من رجال ايطاليا معها:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

(لا مؤاخذة يا فرحات بك)، إنّى أراك تجاوزت من العمر الستّين وخلّفت البنات والبنين على حد قول القائل:

أرانى على الستين عاماً وقد نيفاً .....

تهون على دخيل فماذا تأمل يا ترى من وراء أعمالك الآن؟ ألست كما قال الشاعر الحكيم:

وكم مثمر مالاً لبعل حليلة ومعلى بناءٍ للعدى وهو لا يدرى

فاذا كان لا بد من ارشال النصائح الينا فأنصح نفسك مرة وعظها لمصلحة دينك وأبناء وطنك الذى قد خلقت من أجل أن تضعه نصب عينيك، شأن كل مدرك حكيم، وقل ما شئت وافعل ما بدا لك توفق، والا فعليك السلام من رفيقك القديم وأخيك فى الوطن والدين.

سليمان البارونى»

على الرغم مما يقلل من نسبة هذا الخطاب للبارونى (خطًا وسوء نقلٍ)، فإننا نورده هنا لأهمية ما ورد فيه ولسببين هامين مع هذا الإيراد: -

أولهما: أن الخطاب يتوافق - مع ما نعرف - من أسلوب البارونى ولغته.

وثانيهما: أن المصادر الإيطالية وبخاصة منها كتاب (غابيللى) تشير إلى تبادل الخطابات بين الرجلين خلال الفترة؛ الأمر الذى أحدث تأثيراً ما فى نفسية الشيخ فرحات، فصار - كما أسلفنا - إلى تقارب لم تفصح عنه الكلمات، وإنما أبانت عنه الأفعال، ويمكن تبيُّن هذا التحول فى ما طرأ على علاقة فرحات بالغنای وبالإيطاليين بدءاً بعام 1909 م وما جدَّ بعد ذلك من تجارب خاضها

فرحات مع رفاقه القدامى عائداً إلى صفوفهم، خلال أحداث السنوات التالية[3].

وهكذا اثر وصول رجال مجلس الشورى وبقية أعضاء الجمهورية التأم اجتماع موسع، وكتبوا الى الجنرال تارديتى بوصولهم، وطلبوا أن تكون المكاتبات بعد الآن بواسطة (الهادى كعبار)، فقد لوحظ أن المسؤولين الايطاليين كانوا يتعمدون توجيه نسخ من خطاباتهم الى كل رئيس أو عين من الأعيان يتوسمون فيه أهمية على حدة، وبهذا حددت مسؤولية المراسلات وأنيطت بشخص (الهادى كعبار)، الأمر الذى يعد تكليفاً له بمهمة التفاوض، وعلى هذا فقد تسلم الهادى رسالة هذا نصها: ـ

السيد المحترم الوجيه هادى كعبار دام بقاؤه

أخذت كتابكم المؤرخ 2 رجب 1337 هـ وأشكركم عليه، وبناء على تعريفكم سنقدم مع سائر مندوبى الحكومة الافرنجية الى (خلة الزيتونة)[4] يوم الاثنين القابل الموافق 7 من مارس 1919 م الساعة الواحدة الافرنجية بعد الظهر، لأجل المذاكرة معكم، ومع سائر رؤساء البلاد، لا يخفاكم أن القطر الطرابلسى منتظر من أعمالنا جميعاً سعادة وحسن مستقبله، وانى لا أشك فى أن المولى سبحانه وتعالى سيرشدنا فى جلساتنا الآتية الى ما فيه الحصول على النتائج الحميدة هذا ولكم منى أزكى السلام، وبلغوا سلامنا الودادى الى كافة رؤساء البلاد ودمتم.

3 مارس 1919 م

رئيس دائرة السياسة العسكرية

الجنرال تارديتى[5]

(3) أنظر فى الخصوص: ـ غابيللى، مصدر سابق، ص 111، أيضاً رواية الشيخ محمود المسلاتى، المكتبة الصوتية بالمركز، مصدر سابق، وهى كما علمنا فى طريقها إلى النشر.

(4) (الخَلَّة): بفتح الخاء لعلها من الخلة بضمها وتعنى لغةً كل نبات فيه حلاوة، أو الأرض التى لا حمض بها، أما فى الاصطلاح المحلى الليبى فتعنى نطاقاً شجرياً محدوداً، وهى هنا للدلالة على أقدم مغروسات الزيتون فى منطقة بن غشير جنوبى مدينة طرابلس.

(5) أمين سعيد، الدولة العربية المتحدة، جـ 3، القاهرة ـ مصر، 1938، ص 56، =

وبمقابلة التواريخ أمكن الوصول الى رأى، بشأن تحديد تاريخ أولى جلسات المفاوضات، وهو أن يوم 10 من مارس 1919 م، على الساعة الواحدة ظهراً[6] كانت البداية العملية لمفاوضات خلة الزيتونة. وذلك أن التاريخ الموافق ليوم الاثنين القابل طبقاً لما ورد فى رسالة تارديتى هو ما حققناه لا يوم 7 من مارس.

الجولة الأولى: ـ

تم اللقاء الأول فى (سانية البيابصة)، شمالى غربى (سوانى بن يادم)، وقد حضره عن الجانب الايطالى (الجنرال تارديتى) رئيس مكتب دائرة السياسة العسكرية الايطالية فى طرابلس، وبعض أعوانه، على أمل أن يحضره من الجانب الوطنى أعضاء الجمهورية الطرابلسية[7]، الذين آثروا ـ فيما يبدو ـ من قبيل المعاملة بالمثل، أن يمثلهم وفد برئاسة (الهادى كعبار) مفوضاً عن الجمهورية، ويرجع الى حكومته لعرض جميع القضايا التى تناقش والمقترحة للنقاش، تماماً مثلما يفعل الوفد الايطالى فى مثل ذلك، حيث يرجع الى حكومة الولاية وأحياناً الى الحكومة المركزية للاستشارة وتلقى التعليمات، وقد رأينا من المفيد اثبات خبر ورد فى مذكرات البارونى (صفحات خالدة) يتناول جلسة المفاوضات الاولى كما يلى: «اجتمع مندوبو الحكومة الطرابلسية تحت رئاسة متصرف المركز الهادى بك ومعه متصرف فزان الفكينى[8] بك، وقائمقام النواحى، وقومندان طرابلس الصويعى بك، وعضو الشورى عبد الصمد،

= أيضاً: أبو القاسم يحى البارونى، المصدر السابق، ص 101.
قارن مع الطاهر الزاوى، المصدر السابق، ص 347 ـ 349.

(6) أما الآنسة بينيلدى غابرييللى، المصدر السابق، ص 3، فإنها لا تحدد يوماً معيناً من مارس لبداية التفاوض

(7) غابرييللى، المصدر السابق، ص 140، ويتفق مع المصادر السابقة فى تاريخ بَدْءِ التفاوض حيث يذكر ان أول اجتماع كان يوم 10 من مارس.

(8) (كذا) فى الأصل وصحتها فكينى، وهو المشهور بالحاج محمد فكينى من مشاهير رجالات الجبل الغربى.

وقائمقام العزيزية الشنطة بك وقومندان الغرب عبدالله بك تامسكت بمندوبى الحكومة الايطالية تحت رئاسة الجنرال تارديتى، ومعه ميرالاى ومحامى (ابوكات) ومترجم فى سانية البيابصة[9] بعد ظهر يوم الاثنين الموافق 8 جمادى الآخر، وكان المقصد من الاجتماع الوصول الى بعض أساسات عليها ترتب اجتماع آخر لمذاكرات جدية، ولم يزل مجهولاً بعض القواعد التى يريدها الطليان، لأن (الجنرال تارديتى) لم يصرح بغير كلام ألستيكى)[10] يحتمل معانى شتى، ومن بعض جمله ولو أن ظاهرها رغبة أكيدة فى السلم، الا أنه لم يزل يفكر بغير الفكر الذى نفكر به، ولم يقدر بعد المطالب الحقة، والمقاصد السامية التى نقاتل من أجلها، والمظنون انه اذا أصر على بعض الجمل الموجودة فى خطابه الأخير لتكون قاعدة للمذاكرات الصلحية، فان الامل فى السلم يبدو كبيراً[11].

هذا وقد سارت المفاوضات متعثرة خلال ما تبقى من شهر مارس، ربما لأن تغيب أعضاء الجمهورية المتعمد عن حضور الجلسات، قد أثار المفاوض الايطالى كما اعتبرته الحكومة الايطالية مناورة لكسب الوقت، وتمهيداً لهجوم مبيت، ولهذا عمد الجانب الايطالى الى تأجيل المفاوضات، وقام بتوجيه انذار الى رئيس الوفد الوطنى المفاوض (الهادى كعبار)، مفاده: ان على المفاوض الطرابلسى تحديد موقف أعضاء المجلس الجمهورى بدقة، واذا عجزوا عن ذلك، فان الحكومة الايطالية ستزحف بقواتها على أراضى الجمهورية، وعين يوم 31 مارس كآخر موعد لتحديد الموقف، الا أن الانذار الايطالى لم يفت من

(9) سليمان الباروني، صفحات خالدة من الجهاد، المصدر السابق، 351، أيضاً: رافائيل رابيكس، المصدر السابق، ص 40.

(10) ألستيكى، من الايطالية بمعنى (مطاط).

(11) سليمان الباروني، المصدر نفسه، ص 351، وقد اقتطف هذا النص من مقال فى صحيفة كانت تصدر خلال الفترة تحت اسم (الجمهورية)، ويبدو من طبيعتها انها تصدر كنشرة دورية رسمية للأخبار فى طباعة غير جيدة، جاء هذا فى الخبر المقتضب الذى أعدَّتْه عنها زعيمة البارونى على الصفحات من 349 الى 352 من نفس المصدر، وربما لا يتوفر منها سوى هذا العدد المفرد بين أوراق زعيمة، وهو ما أشارت إليه.

عضد المجاهدين، وانقضى الموعد دون أن يعيروه أهمية[12]، وقد تناولت مذكرات البارونى هذه المرحلة من المفاوضات اذ جاء فى رسالة وجهها البارونى الى قائمقام نالوت وقومندان الجبهة الغربية (خليفة بن عسكر) انه حصل اجتماع الهادى بك ورفقاؤه مع هيئة العدو، ولم يقرروا شيئاً، لأنهم لم يقدموا لائحة الحكومة التى قالوا عليها، (يقصد أعضاء الوفد الايطالى)، جماعتنا أصروا على مسألة الجمهورية والاستقلال، وفى الأخير طلبوا اعادة الاجتماع، وقالوا: ان حكومة روما مضيقة عليهم جداً، والحزب المدافع على طرابلس فى روما مضيق على حكومتهم، واليوم وصل رمضان بك، وغدا نجتمع ونقرر الجواب الذى نرده لهم، والله الموفق، المفهوم فى ضيق شديد من جهة أوربا فى مسألة طرابلس، وانهم سيساعدوننا فيما نطلب، الحصان سلمناه لكوجك ضابط المهاجرين، انت اضبط المحلة، ولا تفاوق (عبدالله بك)، واذا انقضى الحال نعرفك بتلغراف تقدم.

سليمان البارونى

29 جمادى الثانية 1337 هـ[13].

وقد يتبين من هذا ان انطباع حكومة الجمهورية الطرابلسية عن الجانب الايطالى كان يحمل طابع التفاؤل الى حد كبير، وذلك من خلال التعرف على الضغوط القوية التى تقع تحت وطأتها حكومة ايطاليا لصالح العمل السلمى، اذ يقف الحزب الاشتراكى الايطالى مؤيداً لمطالب الشعب الليبى، كما ان أوربا لا تزال تمارس تأثيرها على السياسة الايطالية، وقد عبر عن وجهة النظر الايطالية

(12) د. محمد فؤاد شكرى، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربى، القاهرة ـ مصر، 1947، اليه ص 240، أيضاً: أتونى غابيللى، طرابلس الغرب من نهاية الحرب العالمية الى قيام العهد الفاشيستى، الجزء الأول، الناشر: آيرولى، روما ص 150 من النص العربى ترجمة الأستاذ عمر البارونى، مخطوط بشعبة النشر، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.

(13) سليمان الباروني، المصدر السابق، ص 325 ـ 326.

حول الموضوع، تقييم (غابيللى) للظروف الايطالية آنذاك حين قال: ان المشاغل الدولية ومفاوضات الصلح الجارية ضد مصالحنا ومكر الحلفاء والفوضى، وعدم الانضباط فى الداخل، هذه كلها عوامل تدعو الى انهاء الحرب على أية حال تفاديا لاضرار أكبر[14]، وهى دواعٍ مثبطة للهمة عززتها مقاومة المجاهدين ووقفتهم الصلبة تجاه محاولات التوغل، فمع بلوغ القوات الايطالية درجة عالية من الاستعداد والاستنفار اذ أربى عددها على 80000 جندى مدعمين بشتى أنواع الأسلحة المتطورة من طائرات ومصفحات وقاذفات لهب، مع ذلك فقد منيت بتجارب مع قوات المجاهدين منذ أوائل فبراير غير مشجعة على الاطلاق، علماً بأن الظهير القارىء كان سنداً لقوات المجاهدين فى مناطق الدواخل (جفارة وظاهراً وقبلة وصحراء)، ذلك ان الجميع كانوا على استعداد للقتال دوماً ضد العدو، ومن أمثلة ذلك ان (أولاد بوسيف) رغم اعتراضهم من حيث المبدأ، والفعل، على دفع أية ضرائب لحكومة الجمهورية كانوا قد أبدوا استعدادهم لتقديم مقاتلين على الدوام[15]، وهٰذا يعود بنا إلى القول بأن مفاهيم الولاء للسلطة، إنما كانت لدى القبائل الموغلة فى البداوة حتى ذٰلك الحين لا تزال تنضوى تحت الولاء للقبيلة، وللحلف أولاً، وأخيراً للقيم العامة من دين وقوم وأمة، وما إلى ذلك من المشاعر الجامعة.

وهكذا تتخلى القيادة الايطالية عن خطتها لضرب العزيزية معقل الجمهورية وهى خطة كانت تستهدف خلق التأثير النفسى على المجاهدين، وكانت تنطلق من برنامج واسع لاحتلال الدواخل حتى فزان، محاولة استخدام (عبد الجليل سيف النصر) الذى يرتبط بحكم ولائه لمحمد ادريس السنوسى بعلاقات حسنة مع الدوائر الايطالية، ولكن وكما ذكرنا من متغيرات يتعلق بعضها بصلابة المقاومة الوطنية، وبعضها بالسياسة الدولية عموماً، تحتم ان تتغير الأهداف المرحلية لايطاليا فى ليبيا وتتخلى عن بعض تصلبها، فتسعى لاستئناف التفاوض من جديد.

(14) غابيللى، المصدر السابق، ص 134

(15) بيلاردنيللى، المصدر السابق، هامش ص 18.

الجولة الثانية: -

كما اختلفت المصادر فى تحديد مواقع الجلسات فانها تختلف أيضاً فى تواريخها، ولكننا نصل فى ذلك الى قناعة يمكننا أن نقرر معها بأن الجلسة الثانية كانت قد عقدت فى (خلة الزيتونة)، تاريخ 3 من ابريل 1919 م[16] وعلى اعتبارها بداية مرحلة جديدة يستأنف فيها التفاوض لبحث البنود التى يمكن أن توضع كأسس وقواعد لمرحلة جديدة، وقد ظل أعضاء الجمهورية على عنادهم بشأن الرفض المتعمد لحضور أية جلسة فى هذا المستوى «فلم يحضر من الجانب الوطنى سوى الهادى كعبار الذى وعلى بن تنتوش والصويعى الخيتونى ومحمد القاضى، واضطر المفاوض الايطالى الى قبول اعتذار الهادى كعبار أبدى أسفه لعدم استطاعة كبار الزعماء الحضور»[17].

وقد يبدو من دراسة أولية لهذه المرحلة من المفاوضات ان حكومة الجمهورية الطرابلسية كانت متنبهة، وعلى وعى بالألاعيب الدبلوماسية، وفنون التفاوض الأمر الذى يمكن ملاحظته بيسر من خلال القلق والتململ اللذين أبداهما المفاوض الايطالى، حينما جاء يحث على الاسراع، ويطلب الحسم، وحين رغب بالحاح فى حضور أعضاء المجلس الجمهورى بأشخاصهم للجلوس الى مائدة التفاوض، الأمر الذى تعمد أعضاء المجلس الجمهورى تجاهله، فلم يحضروا هذه الجلسة الثانية ربما لنفس المبرر الذى أوردناه سابقاً، ومن باب المعاملة بالمثل، كما ان الحاح الجانب الايطالى على مطلب حضور الزعماء أنفسهم لا يمكن فهمه قبل أن يتبادر الى الذهن، أن ذلك الالحاح انما كان يعبر عن موقف رسمى للحكومة الايطالية، فهو وان بدا شكلياً، الا انه يحمل أهدافاً ومضامين خطيرة، لأن قبول الوفد الايطالى بأن يجلس وفدان ايطالى وطرابلسى من الدرجة الثانية الى مائدة المفاوضات، ربما يعنى اعترافاً ضمنياً من الحكومة الايطالية بِندِّية الوفد الطرابلسى وبالتالى بِنِدِّيَّة حكومة الجمهورية الطرابلسية

(16) محمد فؤاد شكرى، المصدر السابق، ص 240

(17) المصدر نفسه، ص 240 - 241.

لحكومة روما المركزية، الأمر الذى لا يمكن للحكومة الايطالية أن تقبل به، وهو الموقف الذى يعكس النوايا الحقيقية التى تدور المفاوضات فى اطارها. ولكن ومن وجهة أخرى عندما يضطر رئيس الوفد الوطنى الى الاقتناع بوجهة نظر تارديتى نراه يقدم الاعتذار عن تغيب الزعماء، وانه عندما يفعل هذا انما يعترف ضمناً بأن من حق (الجنرال تارديتى) أن يطلب تبريرات من هذا النوع، كما لو أن حضور زعماء الجمهورية بأنفسهم كمفاوضين أمر واجب ولا غنى عنه، وهذا يجعلنا نذهب الى القول بأن وجهة النظر الوطنية فى هذا الأمر (تجاهل حضور الجلسات)، لم يكن متأتياً عن وعى كامل بأبعاد القضايا الدبلوماسية ووجوهها السياسية الدقيقة، بقدر ما كان يسير عبر عوامل أمنية داخلية أساسية، منها: ان هذه الزعامات كانت فى خشية من تجربة التفاوض مع الايطاليين بعد القناعة التى تولدت عن دعاية مركزة، ضد أى تفاوض مع العدو خلال الفترة التى أعقبت معاهدة لوزان عام 1912 م تلك الدعاية التى كانت تنطلق من بعض الزعامات التى تشارك الآن فى عملية التفاوض، وهذه القيادات حريصة على اقناع مقاتليها بشرعية وجدوى المذاكرات وفى الوسط المقاتل الذى يشكل قوامه من متطوعين دائمين أو مؤقتين، يحتاج الفرد الى اقتناع ذاتى بما بفعل قادته، ومن هنا نجد أن هناك ما يستدعى وقوف الزعماء على رؤوس قياداتهم فى تلك الظروف الحرجة.

هذا موقف، أما الثانى منهما فيمكن أن يرد الى كونه موقفاً أساسياً، نابعاً من الاحساس بقلة جدوى المحادثات، ما لم تقع متغيرات فى صلب الموضوع، تؤدى الى الاحساس بأن هناك تقبلاً لبعض المقترحات من باب الأخذ والعطاء، لأن الرفض المستمر من قبل الحكومة الايطالية، يعنى التنازل المستمر من قبل الجانب الوطنى، وهى حال تجعلها مفاوضات ليست شكلية فحسب، بل وعقيمة، الهدف منها واضح وهو فرض شروط الاستسلام، وذلك ما يفهم من تجاهل مطالب الزعماء المقدمة بتاريخ 18 أكتوبر من سنة 1918 م، ولا يستبعد أبداً ما ورد فى تحرير لأحد كبار المجاهدين من أن (تارديتى كان قد شعر بميل بعضهم الى الصلح دون قيد أو شرط أو أنه تلقى من بعضهم وعدا بالتخلف بقبائلهم عن الحرب اذا لم يحصل الاتفاق، ومن هنا كان قطع المذاكرات أكثر

من مرة)[18] محاولاً بذلك التأثير على معنويات المفاوض الوطنى، ومع ذلك كان الهادى قد بدأ بداية صلبة تجاه المناورات الايطالية لأن رده على المفاوض وهو يلح لمعرفة المطالب النهائية للزعماء، أن أحاله على المذكرة التى قدمها المجاهدون قبل ذلك فى اجتماع الخمس يوم 18 من نوفمبر 1918 م، والتى تعبر بنودها التسع[19] عن موقف استقلالى واضح ولأن الاخلال بأى بند من بنودها يعتبر طبقاً لنصها تعدياً وعودة الى حالة الحرب، وبذلك على رأى المفاوض الوطنى لا مندوحة عن الاعتراف بالجمهورية الطرابلسية، كما رفض المفاوض الوطنى بضعة مقترحات ايطالية تتعلق باعلان الهدنة، وتنظيم المعاملات بين الجمهورية والحكومة الايطالية المحلية، وتسليم الأسرى من العثمانيين والنسماويين والالمان، ذلك أن الجمهورية - وخصوصاً بالنسبة لهذا المقترح - كانت تختلف مع الدولة العثمانية فى موقفها حيال الأسرى وتعتبرهم ضيوفاً لديها، وليس كما تريدهم ايطاليا أسرى حرب[20] وليس من شك فى أن احالة الوفد الايطالى الى المذكرة الاولى يعتبر تذكيراً بأهم بند فيها، وهو مطلب الاعتراف بحكومة الجمهورية الطرابلسية، ومع أن مجرد جلوس ممثلى الحكومة الايطالية ندا لند مع ممثلى حكومة الجمهورية الطرابلسية يعتبر اعترافاً ضمنياً بكيانها، وبما كانت تباشره من سلطات، وتتمتع به من اختصاصات أهمها ولا شك المفاوضات باسم البلاد مع الحكومة الايطالية، وربما من قبيل تخفيف حدة المواقف حاول المفاوض الايطالى تحويل الانتباه نحو بضعة مقترحات، اعتبرها المفاوض الوطنى جانبية من مثل: اعلان الهدنة وتنظيم المعاملات بين الجمهورية والحكومة الايطالية المحلية،

(18) أبو القاسم البارونى، المرجع السابق، ص 109، من رسالة وجهها سليمان البارونى فى مهجره، إلى رئيس الحكومة الايطالية موسوليني مؤرخة فى 15 من ذى القعدة 1345 هـ - 17 من مايو 1927 م.

(19) انظر الأسس المقترحة من قبل الجمهورية للتفاوض فى موضع سابق من هذه الدراسة.

(20) يبدو هذا الموقف تعبيراً عن نقطة خلاف بين حكومتى الجمهورية الطرابلسية والدولة العثمانية التى أبرمت مع دول الوفاق اتفاقية هدنة مودروس، وهكذا فتسليم العثمانيين للقوى الحليفة يعنى التسليم بشرعية اتفاقية مودروس وبالبنود التى تضمنتها، وموقف الجمهورية الطرابلسية صريح فى الخصوص.

وواضح ان هدف المفاوض الايطالى من اثارة النقطتين هو محاولة ايجاد مبررات للتوغل نحو الدواخل، عن طريق اكتساب وتوثيق علاقات الحكومة الايطالية بالشعب فى الدواخل، وقد أبانت الخطط الايطالية السابقة عن فشل ذريع فى هذا المجال، حين حاولت اقامة شركات تجارية كبرى تديرها عناصر من شخصيات تعيش داخل المناطق المحتلة[21] وتقيم عن طريقها علاقات اقتصادية بسكان المناطق المحررة فى الدواخل، وفيما فشل المفاوض الايطالى فى تحقيق أهدافه مباشرة، فانه وبما يمتلك من خبرة فى فن التفاوض، تمكن من استدراج الهادى كعبار الى الاجابة عن سؤال ملح، يطلب رأيه الشخصى فى الموقف، وعما يرتئيه لمستقبل البلاد قال الهادى: «ان أغلبية الشعب تطالب بالجمهورية المستقلة، ولكنها تتقبل حكماً ذاتياً تحت حماية دولة كبيرة، قد تكون هذه الدولة هى ايطاليا، وعندها يمكن النقاش حول منح الجنسية الكاملة للطرابلسيين، عندما يتم الاعتراف بطرابلس مقاطعة ايطالية تتساوى مع غيرها داخل نطاق المملكة الايطالية»[22].

الجولة الثالثة: -

عقدت بخلة الزيتونة يوم 8 من ابريل 1919 م، وهنا لا يجوز أن نغفل الاشارة الى الدور المثير الذى صار يلعبه عبد الرحمن عزام كمستشار لحكومة

(21) على سبيل المثال: انشئت بتاريخ أول يونية من سنة 1918 م شركة كوماندية (تضامنية) للتعامل مع أهل البر واعلن قرار انشائها فى الجريدة الرسمية لحكومة القطر الطرابلسى العدد 11 تحت أمر ولائى رقم 30، من ستين عضواً، كما انشئت بتاريخ 3 من فبراير 1919 م شركة مشابهة أغلب المساهمين فيها من اليهود، يشكل مجلس ادارتها خلف الله ناحوم وعثمان القيزانى وشمعون حجاج وعبد القادر المنتصر وجوينوبيس وفينتشنتسيو أوستراتى وجوزيبى طيار ورودولفو كاجينسكى وابراهيم ركاح، واعلن قرار انشائها أيضاً بالجريدة الرسمية لحكومة طرابلس الغرب عدد 5، الصادر بتاريخ أول مارس 1919 م ص 67، 68، وتضم 120 مائة وعشرين يهودياً و20 عشرين ليبياً من المقيمين داخل الأسوار، ولا نستطيع الجزم بليبيَّة هؤلاء اليهود لانتماءات كثيرين منهم - بصورٍ خفية - لجنسيات أجنبية.

(22) غابيللى، المصدر السابق، ص 141.

الجمهورية الطرابلسية وكمناور سياسى، ساهم فى صنع تلك المفاوضات سواء فى ذلك خلال الفترة التى سبقت مباشرته عملية التفاوض الى جانب أعضاء الوفد الوطنى أم فيما بعد ذلك، اذ أصبح منذ هذه الجلسة يقود اتجاه النقلة السريعة من واقع الجمهورية الحرة، الى مطلب الحكم الذاتى الى المطلب الأكثر تواضعاً: (الجنسية الايطالية والمساواة من خلالها) ولعلنا نخرج بانطباع عام من خلال ما توفر لدينا ومن خلال التخمينات والأحكام الايطالية أو التى اعتمدتها، بأن عزاماً وهو يقود هذا الاتجاه التفاوضى، انما يمارس فنا من فنون المناورة السياسية المتقدمة وما يمكن أن نجد له شبيهاً فى تعريفاتنا الحاضرة فيما يدعى (بالمبادرات المحرجة)[23]، وقد حاولت الجمهورية الطرابلسية فى هذه الفترة أن تعرض مطالبها حين حسبت أن الفرصة مؤاتية، وكان ذلك على هيئة مشروع قرار قدمته عن طريق مفاوضيها الى الحكومة الايطالية، وقد يفهم من عبارة العنوان أن هناك استعداداً بل ربما اقراراً بأن حكومة الجمهورية الطرابلسية سوف تتنازل عن نظام حكمها الجمهورى ليتحول الى امارة، رغم أن بنود المشروع تجعل منها امارة من نوع محدث، وقد جاء فى هذه البنود:[24]

1 - يصبح القطر الطرابلسى امارة حرة تحت حماية الحكومة الايطالية.
2 - يتم انتخاب أمير مسلم كل ثلاث سنوات.
3 - يؤسس برلمان مكون فى ثلاثة أرباعه من عرب وفى ربعه النهائى من ايطاليين ويهود.
4 - الخدمة العسكرية الزامية فى جيش قوامه خمسة آلاف محارب.
5 - للامارة علم خاص بها.
6 - التعليم الابتدائى فيها اجبارى.
7 - تؤسس محاكم مختلطة مهمتها أن تفصل فى القضايا التى تحدث بين العرب والطليان.

(23) غابيللى، مصدر سابق، ص 125 - 140.

(24) الآنسة بينيلدى غابرييللى، المرجع السابق، ص 3 - 4، قارن بمحمد فؤاد شكرى، المصدر السابق ص 242.

8 ـ تعترف امارة طرابلس للحكومة الايطالية بأنها تحت اشرافها وتقبل أن يشرف على سياستها وشؤون الحكم فيها ممثل من قبل الحكومة الايطالية.

9 ـ تقبل الامارة أن ينشىء الطليان مراكز عسكرية فى البلاد.

10 ـ يقوم رجال السلك الدبلوماسى الايطالى بتمثيل المصالح الطرابلسية فى الخارج.

11 ـ لا تمانع الامارة فى أن تسك الحكومة الايطالية عملة ايطالية شريطة ألا تحمل الصليب.

12 ـ تقبل الامارة أن يرأس ايطاليون مجلس الخارجية وكذلك يعين غيرهم للاشراف على ادارات المالية والجمارك والمعارف والعدل.

13 ـ تعد بالمحافظة على مصالح الطليان الاقتصادية.

14 ـ يتمسك الطرابلسيون بأن يلقى مواطنوهم نفس ما يلقاه المواطنون الطليان أنفسهم من معاملة فى أنحاء المملكة الايطالية على قدم المساواة من غير تفرقة.

15 ـ الحقت الجمهورية الطرابلسية شرطها هذا احتياطاً وفحواه: ان لحكومة أو امارة طرابلس الحق فى أن تأخذ بكل ما يصدره مؤتمر الصلح العام من قرارات، قد لا تتضمنها نصوص هذه المواد الأصلية أو اللاحقة ما دامت تجد فى التمسك بهذه القرارات فائدة تعود عليها.

ولكن وعلى الرغم من كل هذه التنازلات، لم يلق مشروع قرار المفاوض الوطنى (امارة طرابلس) قبولاً لدى الدوائر الايطالية، التى رفضت مبدأى الاستقلال والحكم الذاتى، وعندها اضطر المفاوض الوطنى للعودة من جديد الى التمسك بالمبادىء الدولية وأهمها: مبدأ تقرير المصير الذى تمخضت عنه الثورة الفرنسية الكبرى، وكان أيضاً أول وأبرز نقاط الرئيس الامريكى ويلسون المشهورة، (التى قالت بها الدول كافة، وذلك يعنى اعترافها بحق الشعوب المغلوبة على أمرها فى تقرير مصيرها وان ذلك المصير يجب أن يكون نتيجة لمداخلات الدول الكبرى وتحكمها فى مصائر الدول الصغرى)[25]. ومنذ تلك

(25) د. محمد فؤاد شكرى، المصدر السابق، ص 243. =

الجلسة فقد اعتزم عزام ـ على ما يبدو ـ المواظبة على المشاركة شخصياً الى جانب زملائه من أعضاء الوفد الوطنى، خاصة وانه وجد فى بعضهم ميلاً الى التنازل عن تمسكهم بالجمهورية مقابل اعتراف ايطاليا باستقلال ذاتى للبلاد، على أن يقوم فيها نظام يشبه الدومينيون فى جنوب افريقيا[26].

الجولة الرابعة: ـ

بدأت أولى جلساتها يوم 10 من أبريل، وقد حضرها غالبية زعماء الجمهورية، الأمر الذى دعم موقف المفاوض الوطنى، وكما استفتحت المطالب الوطنية بضرورة الاتفاق على تنصيب (أمير مسلم) يجمع مظاهر السلطة الدينية فى هذه الامارة المزمعة، فقد اختتمت الجلسة بالاصرار عليه كأهم مطلب، وعندما أصر المفاوض الايطالى على رفضه، ربما تمشياً مع الاهداف التى توخاها، والتى اعتقد انها قريبة المنال، وان مطلب الأمير والامارة يؤخران تحقيق تلك الأهداف، بعد الذى انكشف من أوراق المفاوض الوطنى، وفيما كان المفاوض الايطالى لا يزال على اصراره مثبتاً عدم المرونة وقلة التفهم، وفيما يمكن أن يفسر على انه عودة الى موقف أساسى للمفاوض الوطنى، فقد وقف عند هذه القضية مطالباً الوفد الايطالى بالعودة الى حكومته المركزية فى روما، لأن القضية ـ فى رأيه ـ تستلزم رأياً قاطعاً، ويتقدم رمضان السويحلى الذى حضر لأول مرة ليطلب من الوفد الايطالى ابلاغ رجلين يحمل كلاهما جنسية أجنبية أولهما هو خلف الله ناحوم[27] وجنسيته ايطالية والآخر مالطي يعمل مترجماً فى القنصلية الانجليزية

= (قارن) د. رياض عبد الصمد، العلاقات الدولية فى القرن العشرين، جـ 1، لبنان، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (ش.م.م)، د. ت، ص 76.

(26) عبد الرحمن عزام، المصدر السابق، ص 231، والدومينيون: اقليم يتمتع بقدر من الاستقلال الذاتى، ويخضع مع ذلك لاشراف ملك أو حكومة معينة، ويستعمل هذا الاصطلاح بصفة خاصة للاشارة الى الوحدات ذات الاستقلال الذاتى التى تضمها الامبراطورية البريطانية، الموسوعة الميسرة، ص 821.

(27) يدعوه الزاوى، المصدر السابق، ص 348 بـ خلافو ناحوم لا خلف الله كما يرد فى =

ابلاغهما عن طريق الجنرال تارديتى كى يسمح لهما بالحضور الى فندق بن غشير، لحضور المباحثات التى ستجرى هناك، واذا كانت المصادر الايطالية على وجه الخصوص تؤكد على بعد عزام وخبرته السياسية التى شحن بها هذا الدور من المباحثات فاننا نترك لانفسنا حق التساؤل، لم يشرك الرجلان فى المباحثات؟ هل هى فقط حاجة المفاوضين الى مترجمين؟ أم أن الأمر يتجاوز ذلك الى أمور أخرى ربما يكمن وراءها الدأب البريطانى المعروف فى أن تدس بريطانيا أَنْفَهَا فى قضايا المشرق الاسلامى والعربى باستمرار ان لم يكن بالتوجيه فبالتجسس والدس، ولعل أبلغ السوابق فى ليبيا ما وقع فى الزويتينة وعكرمة حين أمكن للعقيد البريطانى (تالبوت ـ TALBUT) خلال عامى 1916 و1917 م قيادة مباحثات خطيرة فى تاريخ ليبيا المعاصر، وعلى أية حال لم تكن ايطاليا على استعداد فى هذه الفترة للمضى قدماً فى تشجيع بريطانيا على التدخل، ولم يسمح للمترجم المالطى بالانضمام الى ندوة المفاوضات فى خلة الزيتونة بينما سمحت لليهودى بذلك[28].

مذكرة الجمهورية: ـ

يبدو أن الوفد الوطنى أصبح محكوماً الى طريقة معينة فى تعامله مع الوفد الايطالى اذ ربما كان مستنداً الى تعليمات محددة من حكومته الجمهورية التى أصبحت مشاركة بالفعل الى جانب وفدها فى التفاوض، هذه التعليمات ربما هى

= المصادر الأخرى مثل: البارونى، المصدر السابق، ص 335 وغابيللى، المصدر السابق، جـ 1، ص 144، ونحن مع الزاوى فى نعته له بخلافو، فقد يتفق هذا وسلوك اليهودى، حين يتعمد خلافو التوقيع بخلف الله من قبيل التقرب وطلب الالفة.

* غابيللى، المصدر السابق، ص 144.

(28) انظر بشأن التدخل الانجليزى الذى أزعج الحكومة الايطالية ما أورده غابيللى فى الخصوص من «ان العمل الانجليزى فى مصراتة اثار الدهشة، وساعد على تغليب ما ذهب اليه رمضان الشتيوى من طلب الحماية الانجليزية، حتى يتفادى ما يخشاه من انتقامنا» المصدر السابق، ص 126، وبخصوص مقترح اشراك عنصر مالطى (بريطانى الجنسية) فى الجهد التفاوضى، انظر المصدر نفسه، ص 144 وص 147.

التى اضطرت كعبار أن يكتب المذكرة تلو المذكرة، كانت آخرها بعنوان: مذكرة الحكومة الطرابلسية، لبيان الأسس الضرورية التى يجب أن يقوم عليها الاتفاق لتجنب الحرب والوصول الى حل جميع الصعوبات، وذلك حتى يبدأ عهد من السلام والصداقة مع الحكومة الايطالية، وهذا الأسلوب من اعتماد التحرير أكثر من الأحاديث الشفاهية يعتبر أيضاً تحولاً الى موقف أكثر جدية، فضلاً عن تعمد صياغة الخطاب وتوجيهه من حكومة الجمهورية الطرابلسية الى الحكومة الايطالية الخ...، مما يضغط على الدوائر الايطالية التى تُسوِّف بشأن مبدأ الاعتراف بالجانب الذى تفاوضه.

وقد جاءت مذكرة الجمهورية الطرابلسية المقدمة متضمنة للنقاط التالية: ـ

1) مطالبة الأمة الطرابلسية بالحكم الذاتى كحق من حقوقها الطبيعية.

2) استعداد حكومة الجمهورية لأن تقبل صلحا يحفظ لدولة ايطاليا شرفها بين الدول، ولكن على شريطة ألا يكون فى هذا الصلح أى مساس باستقلال طرابلس، وأما اذا كانت ايطاليا ما تزال منساقة الى استعمار طرابلس بسبب ما تراه من احتلال الانجليز للقطر المصرى، فواجب ايطاليا، أن تذكر أن زمان الاستعمار قد ولى وانقضى، وان ما كان يحدث فى السنوات الماضية أصبح حدوثه مستحيلاً فى هذه السنوات العشرين من القرن الحالى، ولا يمكن بحال أن تسود فى هذا العصر تلك المبادىء القديمة التى تأثر بها رجال السياسة فى القرن التاسع عشر، ناهيك بما يحدث فى العالم أجمع من تطور ظاهر نحو المبادىء الحرة والمثل العليا للديمقراطية.

وعلى أية حال ـ وكما ألمحنا سلفاً ـ فاننا لن نذهب بعيداً فى تحميل الموقف الوطنى أكثر مما يتحمله، اذ لا نعتبره عودة جادة الى موقف أساسى وثابت، فهذا مقترح (الأمير المسلم) ذى الطابع الشكلى حيث الأمير لا يجمع فى يديه سوى (مظاهر السلطة الدينية)، أى انه الأمير بلا امارة، لا يتمتع بأية سلطة فعلية اللهم الا أن يظهر فى المناسبات والأعياد، كما كان الشأن بالنسبة لنائب السلطان

شمس الدين[29] فى طرابلس اثر معاهدة لوزان الأولى، هـذا المقترح ـ رغم ضعفه ـ لا يجد القبول، أما انزعاج الدوائر الايطالية فـانما يعـود فى رأينا الى اسلوب المناورة الذى صار الجانب الوطنى يسلكه أيضاً اثر مباشرة عزام عملية التفاوض، كما تخشى تلك الدوائر فعلاً من الآثار التى يمكن أن يحدثها هـذا الأسلوب فى تفويت فرص النيل من صلابة الموقف الوطنى والجبهة ككل. على ان من وظيفة المفاوض وخصوصاً بعد غلبة الجوانب التخصصية لدوائر دول الاستعمار الحديث، أن يُجوِّز امكانيات التحول عن مقـترح الى آخر دون أن يحدث الضرر بمصالح بلاده، وكثيراً ما حاولت إحكام امورها فى ذلك بحيث تسير رتيبة أحياناً ولكنها منطقية وموضوعية، يمكن الحاق أخراها بأولاها بترتيب دون احداث خلل، وبالنسبة لما حدث فعلاً، فان المصادر الايطالية تتحدث عن حدوث هذا الخلل، من ذلك أن مناورات رمضان بعد أن رمى بكل ثقله على مائدة المفاوضات ومخاطبته عدة أطراف ربما أوحت، أو على الأقل ألقت بعض الظلال على نوايا الرجل تجاه القوى الكـبرى المتحكمة آنـذاك، منها عـلاقته ببريطانيا حين يشير بعضهم الى ميول رمضان ـ كما أسلفنا ـ الى طلب الحماية البريطانية[30]، واذا كان للرجل أن يفعل ذلـك مناوراً من أجـل الوطن وفى سبيل التأثير على الموقف الايطالى الذى لم يتزحزح فى الواقع، فان له تجارب شخصية تفسر ضعف ثقته بالحكومة الايطالية وأساليبها فى التعامل، اذ لا يزال أخواه احمد السويحلى ومحمد سعدون السويحلى رهن الاعتقال فى سجون ايطاليا، منذ عام 1915 م بعد القبض عليهما فى أعقاب معركة القرضابية، والرجل من باب المحاولة يتدخل بما يجعلها تخفف من تعنتها، حيال المطالب الوطنية العامة ـ فى رأينا ـ فليس فى ما عرفنا من طباع رمضان التخلى عن معتقلى الوطن والوطن المعتقل بذاته الا أن يكون فى الأمر متغير أكبر.

(29) ورد اسم (شمس الدين بك) كـأول نائب للسلطان يعينـه السلطان العثمانى ضمن ملاحق معاهدة لوزان الاولى 18 أكتوبر 1912 م.
انظر الزاوى: المصدر السابق، ص 151، أيضاً محمد عبد الكريم الوافى، الطريق الى لوزان، طرابلس ـ ليبيا، دار الفرجانى، 1398 هـ ـ 1978 م ص 203.

(30) غابيللى، المصدر السابق، ص 126.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فان بعض الزعامات الوطنية كـانت تحاول جاهدة بدافع الحرص على أمنها أن تحصل على وعد قاطع بالعفو عنها بسبب ما بذلته من مقاومة للغزو الايطالى الأمر الذى تعتبره إيطاليا جريمة ارتكبتها تلك الزعامات فى حقِّها وضد رسالتها الحضارية الأمر الذي لا نجد له تفسيراً الآن سوى أن هذه الفئات المجاهدة لم تكن لتثق فى مستقبل التفاوض، وتخشى أن ينتهى الى استسلام أنفس كما تريد له ايطاليا وليس الى سلام حقيقى وهو أمر مستبعد على أية حال، وهكذا يمكن وضع القضية فى اطار ايضاحى حيث يمكن أن يفسر تغير الموقف الوطنى، وتسلم الحكومة الايطالية لمذكرة الجمهورية الطرابلسية، الذى جاء مخيباً لآمال الدوائر السياسية الايطالية المتخصصة، بأن الجانب الوطنى المقابل لم يكن يتعامل بنفس الاسلوب، ولم يكن ليجدى معه ما يمكن أن يعرف بنظرية النمط أو الاتساق[31]، والأمر الثانى ان الدوائر المومأ إليها لا تزال ـ على رأينا ـ وحتى ذلك الحين فى حاجة الى دراسات جادة، فى مجال الحياة الاجتماعية، على وجه الخصوص يمكن أن تسترشـد بها فى وضـع تساؤلات وتوقع نتائج معينة، والا فكيف تتوقع الحكومة الايطالية استجابات أكثر تواضعاً[32]، من مثل التخلى عن مطلب الأمـير المسلم والقبول بـالأمير الايطالى، غير ان اصرار الجانب الوطنى على مطلب الأمير المسلم الذى يتولى أمور الولاية بالانتخاب، وعلى أن تتكرر عملية الانتخاب كل ثلاث سنوات، جاء ليحمل دلالة أخرى على احتمال استمرارية النظام الجمهورى الانتخابى.

ومن جهة أخرى ثبت زيف الاشاعات الـذائعة خـلال الفترة والقـائلة بوجود علاقة بين زعماء الجمهورية الطرابلسية والسنوسية.

وهكذا وبالاضافة الى ما ذكرنا، فان الدوائر السياسية الايـطالية، التى تعمل من خلال خطة محددة كانت تتخذ العمل على تشتيت قوى المجاهدين

(31) غابيللى، المصدر السابق، ص 143

(32) نعنى بها تلك الرؤى المحددة بحسابات التوقع، تلك التى تضعها دوائر تناط بها مهمة وضع الاحصائيات وتوقع النتائج.

وسيلة للوصول الى غايات واضحة وهى السيطرة على تلك القوى ممثلة فى أبرز تنظيماتها (الجمهورية الطرابلسية).

ونتيجة لهذا التغير الى جانب الظروف الدولية العامة ذات العلاقة، فان الحكومة الايطالية لم تكن حتى ذلك الحين لتفكر فى العودة الى منطق القوة ولا فرض السيادة التى فقدتها على غالبية التراب الليبى منذ تجدد أحداث الثورة عام 1914 م، ولأنها كانت قد خاضت آخر تجربة لها ضد قوات الجمهورية - كما مر بنا - ولم تتقدم شبراً واحداً بعد احتلالها المنطقة الساحلية التى لا تعدو المساحات التى يغطيها مدى القصف البحرى، ولأن رئيس الحكومة الايطالية[33]، وكان آنئذ فى باريس، يشارك فى حضور جلسات مؤتمر الصلح، وكان يفكر فقط فى الحفاظ على ليبيا بأقل قوات ممكنة لسببين رئيسيين: -

أولهما: ارضاء للرأى العام الذى يطالب بتخفيض القوات.

وثانيهما: انه يجب التفكير فى موضوع الانتداب فى الاناضول وهو أمر قد يحتاج الى تركيز جهود أكبر.

وهكذا نثرت الحكومة الايطالية وريقات التفاوض لتجد أن أهون المقترحات وأقربها للقبول، هى تلك المتعلقة بمبدأ منح الجنسية الايطالية للطرابلسيين، على شريطة تأمين السكينة والهدوء فى البلاد، وقد بادر الوالى الايطالى (فينتشنسيو غاريونى) فاستدعى أعيان المنطقة المحتلة فى طرابلس، والتأم جمعهم بالوالى يوم 14 من ابريل، ليبلغهم موافقة الحكومة المركزية على مبدأ منح الجنسية الايطالية لجميع الطربلسيين، الى جانب المساواة التامة المطلقة أمام القانون بين الطرابلسيين والطليان.

(33) اورلاندو، فيتوريو عمانويل: 1860 م - 1952 م، شغل منصب رئيس الحكومة الايطالية ما بين عامى 1917 م و1919 م، وكان أحد الأربعة الكبار فى مؤتمر الصلح (فرساى) عام 1919 م، انسحب من اجتماعات المؤتمر لوقوف الرئيس ويلسون أمام تحقيق مطالب ايطاليا المتفق عليها مع بريطانيا وفرنسا فى معاهدة لندن السرية عام 1915 م، واستقال بعد ذلك، وكانت له مواقف معادية للفاشية فى ايطاليا.

الجولة الخامسة: -

ابتدأت جلسات هذه الحلقة فى نفس التاريخ الذى انعقد فيه اجتماع أعيان المنطقة المحتلة الذى دعا اليه الوالى الايطالى يوم 14 من ابريل - كما أسلفنا -، ويبدو أن هدف الحكومة الايطالية الرئيسى من هذا الاجتماع كان لابلاغ زعماء الجمهورية قرار الحكومة المركزية، وهو القرار الذى كان يحمل تاريخ (الرابع من مارس 1919 م)، وبهذا التاريخ الرجعى، يمكن تفهم أن المفاوضات كانت تدور فى اطار لعبة كبرى تديرها لحساب الحكومة المركزية دائرة السياسة الايطالية العسكرية فى طرابلس، وانها كانت تعد المقترحات والمقترحات البديلة كمبادىء متجانسة، بل يمكن القول بأنها ربما أوحت بها الى بعض المفاوضين بصورة أو بأخرى، مما تتضمنه افانين اللعبة السياسية، حتى تلقى الرضا والقبول، ولتبدو كأنما هى مقترحات وفد الجمهورية الطرابلسية، وهكذا فقد تضمن قرار الحكومة الايطالية ذاك (11) أحد عشر مبدأ هى: -

1 - اعتراف الحكومة الايطالية بالجنسية الايطالية للعرب فى طرابلس، ولكل من ولدوا بها، كما أن فى استطاعة هؤلاء أن يحصلوا على الجنسية فى ايطاليا ذاتها بشروط، وفق اجراءات رسمية معينة.

2 - تقرير مبدأ المساواة المطلقة أمام القانون بين الطليان والطرابلسيين، على أن يترك للطرابلسيين قوانينهم الخاصة بالأحوال الشخصية ونظام الارث.

3 - ضمان الحرية الشخصية، وعدم الاعتداء على المساكن، واحترام حقوق الملكية، وتقرير حرية التعليم والاجتماع والصحافة والانتقال والاقامة وتقديم العرائض للبرلمان الوطنى، وكل ذلك فى حدود القانون العام.

4 - احترام الشعائر الدينية والتقاليد والعادات.

5 - الاعتراف بحق المواطنين الجدد من عرب واسرائيليين فى أن يتقدموا الى المسابقات التى تعدها الحكومة لملء الوظائف المدنية والعسكرية المحلية على شرط أن تكون لديهم المؤهلات والشهادات اللازمة، والحق فى ممارسة المهن الحرة كالطب والهندسة والمحاماة، وما الى ذلك فى ايطاليا ذاتها، ما داموا مؤهلين.

6 ـ جعل الخدمة العسكرية اختيارية.

7 ـ تعميم الضرائب بحيث يدفعها جميع الأشخاص المقيمين فى القطر الطرابلسى، على أن تخصص حصيلة تلك الضرائب للانفاق على مرافق البلاد ذاتها، وادارة شؤونها، علاوة على ذلك، فان موافقة المؤسسات والمجالس الوطنية المنتخبة ضرورية، وقبل البت فى نوع الضريبة التى يراد جبايتها وفى طرق توزيعها.

8 ـ اشتراك جميع المواطنين فى أعمال الادارة العامة عن طريق مجالس البلديات ويفصل حق الانتخاب وفق شروط سوف يعلن عنها.

9 ـ اصلاح ادارة القضاء طبقاً للعادات المحلية السائدة وقواعد الشريعة الغراء، وعلى أن يشترك فى هذه الادارة العرب والطليان على السواء فيشغل الفريقان وظائف قضائية هامة.

10 ـ قيام الحكومة بأعباء التعليم المدنى وفتح أبواب هذا النوع من التعليم لجميع المواطنين، واصلاح معاهد العلم الموجودة فعلاً، حتى يتمكن أهل البلاد من ارتياد المدارس الثانوية، وكذلك المدارس العالية عند انشائها، ثم جعل التعليم الابتدائى اجبارياً.

11 ـ تعين لجنة مؤلفة من أعضاء نصفهم عرب والنصف الآخر من الطليان والاسرائيليين، مهمتها وضع الأنظمة اللازمة لتنفيذ هذه الشؤون طبقاً للمبادىء الأساسية المذكورة فى هذه البنود، ولهذه اللجنة كذلك أن تقترح تغيير القوانين المعمول بها، وقد تعهدت الحكومة بتشكيل هذه اللجنة فوراً[34].

وكما هى الظروف دائماً تحكم سلوك الأفراد والجماعات، فقد وجد الوفد الوطنى محكوماً الى الانصات، لا لأنه وجد فى القرار الايطالى بعض ما اقترحه ـ ولو بصورة شخصية ـ رئيس وفده الهادى كعبار فحسب، بل لأنه ملزم بابلاغ فحوى القرار الذى تبدو من خلاله لأول مرة، عناية الحكومة المركزية واهتمامها بانهاء القضية.

(34) شكرى، المصدر السابق، ص 244 ـ 245.

وكما أسلفنا فان الاصرار على ختم قرار الحكومة بتاريخ رجعى هو الرابع من مارس، انما جاء ليحاول التأكيد على قوة موقف الجانب الايطالى من المفاوضات، وحتى لا يتسرب الشك الى أن هناك أى خلل فى الموقف السياسى والاقتصادى والعسكرى فى ايطاليا وذلك حين يكون (القرار الأخير) صادراً عنها، كاستجابة لموقف الجمهورية الأخير، ورضوخاً لمطالبها، التى كانت تعتبرها متشابهة. ورغم ابلاغ الحكومة الايطالية للوفد الوطنى بفحوى الاعلان السالف الذكر، الا انه لم يكن قد تضمن أية اشارة فى بنوده الاحدى عشرة الى القانون الأساسى الذى سوف يستخرج من بينها، أو يأتى نتيجة لما يتمخض عنه أى اتفاق مع المفاوض الوطنى الليبى ربما حتى تترك بذلك فرصة أمام المفاوض الايطالى يمكنه استغلالها للاعراب عن تنازل جديد، تتفضل به الحكومة الايطالية كعادتها، يأخذ شكل قانون أساسى أو ما أشبه، أو ربما لأن هذه الحكومة كانت تتحاشى تقديم وعود من هذا النوع، قد تخالف مبادءها السياسية واهدافها التوسعية.

ويلاحظ أن وقائع اليوم كانت تتسم بالاهمية بحيث جعلت من الضرورى عودة الوفد الوطنى الى قيادته السياسية لعرض النقاط المستجدة للنقاش أمام أعضاء المجلس الجمهورى، وبقية الزعامات التى تتمثل غالباً فى أعضاء مجلس شورى الجمهورية، وعلى الرغم من ذلك فقد حضر الى جانب رمضان السويحلى وعبد الرحمن عزام بقية رجال الوفد التفاوضى الوطنى، وشخصيات وطنية أخرى[35]، على أن الجانب الايطالى لم يبعث بوفده الرسمى مكتفياً باليهودى المدعو خلافو ناحوم، الذى جاء استجابة لطلب رمضان، وفعلاً تولى المهمة المناطة به، وبدلاً مما كان يتوقع منه من أداء واجبه فى الترجمة ونقل الأفكار بين

(35) جاء فى كتاب غابيللى أن «ممثلى الحكومة الايطالية لم يحضروا يوم 14 من ابريل الى قصر بن غشير، وحضر فقط اليهودى الطرابلسى، الذى كتب اليه رمضان يطلب منه الحضور» المصدر السابق، ص 147، وذلك خلافاً لما أورده غراتسيانى من أن «تارديتى عاد الى طرابلس على الساعة السابعة من مساء 14 من ابريل عائداً الى مدينة طرابلس «المصدر السابق، ص 25.

الطرفين، ومن محاولة التأثير فى الجانب الايطالى، كان الرجل ـ بدلاً من ذلك، وكما عرف فيما بعد ـ، يقوم بجس نبض الوفد الوطنى، ومعرفة المرامى التى يطمح اليها، كى يبلغها الى الحكومة الايطالية، ومن انطباعاته الأساسية عن مطالب الزعماء النهائية، انهم رغم الاصرار على مطلب الأمير المسلم، ربما تنازلوا وتخلوا عنه، بشرط تأسيس مجلس أمة تنفيذى (أى مجلس حكومة) يتولى تعيين الاداريين من متصرفين وقائمقامين ومديرين يرأسه الوالى، أو ما عبر عنه بسلطة الزعماء التى سيباشرونها نيابة عن الحكومة الايطالية التى تتولى الاشراف على هذه السلطة، الأمر الذى هنأ عليه الوفد الايطالى نفسه، واعتبره خطوة متقدمة ووصولاً الى اتفاق مبدئى حول تقاسم الأمر كله (سلطة الزعماء على السكان، خاضعة لسيادة الحكومة الايطالية)، وفى ذلك حل للاشكالية التى كانت تخشاها الحكومة الايطالية من تداخل السلطة والسيادة.

ولكن مما يسجل هنا عن مشاعر رجال الوفد الوطنى وهم يغادرون قصر بن غشير فى مساء يوم 14 من ابريل كل الى منطقته انها كانت تطفح بالأسى والغضب ذلك أنها ـ على رأيهم ـ مفاوضات تبدو عقيمة ولا جدوى من استمرارها.

وهنا قام رمضان بمحاولة ربما كان يعتقد أنه يتدارك بها الموقف التفاوضى، الذى أشرف على الانهيار، فاستدعى على وجه السرعة كلا من الهادى كعبار ومحمد الصويعى الخيتونى والحاج فرحات القاضى، وقد يبدو هنا وجها تناقض فى موقف الزعامات الوطنية من متشكك وواثق، وفى الحق هنا لا بد لنا من أن نتبين بعض الفوارق الفكرية بل والمبدئية، بين هذه الزعامات وهى تخوض هذه التجربة السياسية والدبلوماسية لأول مرة، يخوضها الفرد من هؤلاء مدفوعاً اما بعقيدته الدينية أو بمصلحته الشخصية أو بانتمائه القبلى الاجتماعى، وأخيراً بفكرته القومية أو العثمانية الاسلامية، كما ان الذين قالوا بحرمة الجهاد عشية معاهدة (لوزان) 1912 م لا يزالون فى الحلبة أيضاً الى جانب من قالوا بحرمة الصلح ووجوب الجهاد آنذاك[36]، وكما أشرنا فى غير موضع كانت العلائق بين

(36) إشارة إلى ما وقع من خلاف بين زعماء الجهاد حول فكرة مواصلة الجهاد عشية توقيع=

هاته الزعامات فى غالبها انما تقوم على ذلك العرف التقليدى الخير من المجاملات (جبر الخواطر) ولما لا يخفى من وجود ترسبات من بقايا تلك المواقف المختلفة، وبقطع النظر عن منطلقات كل فريق ومبرراته، فانه لا يستغرب أن يقف فريق دون آخر يحاول التقدم، أو الاستئثار، وهذا هو فعلاً ما حصل من قبل رمضان السويحلى، يدفعه دفعاً مستشاره الحميم عبد الرحمن عزام، الذى رأى أن يستعجل نهاية التفاوض، وآراء عزام واضحة فى الخصوص، وحين كان يتعامل بمنطق السياسى قال عن هذه الفترة الدقيقة: ـ «كنا نعرف أن حالة البلاد لم تكن تسمح باستمرار القتال الى ما لا نهاية أو على الأقل حتى يتسنى لها تحقيق جميع مطالبها، فقد كانت مواردها قد أخذت تنضب شيئاً فشيئاً، وكنا فى نفس الوقت أكثر الناس ادراكاً بأن اتحاد الزعماء كان قائماً على الخوف من فتك العدو بهم الواحد بعد الآخر... وكنا نعرف أيضاً أن بعض هؤلاء الزعماء يسايرون الحركة الوطنية على يأسهم من نتائجها خوفاً من أن ينتقم منهم خصومهم، كانت هذه حالتنا عندما بدأت المفاوضات، وفى ذلك الوقت لم نكن ندرى شيئاً عما كان يعانيه الايطاليون أنفسهم فى بلادهم ولا عن عصيان جنودهم الذين أنهكت الحرب قواهم ولا عما يكابدونه من حلفائهم اثناء مفاوضات مؤتمر الصلح فى ڤرساى»[36]. واذن فهل كان المجاهدون على علم بما يدبر على الساحة العسكرية فى طرابلس؟

لا شك ان حركة الامدادات العسكرية المتواصلة غير خافية، ولا يمكن الا أن تكون كذلك بالنسبة للمسؤولين فى حكومة الجمهورية الطرابلسية، وحتى من باب التظاهر العسكرى الايطالى واستعراض العضلات كان ينبغى أن يعلن عنها كلياً أو جزئياً ان لم يبالغ بشأنها بهدف احداث الاثر المناسب على الروح

= معاهدة أوشى فى 18 من أكتوبر سنة 1912 م؛ حينما انقسم المجاهدون فى القطاع الغربى من ليبيا إلى فريقين: ـ فريق يؤثِّر عليه من زعماء المناطق المحتلة أحمد ضياء الدين المنتصر ويتزعمه محمد فرحات الزاوى قال بحرمة الحرب، وفريق آخر تزعمه سليمان الباروني وقال بحرمة الاستسلام ووجوب مداومة الجهاد، أنظر فى ذلك: ـ سليمان الباروني، صفحات خالدة، الكتاب الأول، مصدر سابق، ص 352.

(36) عبد الرحمن عزام، المصدر السابق، ص 231.

المعنوية للمفاوض الوطنى، فمن ذلك مثلاً الاعلان عن وصول فرق عسكرية مجهزة الى الأراضى الليبية بلغت طبقاً لغراتسيانى ثلاث قيادات فرق، تشمل 56 كتيبة مشاة و29 بطارية فضلاً عن الحاميات الموجودة أصلاً فى طرابلس وزوارة والخمس، وهذه القوات مجتمعة[37] كان عليها والمفاوضات جارية، الاستعداد لتلقى أوامر فورية بالزحف على سوانى بن آدم ثم العزيزية، وكان ذلك يؤجل باستمرار بسبب ما يجرى من مفاوضات.

ونحن الآن على يقين من أن قصة الزحوف الايطالية المزعومة، لم تكن سوى ايعازات يراد بها احداث الهزة النفسية لا أكثر، ورغم ما جاء فى كتابات عسكريى الفاشية (فيما بعد) من أمثال غراتسيانى وبيتشولى وغيرهما من (أن جيوشهم كانت على استعداد للزحف والانتصار والانتقام لجميع اللطمات والاذلال الذى تحمله جنود ايطاليا منذ عام 1915 م)[38] فان الأمور لم تكن تبدو فى واقعها كما يصورها هؤلاء ممن تمسحوا بأذيال الفاشية، وزيفوا لها حقائق التاريخ، فان واقع الحال أن الحديث عن الحسم شىء مختلف والحسم نفسه، عبرت عنه تلك التجارب المريرة التى خاضتها الفرق العسكرية الايطالية، ومنيت فيها بالخسائر الفادحة، وهى تحاول التوغل أمتاراً نحو الداخل.

الجولة السادسة: ـ

استجابة لنداء رمضان وجهوده من أجل انهاء عملية التفاوض حضر على الموعد المحدد عن الجانب الوطنى من ذكرنا وهم: رمضان السويحلى والهادى كعبار ومحمد الصويعى الخيتونى والحاج فرحات القاضى كما حضر الوفد الايطالى برئاسة الجنرال تارديتى وذلك يوم 16 من ابريل[39]، وبالنظر الى أهمية هذه

(37) غراتسيانى، المصدر السابق، ص 24، وطبقاً له كان فى طرابلس ما يقرب من 80000 جندى، وطبقاً لغابيللى، المصدر السابق، ص 136 فقد بلغ عدد القوات الايطالية العاملة فى طرابلس الغرب يوم 1 من ابريل 2085 ضابطاً و70100 جندى.

(38) غراتسيانى، المصدر السابق، ص 25.

(39) بينيلدى، المرجع السابق، ص 4، قارن مع شكرى، المصدر السابق، ص 245.

الجلسة، من حيث حضور من حضر يحدوه الحماس لاداء مهمة تبدو محددة، فقد أحس المفاوض الايطالى بأن جلسة اليوم قد تكون الحاسمة، الامر الذى حدا به الى تقديم ضمانة تكفل موافقة بقية الزعامات الأخرى الرئيسية على قرارات اليوم، فيتقدم رمضان بالكفالة المطلوبة، وهكذا كان لنشاط رمضان منذ مباشرته شخصياً عملية التفاوض أثره فى ازدياد شخصيته حظوة وتقديراً لدى الدوائر الايطالية المسؤولة، اذ عرفت فيه تقدماً وصدارة وربما أدركت منه قوة لا بد من اعتبارها.

عاد الوفد الايطالى الى اثارة مواد الاعلان الايطالى الأخير، الذى تنعته المصادر الايطالية بالتنازلات أحياناً وبالامتيازات الممنوحة أحياناً أخرى، ومنذ البداية اتسمت عملية التفاوض بشىء من المرونة، اذ لم يرفض الوفد الوطنى المقترحات، ولكنه أراد مناقشتها جذرياً، وكانت قضية (الأمير المسلم) أولى القضايا التى عرضها الجانب الوطنى، وقد حاول الوفد الايطالى ايجاد البديل المرضى عن هذا المطلب الذى وجد القبول لدى الجانب الوطنى، وهو أن تمنح اختصاصات أوسع للمجلس الولائى المقترح (البرلمان الولائى)، وبسقوط مطلب (الأمير المسلم) انتهى الجانبان الى الاتفاق حول تشكيل لجنة مؤلفة من ثمانية من العرب (يعينهم البرلمان الولائى) يرأسها الوالى.

وقف العمليات العسكرية: يمكن القول بأن التسلسل المنطقى، كان قد بلغ مرحلة متقدمة يمكن معها اعتبار هذه الجلسة التى جرت وقائعها فى اليوم 16 من ابريل 1919 م جلسة شبه نهائية، وانما تبقى شكليات الجلسة النهائية، ومن الطبيعى والحال هذه، أن يتم الاتفاق حول سيادة مظهر يبدو فيه حسن نوايا الطرفين، وهكذا فقد تم توقيت بداية هذه المرحلة بيوم 18 من ابريل 1919 م، تمهيداً لاجراء ترتيبات جلسة حدد لها يوم 21 من نفس الشهر.

المشروع الوطنى للادارة المختارة (الاستقلال الداخلى): ـ

فى كتابه (صفحات خالدة)، أثبت البارونى فى تقرير له عن احدى مذكرات الجمهورية ما يلى: ـ

«هـذه مواد تقـررت يوم الأحـد 20 رجب 1337 هـ، للمذاكـرة يوم الاثنين 21[40] منه فى خلة الزيتونة، ولم نخرجها للمذاكرة، لأننا قنعنا بما أتوا به[41]، وعدلناه من المواد[42]».

وقد رأينا اثبـات هذه المـواد لتعطى الفـرصة أكـثر للتعرف عـلى رؤى وأساليب الدبلوماسية الوطنية وكذلك تطورها، وحتى تمكن المقاربة بما قدمناه منها والمواد هى: -

1) شكل ادارة الولاية الطرابلسية هو الادارة المختارة (استقلال داخلى) مربوطة بنظارة داخلية إيطالية.
2) ينتخب لأول مرة من طرف الرؤساء مجلس أعضاؤه مسلمون، ويكـونون (ثمانية) لمدة 4 أربع سنين، يلقب بمجلس الحكومة، يديـر أمور الـولاية بالاشتراك مع الوالى، وقراراته قطعية، بعد تصديقهـا من مجلس النواب الطرابلسى، وبعد الأربع سنين ينتخب أعضاؤه من أعضاء مجلس النواب المسلمين فى كل أربع سنين مرة، وينتخب لمجلس النواب بدلهم.
3) يشكل فى الولاية مجلس نواب ينتخب له عن كل عشرين ألف نفس عضو، حسب أصـول الانتخابـات يشترك فيـه المسلم والمسيحى والاسرائيلى من الطرابلسيين، ومدة اجتماعـه أربع سنـين كمجلس الحكومـة، ويجتمع فى السنة ثلاثة أشهر على الأقل، بمعاش مقرر سنوياً، وقراراته قطعية بأكثرية الثلثين.
4) يشترط فى عضو المجلسين أن يكون طرابلسياً كاتباً مطلعاً حائزاً لثقة الأمة، ولا يقل عمره عن 30 سنة.

(40) يتقدم هذا التاريخ الهجرى المثبت عن التاريخ يوماً واحداً حيث انه طبقاً لتقويم مُقارَنٍ (19 من رجب) وبذلك يوافق يوما (19 و20) من رجب 1337 هـ يومى 20 و21 من ابريل 1919 م.

(41) الضمير يعود على الطليان.

(42) سليمان الباروني، المصدر السابق، ص 302 - 303.

5) يؤسس للولاية مجلس بلدية رئيسه مسلم، وله مستشـار ايطالى وأعضـاؤه مختلطة نصفهم مسلمون.
6) تؤسس للاوقاف مديرية مديرها ومأمورها كافة مسلمون، ولا يصرف منها الا عـلى حسب نص الـواقف، وللحكـومـة تعيـين مفتش ايـطالى لجـرد الحسابات.
7) اذا أقام الايطالى فى طرابلس 5 خمس سنين، وملك يحق له أن يكون منتخباً (بالكسر) لاعضاء مجلس النواب، ومنتخباً (بالفتح) فى مجلس النواب، اذا حاز الأوصاف المتقدمة.
8) للحكومة أن تعـين أعضاء يمثلونها فى مجلس النـواب بنسبة السـدس من مجموع المجلس.
9) المتصرفون والقائمقامون والمديرون لا يكونون الا مسلمين.
10) العفو العمومى.
11) اعادة الاملاك المصادرة.
12) اللسان الرسمى هو العربى.
13) تزوج المسلمة بغير المسلم ممنوع.
14) يجوز تأسيس مكاتب أهلية فى دائرة قانون نظارة المعارف الايطالية.

سليمان الباروني[43]

الجولة النهائية: -

على الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنـين 21 من ابريـل 1919 م، التأمت جلسة فى (خلة الزيتونة)، حضرها الى جانب الوفد التفاوضى ثلاثة من أعضاء المجلس الجمهورى الرباعى، اذ لا يزال العضو الرابع مقيماً فى ورفلة فلم يحضر اذن مع الآخرين. يذكر ابو القاسم البارونى أن عبد النبى كان قد ذهب الى ورفلة لمصلحة حربية متفقاً فى ذلك مع ما جاء لدى سليمان البارونى

(43) البارونى، المصدر نفسه، نفس الصفحة.

والشيخ الطاهر الزاوى[44] الذى يتفق مع الآخرين فقط فى الجزئية المتعلقة بالمهمة الحربية التى أوكلت لعبد النبى. ومن هنا، لا نستبعد ما قيل من أن «عبد النبى أرسل موافقته مقدماً على كل ما يقرره زملاؤه»[45]، ومن باب أولى أن يكون هناك شبه وفاق على الأقل، فى ما يتعلق بالمطالب الرئيسية التى سجلتها آخر مذكرة أعدتها الجمهورية[46] والتى شملت أربع عشرة مادة، حيث يمكن فى الحال هذه، اعتبارها حدا أدنى لما يمكن أن يوافق عليه الجميع، وهكذا التأمت الجلسة بحضور القادة الرئيسيين ورجال الوفد التفاوضى الوطنى، وتكامل أيضاً رجال الوفد التفاوضى الايطالى، وبسبب ما ذكرنا عن الجلسة السابقة، التى كانت هامة بالفعل، فان الجانب الوطنى لم يجد كبير اعتراض على مقترحات الوفد الايطالى، حتى انه لم ير ضرورة لعرض مقترحاته الكاملة من خلال مذكراته السالفة الذكر، وأخيراً انتهى المتفاوضون «الى وضع ما تُعورف عليه لدى مؤرخينا الرواد بالقانون الأساسى ووقعوا ميثاقاً بقبوله»[47]، وقد رأينا فائدة اثبات هذه الصيغة كما وردت لدى أوائل من تناولوا التأريخ للفترة ممن ذكرنا معنونة كالآتى: -

القواعد التى قام عليها الدستور

1) تسمى الحكومة (حكومة القطر الطرابلسى).
2) يدير أمور قطر طرابلس مجلس حكومة مؤلف من ثمانية أعضاء وطنيين ينتخبهم مجلس النواب الطرابلسى من بين أعضائه، ومن عضوين ايطاليين ينتخبهما النائب العام.
3) يرأس هذا المجلس حاكم عام بيده السلطتان الملكية والعسكرية، معين من

(44) ابو القاسم البارونى، المصدر السابق، ص 105، أيضاً، سليمان البارونى، المصدر السابق ص 300، أيضاً الزاوى، المصدر السابق، ص 349.
(45) غابيللى، المصدر السابق، ص 141 ـ 142.
(46) سليمان البارونى، المصدر السابق، ص 302 ـ 303.
(47) ابو القاسم البارونى، المصدر السابق، ص 103.

جانب ملك ايطاليا (لم يحدد القانون جنسية الحاكم، فقد يكون عربياً وقد يكون ايطالياً).
4) يسن قوانين البلاد مجلس نواب ينتخبه الاهالى يتمتع بما لمجالس الدول الأخرى المتمدنة من سلطات وحقوق وتكون مدته أربع سنوات، وكلما جدد انتخابه جدد انتخاب مجلس الحكومة من بين أعضائه.
5) لا تنفق ضرائب البلاد الا فيها حسبما يقرره مجلس نوابها فى وضعها وتوزيعها وجبايتها.
6) لا يطبق من قوانين ايطاليا فى طرابلس الا ما يقبله مجلس النواب الطرابلسى، ويوافق عليه لمصلحة البلاد.
7) ينظم من أبناء البلاد جند وطنى بالتطوع حسبما تقتضيه الحاجة وقائده هو الحاكم العام.
8) للوطنيين حق التوظيف فى الوظائف العالية ملكية وعسكرية، وقضائية، وصحية، وغيرها بالامتحان.
9) التعليم الأهلى حر تحت اشراف الحكومة.
10) اللغة العربية رسمية كالايطالية.
11) ينتخب الاهالى رؤساء البلديات فى العاصمة والملحقات.
12) يؤلف مجلس شرعى تستأنف اليه الاحكام الشرعية، وهو يعين القضاة.
13) للطرابلسيين الحائزين على الشهادات العالية الحق فى مزاولة المهن الحرة كالطب والمحاماة وغيرها، فى ايطاليا كما فى طرابلس.
14) الطرابلسى والايطالى متساويان فى الحقوق.
15) الأوقاف تدار بمعرفة هيئة اسلامية.
16) تراعى حرمة الدين والتقاليد الحسنة، كالسابيق.

وقد ذيلت هذه المواد الست عشرة بما يفيد بأنها ليست كل القانون، لأن له بقية، وان مواده مجتمعة تبلغ الأربعين ونيفاً، ولكن على الرغم من ذلك، فانها بصيغتها المختصرة تلك انما هى بالتأكيد مواد القانون الاولية، بنص

المؤرخين ممن تناولوا هذه الفترة فهى لديهم: - «القواعد التى قام عليها الدستور»[48].

وما دامت هذه الأخيرة عبارة الديباجة التى استهلت بها الحديث عن هذه المواد، فانها ختمت بالنص على ما يلى: -

«قد صار الاتفاق التام على قبول هذا القانون، ولأجل بيان ذلك صار امضاء هذا، فى 21 ابريل 1919 م الموافق 21 رجب 1277 هـ)[49].

ومما تقدم يتبين الخلط بين هذه القواعد الدستورية الست عشرة، وقواعد الدستور (القانون الأساسى) الموسعة، حين نشرت هذه القواعد الموسعة فيما بعد على صفحات الجريدة الرسمية وعنها نقل الناقلون[50] فقواعد الدستور فى نسختها الاولى تعتبر صكاً صار الاتفاق عليه بين الجانبين كما ذكرنا، وقعه عنهما وفدا التفاوض، وقد وقعه عن الجمهورية الطرابلسية كل من: -

سليمان البارونى، ورمضان السويحلى، وأحمد المريض، والثلاثة أعضاء مجلس الجمهورية، أما عبد النبى بالخير العضو الرابع فى هذا المجلس «فقد أرسل يعتذر بتوعك فى صحته، ولكنه بعث بموافقته»[51]، الأمر الذى وضع الهادى كعبار رئيس الوفد التفاوضى الوطنى ومحمد الصويعى الخيتونى عضو هذا الوفد أمام مسؤولياتهما ووقعا الى جانب أعضاء الجمهورية، أما عبد الرحمن عزام وقد كان أيضاً ممن حضروا الجلسة النهائية فقد سجل عنها فى ذكرياته قوله: - «انه بالرغم من اننى قد اشتركت فى جلسات المفاوضات باعتبارى مستشاراً

(48) أمين سعيد، المصدر السابق، ص 343 - 344، أيضاً: - ابو القاسم البارونى، المصدر السابق، ص 103.

(49) ابو القاسم البارونى، المصدر نفسه، ص 104.

(50) الجريدة الرسمية لحكومة طرابلس الغرب عدد 13، المرسوم الملكى رقم 2 المحرر فى روما بتاريخ 1 جونيو (يونية) 1919 م، وقعه ملك ايطاليا فيتوريو عمانويل ووزير المستعمرات كولوسّيمو وترجمه الى العربية روفائيل رابيكس، وسيأتى الحديث عن هذه القواعد الموسعة.

(51) غابيللى، المصدر السابق، ص 148.

لبعض أصدقائى أصحاب النفوذ فى ترهونه ومصراتة، فاننى لم أوقع على وثيقة الصلح»[52].

أما عن الجانب الايطالى فقد وقع كل من: - الجنرال تارديتى رئيس الوفد التفاوضى الايطالى، وكان يشغل أيضاً مدير مكتب دائرة السياسة العسكرية فى طرابلس، كذلك القاضى أدُولفو لوتشيانى رئيس مكتب دائرة الأملاك فى طرابلس، ورئيس أركان الحرب، وصاحب توقيع غير مقروء، وفى ختام الهيئة الإيطالية كان توقيع المستشرق المعروف رافائيل رابيكس؛ وقد رافق جميع مراحل إعداد النصيَّن الأول والنهائى.

اثر الفراغ من هذه الجولة، وبعد الوصول الى اتفاق عام أكده الطرفان فى خَلَّة الزيتونة - كما عرفنا -، ظلت تطرح للنقاش بعض الأمور التى لم تتضمنها تلك القواعد أصلاً، أو أن ذكرها جاء كعموميات، من مثل مطالبة بعض الزعماء بترجمة القانون الى العربية والمطالبة باعلانه بعد التصديق عليه فوراً. وأن يكون رئيس البرلمان المحلى مسلماً، وأن تحدد رقعة الاحتلال، خصوصاً وان الحكومة الايطالية حاولت تأكيد بسط سيادتها على رقع أوسع من البلاد، فجهدت أن تضمن القانون بنداً تحدد على أساسه المناطق، أو على الأقل المراكز، التى سيتم تمركز قوات ايطالية - ولو رمزية - بها، بالاضافة الى مطلب تبادل الأسرى، ومن بين الموضوعات التى طرحت للنقاش: أن تلتزم الحكومة الايطالية باستبدال الأوراق النقدية العثمانية بالايطالية، وأن يتم تجريد المقاتلين (المجاهدين سابقاً) من أسلحتهم الخفيفة والثقيلة.

وقد تم الاتفاق على بعض البنود المعدلة بشروط، منها: -

1) أن تقام مراكز اتصال فى الدواخل يشغلها ضباط ايطاليون، تناط بهم مهمات عقد الصلات بين مسؤولى حكومة القطر الطرابلسى المقترحة من

(52) جميل عارف، المصدر السابق، ص 244، وواضح من خلال النص أن الرجل كان فقط مستشار بعض أصدقائه، ولم يكن مستشاراً لحكومة الجمهورية الطرابلسية.

العرب والحكومة فى طرابلس، على ألا يسمح لقوات أخرى بالانضمام اليها.

2) أن تسحب الأوراق النقدية العثمانية من الأسواق[53].

3) مع التسليم بضرورة تجريد المقاتلين القدامى من أسلحتهم الخفيفة، (الشخصية)، يرجأ تنفيذ هذا الأمر لصعوبته ولحساسية المقاتل تجاه سلاحه ويمكن بلوغ هذا الهدف بالتدريج، أما الأسلحة الثقيلة فيمكن تحولها الى القيادة الايطالية آلياً بعد أن يتم ضم القوات النظامية، الى تبعية حكومة القطر الطرابلسى، بل ان تلك القوات ستستعملها فى ظل النظام الجديد.

4) يسمح للقيادات المحلية بتشكيل وحدات عسكرية، وذلك لأهداف حفظ الأمن.

5) يتم تبادل المحتجزين لدى الطرفين.

تبادل الأسرى

من بين أكثر القضايا حساسية، قضية الأسرى، ولعلها أكثرها الحاحاً على الطرفين، وقد أجريت عملية التبادل يوم 26 من مايو 1919 م[54]، وبموجبها تم اطلاق سراح قرابة 600 ستمائة أسير ايطالى كانوا محتجزين لدى حكومة الجمهورية، كما أطلق الايطاليون أضعاف أضعاف هذا العدد ممن اعتبروهم أسرى واحتجزوهم فعجت بهم السجون والمنافى والمعتقلات الايطالية.

(53) أعلنت دائرة السياسة العسكرية (الشعبة المالية): انها قررت سحب الأوراق العثمانية التى كانت قد أرسلتها الحكومة العثمانية فى اثناء الحرب الأوربية وذلك على شرط الا تتعدى قيمتها 508400 ليرات ايطالية حسب إفادة أعيان البلاد ولن نقبل أوراقاً أخرى. طرابلس فى 14 ديسمبر 1919 م.
انظر: اللواء الطرابلسى، عدد 11، طرابلس فى 24 ربيع أول 1338 هـ 18 ديسمبر 1919 م.

(54) 26 من مايو كما أثبتنا خلافاً لما جاء لدى الزاوى، المصدر السابق، ص 371، انظر فى الخصوص: غراتسيانى، المصدر السابق، ص 26، أيضاً غابيللى، المصدر السابق، ص 165.

كانت تلك اذن هى أولى الخطوات العملية التى جاءت نتيجة المفاوضات وتوقيع قواعد القانون فى صيغتها الأولى، التى أرسل منها الايطاليون نسخة ليصدقها ملك ايطاليا، وقد انقضى شهر مايو دون أن تتم عملية التصديق هذه.

المرسوم الملكى بمشروع القانون الأساسى للقطر الطرابلسى

اذا كنا قد تناولنا القواعد الأساسية للقانون الأساسى بتلك الصورة التفصيلية، فقد نعلم أن تلك القواعد أرسلت الى روما للمصادقة عليها من قبل ملك ايطاليا آنذاك (فيتوريو عمانويل الثالث)، كما يمكن القول بأن حكومة الجمهورية الطرابلسية، كانت تنتظر أن يتم اطلاع الدوائر الرسمية الايطالية عليها، ويتم التصديق على نفس الصيغة الموجزة، وقد أجيزت كما نعلم من قبل الجانبين، بل ان الجانب الوطنى كان قد اعتمد الصيغة على أعلى مستوياته الرسمية (المجلس الجمهورى)، الا أن الحكومة الايطالية لم تشأ أن تفعل ذلك، ومنحت نفسها الحق منفردة فى وضع صياغة جديدة على هيئة (مرسوم ملكى رقم 931) وصفته الصيغة الايطالية الجديدة بأنه «المرسوم الملكى المؤرخ فى أول يونية 1919 م رقم 931، والذى يعتمد القواعد الأساسية للقانون الأساسى لطرابلس الغرب»[55]، ولعل هذا الوصف كاف لاعتباره أدنى مرتبة من القانون الأساسى، ويفيد هذا الرأى التحفظ الذى نص عليه فى الفصل الأربعين من أن هذا الأمر، «سيعرض على مجلس الأمة حتى يصير قانوناً»[56]، كما نص نفس الفصل على ادراج هذا الامر المختوم بطابع الدولة فى المجموعة الرسمية لقوانين مملكة ايطاليا وأوامرها[57]، فكانت تلك الخطوة أولى بوادر العمل القانونى المركز الذى حاولت من خلاله الحكومة المركزية القيام بما يمكنها من التمويه والخداع، فجاءت المواد موسعة، ودعيت المواد فصولاً، وهى فى اجمالها أربعون مقسمة الى أبواب سبعة كما يلى: -

(55) انظر القواعد الأساسية، الجريدة الرسمية لحكومة قطر طرابلس، عدد 13، طرابلس، أول يونية 1919 م، ص 155.

(56) المصدر نفسه.

(57) المصدر نفسه.

1) باب فى الوطنية من ثلاثة فصول.
2) باب فى ما للوطنيين، وما عليهم من تسعة فصول.
3) باب فى حكومة القطر الطرابلسى، وبادارته المختارة من ثلاثة عشر فصلاً.
4) باب فى البلديات من فصلين.
5) باب فى العدلية من ثلاثة فصول.
6) باب فى نيل الوطنية فى المملكة من فصلين.
7) باب فى أحكام عمومية من سبعة فصول.

ذيلت مواد قواعد القانون الأساسى الأربعون بتوقيع ملك ايطاليا (فيتوريو عمانويل) ووزير مستعمراته (كولوسيمو)، أيضاً توقيع وزير العدل (فاكتا)، وبمقارنة النسختين الايطالية، والعربية، فقد ذيلت الأخيرة منهما بشكل تعمد من خلاله أن يوصف توقيع الملك بكلمتى (التوقيع الشريف) ثم امضاء الوزير كولوسيمو، ويشار الى الترجمة بجملة (ترجمه الى العربية روفائيل رابيكس)، وقد حملت الوثيقتان تاريخ أول يونية 1919 م، وأن تحريرهما تم فى روما.

بيان غاريونى يوم أول يونية

كى لا تبدو الحكومة الايطالية بمظهر المستعجلة، وهى تعد النسخة الجديدة من القواعد المذكورة، قد تكون أبلغت الجنرال (غاريونى) والى طرابلس آنذاك، كى يعلن فيها نبأ مصادقة الملك على الصيغة الأخيرة للقواعد الأساسية، ومع ذلك فان الوالى يعلن ارجاء نشر هذه الصيغة الجديدة، ويشير الى نقطتين هامتين: ـ

أولاهما: ـ أن الوالى غاريونى يعلن لشعب طرابلس أن صاحب الجلالة ملك ايطاليا قد وقع على القانون الأساسى فى نصه الشرعى فى هذا اليوم أول أحد من شهر يونية 1919 م الموافق الذكرى المائية (ليوم النهضة الايطالية).

ثانيهما: ـ أنه يتكفل ضامناً حكومته بشأن تنفيذ ما وعدت به من اعلان هذا القانون واخراجه الى حيز العمل فى أقرب فرصة، ويرجو أن يأمر صاحب

الجلالة بوحدة البلدين اتحاداً متيناً، تظلله نجمة ايطاليا الخ . . .[58].

ومما سبق يتبين أن القانون الأساسى، لم يعلن فى صيغته الرسمية أو الشرعية تلك، كما تدعوها الدوائر الايطالية، بل أن اعلانه قد تم فعلاً فى أول يولية 1919 م، حيث نشر على صفحات الجريدة الرسمية لحكومة القطر الطرابلسى[59].

(58) انظر بيان غاريونى، أو العهد المؤيد للقانون الأساسى، البارونى، المصدر السابق، ص 301 ـ 302، أيضاً ابو القاسم البارونى، المصدر السابق، ص 106 ـ 107.
(59) انظر ملحق العدد 13 من الجريدة الرسمية لحكومة القطر الطرابلسى، الصادر بتاريخ أول يولية 1919 م، طرابلس ـ ليبيا.

الفصل الخامس

من اشكاليات القانون الأساسى لحكومة قطر طرابلس*
سنة 1919

لم تحفل حركة جهاد الليبيين المعاصرة وهى تخوض معركتها الدامية ضد الاستعمار الايطالى بما عرف فى ساحات المقاومة المجاورة بالقوانين الأساسية منها (الدستورية) أو غيرها ولا بما كان يصاحبها من فنون المناورة والنشاط السياسى والدبلوماسى، لأسباب يمكن تبين بعض منها فيما يلى: ـ

أولاً بساطة التركيبة الاجتماعية التى كانت تبرز من خلالها هيكلية حركة الجهاد الليبية ووسائلها فى تحقيق غاياتها الواضحة.

ثانياً ما كان يطغى على هذه الحركة من روح اسلامية تبعد فى استمداد نظمها الجوهرية عن مصادر التشريعات والقوانين المستوردة والعائدة الى روح الثقافة الرومانية.

ثالثاً ان حركة الجهاد الليبية لم تكن فى حاجة الى استجداء التشريعات كسبيل من سبل طلب الحرية، لأن الحرية فى ما تملك وليس فى ما يملكه الآخرون.

ومن ذلك يمكن التعرف الى الفرق الواضح بين سبل طلب الحرية فى حركة جهاد الليبيين، وبين ما اختطه الآخرون من سبل، ومع ذلك يظل القول ممكناً فى ما طرأ على هذه الحركة من تحول ـ مؤقت فى الغالب ـ عن صيغها الواضحة الصريحة الى المناورة والتفاوض، وقريباً من المساومة، حين قبل

* سينشر فى العدد التاسع من مجلة الشهيد.

المجاهدون (المقاتلون) فى جهاد الليبيين الجلوس الى مائدة التفاوض اثر واقعتين عالميتين مؤثرتين[1]، هما: 1 ـ اتفاقية الهدنة بين تركيا وقوى التحالف المركزى يوم 31 من اكتوبر 1918 فى مودروس 2 ـ انتهاء أحداث الحرب الكبرى الأولى المواكبة لهذه الحركة يوم 11 من شهر الحرث (نوفمبر) 1918، فكان ذلك الجلوس بدءاً باليوم العاشر من شهر المريخ (مارس) 1919 وانتهاء بيوم 21 من شهر الطير (ابريل) من نفس السنة، ففى هذا اليوم كانت عقدت آخر جلسة تفاوض بين الجانبين الوطنى والايطالى بموقع عرف بخلة الزيتونة بقصر بن غشير قريباً من مدينة طرابلس، وفى هذه الجلسة اتفق الطرفان على مواد بلغ المنشور منها لدى من تناولها من المؤرخين الرواد[2] ست عشرة مادة، ذيلت لديهم بملاحظة ان هذه المواد ليست كل القانون، لأن له بقية، وان مواده مجتمعة تبلغ الأربعين ونيفاً، ولكن على الرغم من ذلك توحى بصيغتها المختصرة تلك، انها مواد أولية فهى بنص هؤلاء المؤرخين «القواعد التى قام عليها القانون الأساسى (الدستور)»[3] وما دامت تلك هى عبارة الديباجة التى استهل بها الحديث عن هذه المواد فانها أيضاً ختمت بالنص على ما يلى: ـ

قد صار الاتفاق التام على قبول هذا القانون، ولأجل بيان ذلك صار إمضاء هذا فى 21 ابريل 1919 م الموافق 21 رجب 1317 هـ»[4]، ومما تقدم تبين الخلط بين هذه القواعد الدستورية الست عشرة، وقواعد الدستور (القانون

(1) هناك حادثة أسبق من هاتين تتمثل فى مفاوضات (فندق المقوُّز) اثر توقيع معاهدة أوشى 12 من التمور (اكتوبرر) 1912، ولكن لأن تلك المفاوضات لم يكن انعقد بشأنها اجماع القيادات الجهادية آنذاك فاننا بصرف النظر عن آثارها لم نسلكها فى مادة القبول العام الذى نعنيه بتناولنا لمفاوضات خلة الزيتونة.

(2) من هؤلاء: أمين سعيد، الدولة العربية المتحدة، جـ 3، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر، القاهرة، 1356 هـ ـ 1938 م، ص 343.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) الجريدة الرسمية لحكومة طرابلس الغرب، عدد 13، المرسوم الملكى رقم 2 المحرر فى روما بتاريخ 1 جونيو (الصيف ـ يونية) 1919 م، وقعه ملك ايطاليا فيتوريو إمَّانُويل ووزير المستعمرات كولوسيمو، وترجمه الى العربية رافائيل رابيكس.

الأساسى) الموسعة، حين نشرت هذه القواعد الموسعة فيما بعد على صفحات الجريدة الرسمية لحكومة طرابلس الغرب وعنها نقل الناقلون، فهى اذن فى نسختها الأولى عبارة عن صك صار الاتفاق عليه بين الجانبين، وقعه عنهما وفدا التفاوض، وقعه عن الجمهورية الطرابلسية كل من: سليمان البارونى ورمضان السويحلى واحمد المريض وهم أعضاء مجلس الجمهورية أما عبد النبى بالخير العضو الرابع فى هذا المجلس، فقد أرسل يعتذر بتوعك صحته، ولكنه بعث بموافقته[5] الأمر الذى وضع الهادى كعبار رئيس الوفد التفاوضى الليبى ومحمد الصويعى الخيتونى وهو أحد أعضاء هذا الوفد، وضعهما أمام مسؤولياتهما ووقعا الى جانب أعضاء مجلس الجمهورية، أما عبد الرحمن عزام، وقد كان أيضاً ممن حضروا الجلسة النهاية، فقد سجل عنها فى ذكرياته قوله «إنه بالرغم من اننى قد اشتركت فى جلسات المفاوضات باعتبارى مستشاراً لبعض اصدقائى أصحاب النفوذ فى ترهونة ومصراتة، فاننى لم اوقع على وثيقة الصلح»[6].

أما عن الجانب الايطالى فقد وقع كل من الجنرال تارديتى رئيس الوفد التفاوضى الايطالى، وكان يشغل أيضاً مدير مكتب دائرة السياسة العسكرية فى طرابلس، كما وقع أيضاً القاضى ادولفو لوتشيانى وبعض العسكريين، ومواده فى هذا النص المنشور اربعون مادة، لعل اول اشكالية فى هذا النص ما انتهت اليه الحكومة الايطالية المركزية من تصرف فى القواعد القانونية المتفق عليها فى خلة الزيتونة، لتتحول من ست عشرة مادة الى اربعين، وبما حواه تفصيلها من تفاسير وتقنينات جعلت منه فى النهاية المرسوم الملكى الذى تفضل به الملك ايمانويل، وبما يعنيه من حرص على مبدأ السيادة الايطالية على الأراضى الليبية، وصياغة قوانينها فى ذلك الاطار الضيق، الأمر الذى كان يبتعد عن المنظور الذى

(5) أُوتونى غابيللى، قطر طرابلس من نهاية الحرب العالمية الى قيام الفاشيست، جـ 1، ترجمة عمر البارونى، مخطوط بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، ص 148.

(6) جميل عارف، صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام لجامعة الدول العربية عبد الرحمن عزام، جـ 1، القاهرة ـ مصر ـ المكتب المصرى الحديث، 1977، ص 244.

تراءى للقيادات الوطنية والعربية التى وجدت على الساحة آنذاك وهى تُجرى عملية التفاوض وتصل مع الجانب الآخر الى ذلك الاتفاق، وقد نسجل ايجاباً ان استقبال الناس كلهم زعامات وافراداً هذه المرحلة بكثير من التفاؤل انما كان تعبيراً على الامتنان وعلى اعتبار ان ما تحقق على الصعيد السياسى فى طرابلس أمر جديد، لا يزال محترفو العمل السياسى فى بلاد عربية كثيرة سبقت فى هذا المجال (السياسى) لا يزالون يناضلون للحصول على مثل أو بعض ما تحقق فى طرابلس، ولعل ما جاء فى مقال بعث به أحد الإخوة المصريين المغتربين فى أوروبا يفيد ذلك حين يقول:

«إن الأُمة العربية النجيبة جسم واحد يتأثر مجموعه بتأثر اعضائه المختلفة فينتشى لطربها ويتألم لآلامها... فأما وقد رأينا الأُمة الطرابلسية (كذا) تجنى ثمار مجهوداتها المشهورة وتحوز فى بدء حياتها الاتفاقية ما لم تَحُزْهُ أُختها مصر لسوء حظها مع الانجليز فى نحو الأربعين سنة، أما وقد رأيناها ترفل فى أوسع سلطة برلمانية وتساوى أهلها كل المساواة بالرعية الإيطالية فقد حق لنا نحن المصريين اخوانها فى السراء والضراء، أن نهرع فنزف اليها أزكى التهانى على تحقيق غوالى تلك الأمانى»[7] الخ.

ويعبر مصرى آخر خبر حركة الجهاد الليبية عن كثب وهو عبد الرحمن عزام، يعبر عن حدث الاتفاق ممتناً فيقول: «إن ايطاليا دولة مثلى للصداقة العربية، اذ يحمل الايطالى روحاً متحضرة متحررة غير معقدة، لقد حاربنا ايطاليا اعتقاداً بأنها مقلدة للصيادين الاستعماريين القدماء، ولكننا اليوم غيرنا تفكيرنا، بعد أن عرفنا قوانينها الحكيمة، التى ميزتها فى كافة انحاء العالم الاسلامى وخاصة العربى منه»[8].

(7) د. محمد توفيق، مقال تحت عنوان (تهنئة المصريين لاخوانهم الطرابلسيين) نشر فى العدد الثامن من صحيفة اللواء الطرابلسى، طرابلس، 13 ربيع أول 1337 هـ - 27 نوفمبر 1919، ص 4.

(8) عبد الرحمن عزام، من تصريح أدلى به للصحيفة الايطالية (كوريرى ديلاسيرا - Corriere della Sera)، انظر: غابيللى، المصدر السابق، ص 191.

ويوم التأم اجتماع المجلس (حكومة القطر الطرابلسى) لأول مرة يوم 4 من سبتمبر 1919 م كان تعبير رئيس الوفد الوطنى للتفاوض (الهادى كعبار) مؤكداً ان: «روح الحضارة وحب العلم طبعا فى نفوس أهلينا، كما انطبعت بها الحرية والقيم، نحن نحتاج الى قيادة حكيمة، ولذا نتقبل بامتنان اخوة امة حرة تساعدنا على انشاء حياتنا الجديدة[9].

وهكذا يمكن بوضوح تلمس المستوى الفكرى والسياسى لدى هذه النماذج أو هى بالتعبير الاحصائى (العينات العشوائية) مع كون هٰذا المنظور المتقدم ذى الرؤية الآملة كان يرى فى هذه الخطوة مقدمة لاحراز خطى أوسع، فان هذه الدائرة لدى الجانب الايطالى تضيق وتضيق لتجعل ايطاليا فى نهاية المطاف جزءاً من دائرة استعمارية عالمية، لا تهمها سوى مصالحها الآنية المحدودة، وتقترب من غيرها من القوى العظمى فى مجال الاستعمار (الاستكبار)، ولعل من بين أبرز ما يسترعى النظر فى التطبيقات العملية لحكومة القطر الطرابلسى انه وان توالى عقد جلسات مجلسها «الا انه لم يتفق لاعضائه الثمانية ان يجتمعوا كلهم فى جلسة، ولو مرة واحدة من هذه الجلسات»[10]. وقع هذا منذ البداية، وقبل أن يتبين الخلاف حول أية قضية، ولعل أمراً بهذا الخطر لا يتم عفواً أو عن طريق الصدفة، كما اصطدمت النصوص القانونية للقانون الأساسى (المرسوم) عند

(9) نفس المصدر والصحيفة.
وبينما يحدد غابيللى، نفس المصدر، والصفحة، تاريخ أول جلسة عقدها مجلس حكومة القطر الطرابلسى بيوم 5 من شهر الحرث (نوفمبر) 1919 م، يحدد مرسوم ولائى مؤرخ فى 30 من شهر الفاتح (سبتمبر) 1919 م، انظر فى الخصوص: الجريدة الرسمية لحكومة القطر الطرابلسى، عدد 20 الصادر بتاريخ أول شهر التُّمور (اكتوبر) 1919 م طرابلس - ليبيا.

(10) محمد الفقيه حسن، من كتاب استقالته من عضوية مجلس حكومة القطر الطرابلسى، المحرر فى 15 من أغسطس 1920 م والمنشور فى اللواء الطرابلسى عدد (42) الصادر بتاريخ 5 من ذى الحجة 1338 هـ - 31 من أغسطس 1920 م، انظر أيضاً: مساهمتنا المنشورة فى كتاب: بحوث ودراسات فى التاريخ الليبى، جـ 2، تأليف مجموعة من الاساتذة والباحثين باشراف الدكتور صلاح الدين حسن السورى وحبيب وداعة الحسناوى، الجماهيرية، 1984، ص 209.

أولى محاولات التطبيق على بعض الحالات بواقع أمور لا تقبل التغيير الذى اريد لها من قبل الدوائر الايطالية كاحداث قوى عسكرية محلية، نص الفصل الثامن (على ان تجنيدها سيتم بطريقة اختيارية، وبأنظمة مخصوصة)، كانت تلك الدوائر توليها أهمية خاصة، وبدرجة أكثر فى ما يتعلق بتصفية ما تبقى من تشكيلات الجمهورية الطرابلسية العسكرية، أو تلك التى تعلقت نصوصها بحكومة القطر من حيث اختصاصات هذه الحكومة، واختصاصات مجلس النواب (المحلى) الذى يعتبر جزءاً مكملاً لهيكلها، وقد ضمنت هذه النصوص داخل باب خاص بعنوان (باب فى حكومة القطر الطرابلسى وبادارته المختارة «اوتونيما»)[11]، ولعل من أول الملاحظات على أهمية هذا الباب انه كان أكثر الأبواب فصولاً، وعلى الرغم من أن القانون برمته جدير بعناية الباحثين والدارسين الذين سيجدون فيه وخاصة القانونيين منهم ما يستحق البحث، فاننا سنتعرض لبعض الملاحظات التى نراها جديرة من وجهة النظر الموضوعية على الأقل بالاشارة على سبيل المثال: -

1) ان تدخل الحكومة الايطالية لم يقتصر على نص بعينه فى قواعد القانون الأساسى، ومن ذلك ان (البرلمان المحلى) لا يقتصر على الأعضاء الليبيين وحدهم، ففيه اعضاء استحقاق يعينهم الوالى طبقاً لنص الفصل الخامس عشر على ألا يبلغ مجموع هؤلاء المستحقين سدس الأعضاء المنتخبين.

2) ان القواعد الأساسية للقانون الأساسى لم ينص فيها على عضوية ايطاليين فى مجلس الحكومة، بل نص فقط على الثمانية، وشىء آخر فانه لم ينص فى القانون على عنصر العضوين اللذين أصبح من حق الوالى تعيينهما، فقد يجوز كونهما ليبيين أو أن يكونا ايطاليين، دون حسم فى هذا الأمر، وحين يغلب المنطق الاستكبارى لا يمكن أن يفترض كونهما غير ايطاليين، حين يصار حق تعيينهما للوالى الايطالى الذى لم يأت نص محدد عنصره ولكن الملك الايطالى بذات المنطق لا يؤثر أن يتم حق التعيين له أو للوالى دون أن يستغل، والا فما جدوى النصّ؟.

(11) اوتونيما: Autonima، كلمة إيطالية تعنى استقلال ذاتى.

3) ان قواعد القانون الأساسى، بعد أن ارسلت الى روما لتوضع فى صورتها النهائية تعرضت بالاضافة الى ما ذكرنا الى صياغة أريد منها خداع الناس وايهامهم بجدوى الاتفاق وبالباسه كساء يعرف به كقانون أساسى وكدستور حريات الخ، على ان هناك من الأمثلة ما يجعلنا نتفهم الأبعاد الحقيقة المبتغاة، من وضع صياغة كتلك، تعمد الى تلوين الكلمات والقصد من ذلك الى صوغها بحيث تحتمل أكثر من معنى، ولتثير النقاش بين طرفى الاتفاق، ومن ذلك كمثل ما جاء فى ثنايا الفصل الثالث والعشرين من انه «اذا خلا منصب متصرف أو قائمقام أو مدير، بعد ابتداء العمل بهذا الأمر، يقع التعيين فى الوظائف بأمر من الوالى، بعد استماع هيئة مخصوصة تسمى مجلس الحكومة، يرأسها الوالى أو من ناب عنه، وهى تتألف من عضوين يعينهما الوالى، وثمانية أعضاء ينتخبهم مجلس النواب المحلى من خارج المجلس»[12]، فاذا عرفنا ان أول فصل من هذا الباب منح الوالى جميع السلطات «فقد جمع السلطة المدنية والعسكرية مما يدخل فى دائرة الصلاحية الموكولة اليه بمقتضى الأحكام المتعلقة بذلك»[13]، فاننا سندرك انه وان كان على الوالى أن يستمع الى الهيئة المخصوصة، فهو ليس ملزماً بما تشير عليه، أو هذا هو ما يبدو فعلاً عند النظرة الأولى الى نص هام من نصوص القانون الأساسى، فقد دار نقاش فيما بعد، وحول هذه المسألة بالذات، حوار جاد أبان عن وجهتى النظر الوطنية والايطالية، بل عن النوايا الخفية والمستترة وراء التلاعب بالألفاظ، فلعل أخطر ما تستفز من خلاله الذات الوطنية الليبية أن يجلس رجل فى هيئة موكل اليها - ولو عرفا - مهمات البحث والحسم، وان يوضع على رأس هذه الهيئة حاكم يلزم نفسه بالاستماع فحسب، دون النظر الى رأى المُشير عند وضع القرار، ودون أن يكلف نفسه عناء الالتزام بآراء من جلس معه فى مجلس الاستشارة، وهذا هو وضع الوالى (رئيس مجلس

(12) القانون الأساسى لحكومة طرابلس الغرب، الصادر بتاريخ أول الصيف (يونية) 1919 م والمنشور فى الجريدة الرسمية لحكومة طرابلس الغرب، ملحق عدد 13، طرابلس، أول يونية 1919 م ص 173.

(13) المصدر نفسه ص 153.

الحكومة) من أعضاء مجلسه (مجلس الحكومة) ووضع أعضاء المجلس من رئيسه، فلا هو بالمجلس الاستشارى المحض ولا هو بمجلس الحكم القاطع فى أمور الناس الموكلة اليه قانوناً.

اشكالية الصوت والاستماع

حين تتوالى اجتماعات مجلس الحكومة فى تلك الحدود المعروفة. تثار منذ البداية اشكالية حول تفسير الحكم المقرر قانوناً (لصوت مجلس الحكومة)، طبقاً لما ورد بشأن ذلك فى الفصل الثالث والعشرين من القانون الأساسى، وواقع الخلاف ناشىء من الاجابة الرسمية على هذا التساؤل: - (هل لقرارات مجلس الحكومة صوت قرارى بتّ أو استشارى محض؟)، ففى الوقت الذى يرى فيه الجانب الرسمى الايطالى طبقاً للمنطوق الحرفى للمادة ان صوت المجلس استشارى، يرى الجانب الوطنى خلاف ذلك انه قرارى، وقد حاول المحامى الاشتراكى الايطالى (جوفانى مارتينى) ايضاح هذه المادة مجتهداً فى نسبتها الى وضع قانونى مقارن دون أن يغفل الاشارة الى وعائها اللفظى وما نجم عنه من تفسير حين قال: «اننا نجد فى الدستور[14] البيان الكافى فى المواقع التى أريد فيها اعطاء الصوت القرارى بصراحة، كما نجد عمق الوضوح فى الأماكن المراد بها اعطاء الصوت الاستشارى باستعمال عبارة مثل بعد استماع هيئة المجلس»[15]، فان دى مارتينى رغما عن ذلك دعا الى معالجة المادة على ضوء ما تتبينه من روح القوانين الأساسية (الدساتير)، وقد طلب مقارنة الوضع القانونى لصوت أعضاء مجلس الحكومة بدساتير الدول الأخرى، بل وبالدستور الايطالى نفسه، حين ينص هذا الأخير على الوضع القرارى للملك فى القضايا المعروضة عليه، والاستشارى لمجلس الوكلاء (الوزراء أو النظار)، يقول فى ذلك عدة

(14) يعنى بالدستور (القانون الأساسى).

(15) اللواء الطرابلسى، عدد 5، طرابلس الغرب، جوفانى مارتينى. كلمة حق للمحترم جوفانى مارتينى المحامى الشهير والمنصف الكبير، المبعوث سابقاً فى مجلس الأمة الايطالى 13 من صفر 1338 هـ - 6 من نوفمبر 1919 م.

مرات تصدر أوامر من الملك، أو من هيئة النظار بعد استماع هيئة الوكلاء التى لها صوت استشارى نظرى، ولدى العمل لا نجد مثلاً يرينا رفضاً لقرار أعطى من (هيئة الوكلاء)، وعليه يتضح جلياً ان صوت مجلس الوكلاء له حكم قرارى تحت رداء استشارى، وبنفس التفسير ينبغى أن نفسر مادة الاستماع هذه طبقاً لطبيعة القانون الأساسى الدستورية، ولوضع الوالى القانونى كرئيس لهذا المجلس حيث لا ينبغى أن ينفرد بالأمر دون الأكثرية، فليس له بحكم ذلك بعد حق الرئاسة الا صوت كبقية الأصوات[16] ولكن هل تقبل الدوائر الرسمية هذه التفسيرات المناصرة لحق مجلس حكومة القطر؟ لقد تبين سريعاً ان الحكومة الايطالية على الرغم مما تبديه من روح التسامح والتودد، تقف ضد هذه الأفكار المناصرة لمن عدتهم رعايا من درجة مختلفة، فوجهت دعايتها فى عدد من جرائدها كجريدة (ايطاليا الجديدة) وغيرها، للتهجم على (دى مارتينى) وامثاله الذين نحوا هذا الاتجاه، وبخاصة منهم أصحاب التشكيلات التنظيمية الاشتراكية التى تحاول كسب عطف الوطنيين فى الجانب الليبى على الرغم من أن الحركة الاشتراكية الوليدة لم تكن فى واقعها خلال الفترة سوى جانب سياسى يحاول تمثل دور معتدل فى مواجهة التحديات الفكرية والعملية لنظرية الاستعمار، وعليه فان اسهامها الى جانب الحركات السياسية فى المناطق المحتلة يزيد من رصيدها المعنوى، ويدعم معركتها السياسية والانتخابية داخل ايطاليا نفسها خاصة فى هذه الفترة التى أصبح الشعب الايطالى فيها يئن من تلك السياسات الشوفينية المتعصبة والمثيرة للاحقاد والحروب.

القانون والتمييز العنصرى

كثيراً ما تطالعنا الكتابات الايطالية، بأن القانون الأساسى انما كان (دستوراً لحريات طرابلس) على ان هذه الكتابات تعترف بأنه الدستور الممنوح من قبل حكومة ايطاليا بصلاحيات محددة ومحدودة، وهو أمر أضحى من الوضوح بحيث لا يحتاج الى كبير بحث، بعد الذى وقع من تجاهل الحكومة

(16) نفس المصدر والعدد.

الايطالية للقواعد الأساسية للقانون الأساسى المتفق عليها فى (خلة الزيتونة)، وصياغة قواعد أخرى واضافية، ولكن يمكن تسجيل بعض الملاحظات رأينا لها أهمية خاصة لمجرد التأكيد: ـ

1) ان القواعد بصياغتها الجديدة صدرت دون الاشارة الى أى اتفاق أو قاعدة سابقة.

2) انها صدرت مغفلة الجانب الآخر الذى تم الاتفاق معه فى خلة الزيتونة.

3) انها صدرت بصيغة منحة ملكية تفضل بها الملك الايطالى (ايمانويل الثالث) على الشعوب الطرابلسية[17] كذا[18]، فكانت مرسوماً يحمل رقماً فى سلسلة أرقام الأوامر الملكية، التى قد تصبح عند استيفاء الشروط القانونية لها، وموافقة البرلمان الايطالى عليها (قانوناً) من قوانين المملكة.

وعلى ذلك هل يستحب الحديث على الخدعة السياسية أو الدبلوماسية فى موضوع القانون بعد؟ اذ أشار بعض رموز النظام الايطالى عاش الأحداث من بداياتها هو الدكتور (أنساباتو) وسجل انطباعه عن القانون الأساسى لحكومة قطر طرابلس بقوله: «ان فى القانون الأساسى ما يشبه الخداع»[19]، فى الحق ليس من داع الى ذلك بعد الذى ثبت من أن دستور الحريات المزعوم لا يمكن أن يتحمل تلك الدلالة الرفيعة، وما دمنا أمام بحث واقع نضطر الى بما يخدم الأهداف الموضوعية لهذا البحث، وقد نجد مثلاً أن ما جاء فى الفصل السادس من ان (الدين والأصول والعوائد المحلية مضمون)، تعبير لا يبعث على

(17) حاولت الدوائر الاستعمارية تمرير مصطلحات من هذا النوع ـ دون جدوى ـ فهى هنا تقسم هذا الجزء من الأمة الى جزئيات (شعوب)، انظر فى الخصوص سليمان الباروني، صفحات خالدة من الجهاد، الجزء الأول من الكتاب الثانى، جمع وترتيب زعيمة الباروني، بيروت ـ لبنان، ص 300.

(18) درجت نفس الدوائر على وضع صيغ لفظية عامدة بها الى نوع من الخداع، بحيث تبدو لفظة عمانويل أقرب فى جرسها الى سمع العربى من منطوقها فى أصلها الايطالى (ايمانويللى).

(19) كارلوغوتى بورشيناري، العلاقات العربية الايطالية، من مذكرات أنساباتو، ترجمة: عبد الرحمن سالم العجيلى، من منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين، ص 240.

الاطمئنان، لأن الرؤية السائدة التى غلبت على روح ذلك القانون انما كانت خادعة، فهى روح التعالى والكبرياء، اذ على الرغم من أن الروح السائدة فى الوطن الليبى آنذاك، كانت على العكس من ذلك روحاً معتزة بالذات الوطنية والاسلامية الى درجة ملحوظة، فان المشرع الايطالى وهو يحرر الفصل الثانى والثلاثين رأى أن يتحفظ على قبول طلبات المواطنين الليبيين الذين يتعرف اليهم بالتعريف الاستكبارى الجنسى المتعصب INDIGENI أى (الأهالى)[20] أو السكان المحليين، ـ فى حال تقديمهم لها ـ وذلك بوضع شروط تحول دون الأغلبية الساحقة من الليبيين والحصول على هذه المواطنة ـ حتى لو رغبوا فى الحصول عليها وهم لن يفعلوا ـ وقد نص عليها فى الفصل الأول من القانون الأساسى تحت اسم: CITTADINANZA وهذه الصيغة القانونية، وان كانت تشمل عامة الايطاليين وتعنى عرفياً (حق المساكنة)، فانها لا ترقى فى رأينا الى مرتبة (NAZIONALITA) الوطنية الايطالية لأن الحائزين لهذه الأخيرة وهم (NAZIONALI المواطنون)، ليسوا فى حاجة حتى من باب التعريف أن تقترن صفة الايطاليين بهم، لأنهم أَوْلَى من ينتسب فى ايطاليته لإيطاليا الأُم، وبكلمة أوضح تتعالى هذه الصيغة لتنصرف للدلالة الطبقية على المواطنين الايطاليين (الصرحاء)[21]، فاذا سلمنا بسقم منطق دعوى المساواة حتى فى ايطاليا نفسها، فسنجد ـ وهذا أمر لا شك فيه ـ ان المستعمر يضع بشر المستعمرات فى مرتبة تصنيفية أدنى من مستوى الوافدين اليها، وبخاصة منهم الايطاليين.

(20) قريباً من هذا نجد المصادر الفرنسية تستخدم مصطلح (المواليد) على سكان مستعمراتها، مضافاً الى نفس المصطلح المذكور فى الايطالية (INDIGENO).

(21) نعنى (بالصرحاء) المواطنين ذوى النسب الصريح بالمفهوم العرقى للمصطلح (NAZIONALI) ويشرفنى أن أعيد تعرفى الى الدلالات المختلفة للمصطلحات الاجنبية الواردة فى هذا المقال الى افادة تحريرية تفضل بها الاستاذ شمس الدين عرابى بن عمران، مؤرخة فى 1984/12/4، أيضاً الى ما كان يدور من حوار حولها معه ومع غيره من أساتذتنا الكرام من أمثال: عمر محمد البارونى، وخالد زكى ثابت وللأستاذ البارونى رأيه حول تجذير كلمة (INDIGENO) وعلاقاتها بالاضافة الى دلالتها على (محلية الساكن) علاقتها بالمصطلح اللغوى (المدجن والدجين) فى الاسبانية عن العربية، انظر فى ذلك: غابيللى، مصدر سابق، ص 1.

ومن العوائق التى كانت تقف بين تلك المواطنة ما تبدو له الصيغة الدينية، أو على الأقل ما يشير الى تحدره عن قواعد تضرب فى أعماق الديانة النصرانية، كعدم تقبل مواطنة الرجل المتزوج بأكثر من واحدة.

ومنها ما يتخذ السمة السياسية، كأن يشترط على طالب الجنسية الإخلاص السابق للحكومة الايطالية، وتقديم خدمات سابقة لها، أو على الأقل تقلد الراغب لوظائف عمومية فى السابق، كأنما تعتبر الخدمة العمومية وإن كانت لدى الدولة العثمانية كوظيفة حكومية انتماءً لسلطةٍ يمكن أن تحتويها السلطة الوافدة.

ومن هنا نخلص الى القول بأن كثيراً من المبادىء التى زج بها فى صلب القانون الأساسى كانت تحمل فى ذاتها مناقضتها لمبادىء نفس القانون، وانها باستمرار كانت تؤكد الوضع المتميز للعنصر الايطالى، وللسيادة الايطالية التى تُصدر من بين القوانين القانون الأساسىّ، وتقرّ المراسيم والأوامر الملكية والولائية، وتضع الجانب الوطنى الليبى فى موضع المتقبل والمنفذ لا أكثر، وتدل بذلك على انعدام المرونة فى سياساتها، والا فكيف لا ترحب ولا تشجع استجابة الجانب الطرابلسى (الليبى) الذى بلغ فى المرونة حدًّا يُلام عليه، إذ ماذا بعد القبول بالمواطنة الايطالية، والتى يعد هذا القبول بها اندماجاً طوعياً فى قومية غريبة، ليصبح تحت رحمة عقائد أخرى خصوصاً حين تقوى تأثيرات الثقافة الغالبة، ولكن... هل يثمر الخداع وسوء النية سوى الناتج العكسى؟ إن الدوائر الايطالية، وهى تواصل خداعها لم تكن تعنى ما تقرره تماماً، فلم يكن يتبين عملياً من المواطنة الإيطالية سوى مفهوم (المواطنة الليبية الخاصة «La Speciale Cittadinanza Libica».[22] وهو مفهوم يميز بوضوح بين الجنسيتين فى

(22) ورد هذا التعريف لدى رافائيل رابيكس المستشرق الدبلوماسى الايطالى المعروف والذى شهد عملية مفاوضات خلة الزيتونة، وهو من قام بجهود الترجمة مِنْ وإلى العربية فى تلك الأثناء، وأيضاً هو من قام بترجمة النص الأخير للقانون الأساسى الذى حمل التوقيع الملكى فى أول يونية 1919، ويعنى بالتعريف المذكور (المواطنة الايطالية الليبية الخاصة) انظر فى الخصوص: رافائيل رابيكس، مصدر سابق، ص 62.

ايطاليا وليبيا، بل ان ما تذهب اليه الأهداف الاستعمارية فى الواقع هو أن تسيطر هذه المواطنة الليبية الخاصة وهى ايطالية بالطبع على شخصية المواطن الليبى الصميم، باحتوائه تماماً أو إبعاده تماماً، ولعل ما كان يؤكد تغلب سيادة منطق التفرقة والتمييز بين العنصر الوافد الى ليبيا ومواطنها الأصيل، ما كانت تعبر عنه هذه العبارة القاسية والتى كانت تمزق جدار السمع لدى المواطن الليبى، وهى تتردد من وراء القوانين بل من فوقها «لا إزالة للتكليف مع الأهالى ـ السكان المحليين ـ Non confidenza con indigini»[23]، ففى هذه العبارة ـ كقانون غير مكتوب ـ ما يحظر مجرد التعامل العادى وجريانه بين بشر وبشر، الا أن يكون تعاملاً مقروناً بالاستعلاء والاستكبار.

وفى الختام: قد يخيل لغير متمهل أن هذه الاجراءات العنصرية وامثالها، هو ما كان يقف حائلاً دون اندماج المواطن الليبى الطوعى فى جنسية الاجنبى، غير أن الواقع الماثل يؤكد ـ تاريخياً ـ أن أمثال هذه المشاريع محكوم عليها بالفشل الحتمى، لأن الوطن وهو يحمل ثقافةً وانتماءً عريقين، وإن تعرض للهزيمة المادية فإن مناعةً ذاتية تتولد من خلال المعاناة، منطلقة من جوهر النفس، وذلك هو سر حياة الشعوب، واستمرار الروح الأصيلة فيها.

(23) من إفادة شفهية قدمها لى مشكوراً الاستاذ: ـ خالد زكى ثابت، أنظر أيضاً الأستاذ الهادى ابراهيم المشيرقى فى كتابه: ـ (ذكرياتى فى نصف قرن من الأحداث السياسية والاجتماعية)، تحت الطبع، ص 75، ويفهم من العبارة أيضاً «أنه لا تودّد مع المحليين»

الفصل السادس

هوامش واستقصاءات حول مذكرات العسكرى

العسكرى ـ ميلاده ونشأتُهُ :

جعفر العسكرى : ـ من مواليد بغداد بتاريخ 15 من شهر الفاتح (سبتمبر) 1885 والده مصطفى عبد الرحمن المدرس، كان يعمل ضابطاً فى الجيش العثمانى برتبة عقيد، وقد اشترك فى الحرب التركية الروسية 1877، أنجب خمسة أبناء كان جعفر رابعهم، انتقل والده إلى الموصل، وأقام بها بعد إحالته على التقاعد، أما جعفر فقد أرسله والده إلى بغداد مع أخيه هادى ليسلك بالمدرسة العسكرية فيها، وتوفى والده بعد سفر جعفر ببضعة أشهر، وفى سنة 1901 كان قد سافر إلى الآستانة، حين انتظم طالباً فى سلك المدرسة الحربية فيها، وتخرج منها سنة 1904 برتبة ملازم ثان، فعين فى الجيش السادس ببغداد.

من مهماته العسكرية : ـ أنه حارب مع العثمانيين فى حملة القصيم 1905، أرسل أيضاً ليساهم فى إخضاع تمرد بنى لام والبوحمد المنشقة.

إثر اعلان الدستور العثمانى 1908 أُرسل فى يولية 1908 إلى ألمانيا حيث قضى بها سنوات 1910 و1911 و1912، وفى أواخر سنة 1913 كان قد ساهم فى حرب البلقان، وعمل مع مصطفى كمال وعلى فتحى وأنور بك وصبيح نشأت، وغيرهم. كلف فى أواخر 1913 بمهمة التدريس بمدرسة الضباط بحلب، وتحول عنها طالباً بمدرسة الأركان فى الآستانة، وعند إعلان الحرب العامة واشتراك تركيا فيها كان بإيفاده إلى الجبهة الليبية، أُخذت هذه

النُّبذة مما ورد فى التقديم للمذكرات، وقد أعده محقِّقها الدكتور: ـ (نجدة فتحى صفوة)، ولم يقتصر الرجل فى عمله هذا على مجرد الإعداد للنشر، ولكنه تناول أموراً تتعلق بشخص صاحب المذكرات، وفيما رآه أنَّ توقُّف المذكرات عند سنة 1919 عائدٌ إلى ظروف الوفاة الفجائية، بينما نجد خلافاً لذلك، ومن واقع المذكرات أنها كانت جاهزة، ومعدة قبل ذلك بزمن، يؤيد ما ذهبنا إليه أن الرجل كان قد كلَّف عبد المسيح بترجمتها وأنه كان قد اتفق مع إحدى دور النشر البريطانية المهمة على نشرها فور الفراغ من إعدادها، وما دامت مترجمة فإن مسألة الإعداد كانت أمراً منتهياً، ولعل هذا التوقف فى ما نرى عائدٌ إلى تحفظ الرجل من تناول السياسات التى عرضت له ولصهره نورى السعيد فيما بعد[2]. وفى ما يتعلق بحركة الجهاد الليبية والحركة العربية بعامة؛ فقد تناولت المذكرات الفترة من إسهامه فى عمليات الحملة العثمانية الليبية ضد القوات البريطانية فى مصر، وما تلا ذلك من نشاطاته مشيراً إلى علاقاته الأساسية بنورى السعيد والشريف حسين والملك فيصل منتهياً فى ذلك بِتَحوُّله من حاكم عسكرى من قبل حكومة فيصل فى سوريا سنة 1920 إلى بغداد حيث ساهم بعمق فى أنشطة العراق المعاصرة، وكما ينبِّه الأستاذ (نجدة) الذى قام على تحقيق المذكرات لتنشر بعد مقتل صاحبها بفترة طويلة[3]، فإن جعفر العسكرى يتوقف عن التسجيل عند سنة 1919، أى قُبيل تحوله عن دمشق إلى بغداد باقتراح مقدَّمٍ من قبل اللورد اللنبى الذى اعتمد جعفراً كثقةٍ ثقةٍ؛ ملخصاً برقيته التى

(1) لا يفوتنى أن أنوه شاكراً بالأخ الزميل (على عمر الهازل)، الباحث بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى، الذى تفضل وأمدنى بنص المذكرات، الأمر الذى توفرت معه إمكانية هذه الدراسة.

(2) لعل هذا المسلك من جعفر يشبه مسلك عبد الرحمن عزام حين أغفل جانباً هامّاً من مساهماته فى الساحة الليبية ما بين سنتى 1919 و1923 متجاوزاً إياها إلى الفترة المعاصرة جدّاً.

(3) كانت وفاة جعفر العسكرى قتيلاً على أيدى رجال الانقلاب العسكرى الذى قاده صدقى بكر سنة 1936، وقد نشرت المذكرات تحت عنوان (مذكرات جعفر العسكرى)، تحقيق وتقديم: ـ نجدة فتحى صفوة، دار اللام، لندن، 1988.

أرسل بها من الاسكندرية إلى بغداد فى هذه العبارة: ـ «إنني أوصى بشدة أن يُدعى جعفر باشا إلى بغداد بأسرع ما يمكن، ولا أشك فى أنّه سيكون عوناً كبيراً لنا، فهل تتفقون معى فى هذا؟ وكان من أبرز الآراء المؤيدة للمقترح رأى الآنسة غرترود بيل، الخبيرة فى ما يعرف بالشؤون العربية.

وهكذا يحسن بنا حين نعرض لملاحظات الدكتور (نجدة) أن نشير إلى أنه كتب فصلاً ختامياً كتأريخ للمرحلة الغائبة فى مذكرات الرجل، وكان هذا الفصل بعنوان: ـ (مختصر سيرة جعفر العسكرى منذ توقف مذكرات إلى وفاته) مشيراً إلى واقع المذكرات بقوله: ـ «إنه لو قدر لجعفر العسكرى أن يواصل تدوين مذكراته عن السنوات التالية، أو لو وجد نورى السعيد متَّسعاً من وقته لإكمالها لحفلت هذه المذكرات بمعلومات وافرة وغنية، ولألقت على تاريخ العراق أضواء على جانب كبير من الأهمية، لأن جعفر العسكرى رافق منذ ذلك الوقت أحداثاً خطيرة وحاسمة فى تاريخ العراق الحديث[4]»، وفى الإشارة إلى نورى جاء عن الأستاذ نجدة أن نورى السعيد خال جعفر العسكرى الحفيد كان قد «تعهد بإكمال المذكرات التى بقيت ناقصة[4]»، كما تعرضت إلى عدة محاولات صياغة وترجمة؛ أولاها طبعاً النصُّ العربى الرئيسى لجعفر الذى كان يكتبه ويُعدِّلُه على فترات متقطعة، ثم ترجمته إلى الانجليزية على يد (عبد المسيح وزير) رئيس شعبة الترجمة بوزارة الدفاع العراقية، إذ دفع بها إليه ليترجمها إلى الانجليزية ففعل، ولكن نجله طارق العسكرى، وكان يتقن اللغة الانجليزية[5] لم يرتض هذه الترجمة، فأعاد ترجمتها، وكانت هذه هى الصيغة المتوفرة الآن لدى جعفر (الحفيد).

(4) نجدة فتحى صفوة، ملحق لمذكرات جعفر العسكرى، مصدر سابق، ص 174.

(4) مكرر، نفسُهُ بنفس الصفحة.

(5) يُشير محقق المذكرات إلى أن ذلك كان نتيجة للفترة الزمنية الطويلة التى قضاها طارق فى بريطانيا، وكانت دراسته الثانوية فيها، كما أنّه كان قد تخرج من كمبردج، وكان مولعاً بالأدب الانجليزى خصوصاً أدب شكسبير.

جعفر يرافق نورى إلى ليبيا: -

كلما أمعنا النظر فى تاريخ حركة جهاد الليبيين المعاصرة، وبالمقارنة بالأحداث العربية الأخرى، فإننا سنجد أنها تعج بالأحداث البالغة الأهمية، من حيث قيمتها الفعلية فى الحركة الشعبية المعاصرة، والتى كانت نتاج حركة أوسع فى تاريخ العرب والمسلمين، لكل ما خالطها من فعل وردود فعل، أو بتعبير تُوينبى (التحدى والاستجابة)*، وهٰكذا تتبيَّن يوماً عن يوم أهمية الساحة الليبية التى عرفت خلال جهاد الغزاة والمستعمرين لا جبهةً واحدةً هى الجبهة الشمالية ضد هجمة الإيطاليين منذ سنة 1911، وحتى هزيمة قوات روميل أمام زحف مونتغومرى، 1943، ولٰكن عدة جبهات، إذ كانت حركة جهاد الليبيين فى الواقع تجابه الزحف الصليبى فى الاتجاهات الأربعة، ولعلنا حين نتناول هٰذه المرة فى شىء من الإيجاز بعض ما جاء فى مذكرات جعفر العسكرى، إنما نحاول الدخول على مستوى تفصيلى فى ميدان حركة المقاومة الجهادية المسلحة العربية الإسلامية ضدَّ الهجمة الأوربية الأميركية المعاصرة، وإذا كنَّا نشير إلى العنصر الأخير فى المسألة، فإن الولايات المتحدة الأمريكية، كانت تُعدُّ إحدى القوى المعتبرة فى هٰذه الهجمة، على اعتبار أنها الحليف الأقوى لدول الحلف المركزى (بريطانيا فرنسا وإيطاليا) إثر انسحاب روسيا منذ ذلك الحلف بعد الثورة الشيوعية 1917، وهٰكذا حينما نتناول مذكرات جعفر العسكرى، فإنما نحاول التعرف إلى هويَّة الرجل بين عدد من الرجال منهم من كان على ملَّته السياسية ومنهم من كان على النقيض، إبَّان أحداث الحرب العالمية الأولى التى قدر لحركة جهاد الليبيين أن تمثل جبهة حيةً فيها، وقد حاولَتْ بما أمكن لها أن تكون طرفاً فاعلاً فى أحداثها؛ وقد يمكننا باختصار أن نعرض لهٰذا الدور بإيجاز شديد حين نقول إن حركة المهاجرين الليبيين إثر معاهدة (أوشى) 1912، وإثر نتائج معركة جندوبة السلبية 1913، إن تلك الحركة كانت مثيرة ومعبرةً عن الرفض القاطع لتلك النتائج، ومع تجدد أحداث الثورة فى الجنوب والجبل الغربى

* ولعل مما يعنيه توينبى أيضاً من خلال تنظيره أن الموقف وما يفرضه من حركة ناتجٌ من خلال إدراك الحال على هيئة مواقف فى اتجاه فهم المتقبِّل.

والهزيمة الإيطالية المنكرة أمام زحف الثوار سنة 1915، واستمرار العمليات الحربية فى النطاق الشرقى من الوطن، فقد جرت أحداث محاولات جريئة، قصد منها تنشيط الحركة الجهادية بفعالية أكبر، وبمؤازرة الدولة العثمانية؛ فكان إرسال بعثات وطنية لتحقيق الهدف، وكان نزول سليمان باشا البارونى والشيخ محمد سوف أواخر سنة 1914 فى منقطة السلوم، لمحاولة تحريك الجبهة فى عملية جريئة ضد الإنجليز، بعد أن تبينت أهدافهم العدوانية ضد الدولة العثمانية، وإثر فشل هٰذه البعثة، واعتقال السنوسيين للبارونى فى شهر النوار (فبراير) 1915، والدفع بالشيخ محمد سوف زميل البارونى إلى النطاق الغربى كمنظم للأدوار ولتجميع المجاهدين فيه، بعد هذا كان نزول نورى باشا (أخى أنور باشا) ناظر (وزير) الحربية العثمانية كقائد لحملة عثمانية ليبيَّةٍ ترمى إلى تحقيق نفس الهدف، وهو مناوشة القوات البريطانية فى مصر، وخلق وضع غير مستقر لها على الحدود المصرية الليبية فى نفس الوقت الذى تتحرك فيه قوات عثمانية رئيسية تنال من الإنجليز فى جبهة شرقية وبالتحديد فى قناة السويس، ويبدو أن حركة نورى هٰذه التى جاءت متأخرة عن عملية السويس التى نفذها االقائد العثمانى أحمد جمال باشا فى الخامس من شهر النوار (فبراير) 1915، ويعزى فشلها إلى تخلف الحملة الغربية عن الحركة بسبب ممانعة أحمد الشريف الشديدة التى أدَّت فيما أدت إليه إلى اعتقال البارونى، ومن كان على رأيه من رجال الحملة الأولى[6]، أما حملة نورى هٰذه فقد بدأت طبقاً لجعفر فى مذكراته التى بين أيدينا الآن؛ فقد بدأت بحركة نورى مغادراً الآستانة فى اتجاه أثينا ثم ليبيا يوم 5/ من شهر الكانون (ديسمبر) 1915، وقد رافق نورى خلال الرحلة كمساعدٍ له الضابط العثمانى (جعفر العسكرى)، كما رافقهما أحد المجاهدين الليبيين من القطاع الشرقى (الحاج كامل. . .)[7]، وهٰكذا ربما كان نزولهم على

(6) محمد ابراهيم لطفى المصرى، حرب طرابلس الغرب، مصر، بنها، مطبعة مؤسسة الأمير فاروق، 1365 هـ - 1946 م، ص 60، ويذكر أن حادثة الاعتقال تلك كانت بتاريخ أوائل (النوار - فبراير) 1915.

(7) المذكرات، ص 55، وقد ذكر الإسم هٰكذا مفرداً، يشبه فى ذلك التعريف العثمانى بالأعلام وبخاصة العسكريين منهم، وطبقاً لمحمد فؤاد شكرى، ميلاد دولة ليبيا

شاطئ السلوم فى أواخر شهر كانون المذكور، أى بعد عشرة أشهر ونيِّف من تنفيذ عملية الهجوم العثمانى على قناة السويس، ومحاولة عُبور القناة الذى وقع يوم الخامس من النوار (فبراير) كما أسلفنا.

جعفر يقابل جمال باشا فى القدس: ـ

اثر اجتماع جعفر بأحمد الشريف فى موقع (بئرالواعد) على الحدود الشرقية الليبية مع مصر، تقرر بالاتفاق بين الرجلين أن يقوم جعفر بالرحلة الى فلسطين حيث يتصل بقائد الجيش الرابع العثمانى (أحمد جمال باشا) لطلب الدعم والمساعدة، وربما لأمور أخرى لم يذكرها؛ ذلك أنه كان قد وصل على التوِّ من الآستانة ويفترض أن مسألة العُدَّة كانت من الأمور التى عولجت أصلاً، وفى الطريق إلى فلسطين غادر الأراضى الليبية إلى مصر، حيث استطاع منتحلاً شخصية تاجر، أن يموِّه على المسؤولين البريطانيين الذين قابلهم، فلم يتعرفوا إلى حقيقة شخصه، ومن الاسكندرية ركب البحر على سفينة إيطالية متجهة نحو (يافا)، التى غادرها نحو القدس، حيث لقى جمال باشا قائد الجيش الرابع، وطبقاً للمذكرات، فإن جمالاً تعجَّب من هٰذه الرحلة الملتوية، إذ واجه جعفر بقوله: ـ «وَلِمَ كلُّ هذه الحركات العويصة؟!»[8] وإذ ردَّ جعفر قائلاً: ـ «إن ذٰلك لتخفيف الوطأة على جيشكم لتحتلوا مصر»[9] قال جمال: ـ «إنه مشغولٌ بفتح سورية، وبعد أن يكمل مهمته هٰذه ويطهر البلاد من الخونة، سوف ينظر فى احتلال مصر»[10]، وهنا لا ندرى تفسيراً لهٰذا الموقف، وما إذا كان جعفر يتحدث عن محاولة ثانية للجيش العثمانى لدخول مصر تعويضاً عن

الحديثة، مجلد 2، القاهرة، مطبعة الاعتماد، 1957، ص 464، فإن أنور كان قد عرض على بشير السعداوى القيام بمهمة مرافقة الحملة، غير أنه اعتذر، (ولكن ربما استُثنى من ذلك، فقد تبيَّن خلال اجتماع شهير فى الآستانة أن لبشير رأياً نقيضٌ لا يتفق وما ينتظر من هٰذه الحملة)، للتوسع: ـ أنظر شكرى، نفس المصدر، ونفس الصفحة.

(8) المذكرات، مصدر سابق، ص 62.

(9) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(10) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

الحملة المنفذة المشار إليها، ولٰكننا نستغرب أيضاً اللهجة التى تحدث بها جمال باشا عن (فتح سورية) علماً بأن الفتح مصطلح لا تستخدمه الجيوش الإسلامية فى حالة كهٰذه، وكأنما كانت سوريا لا تزال فى حاجة إلى فتح، ومنذ حررها آل زنكى لم تكن قد احتاجت إلى مثل ذٰلك الفتح، فضلاً عن كونها تحت السلطة العثمانية، هٰذا إذا كان الرجل قد فاه بكلمة الفتح أصلاً، وقد لا نجد تفسيراً لما أورده جعفر عن جهل جمال بحقيقة المهمة التى أُرسل لأدائها نورى باشا فى ليبيا، وكلنا يعرف أن المهمة (مهمة جمال باشا) كانت محددة فى مداهمة القوات البريطانية فى مصر، ومحاولة إنهاك قواها، وأن تلك الحملة لم تكن بل ولا يمكن أن تكون بمنأى عن خطة مناوشة الإنجليز من جهة الغرب أيضاً، وهنا يمكننا أن نتساءل: ـ أيْن تقع مهمة نورى ورجاله من الإعراب؟! أم أن جعفر يفترض ألا يكون هناك تنسيق بين أنور باشا وزير الحربية وبين أخيه نورى باشا قائد الحملة العثمانية الليبية على مصر، بل إن هٰذا الأسلوب كان يعبِّر عن اتجاه اتخذه جعفر حيال بعض الشخصيات التى لم تكن على رأيه، وقد نعرف أن هناك توجهين ينشطان على الساحة العسكرية والمدنية يختلفان فى المبدأ والمشرب، وكانا يصطرعان داخلهما بشكل واضح فى الأثناء[11].

وعلى أية حال فقد اتصل جعفر ببعض أصدقائه فى الشام وكان ذٰلك على السواحل الشامية، فقد كان فى وداعه من بيروت عائداً إلى ليبيا، صديقاه الأمير عادل ارسلان وناجى بك الأصيل، بعد أن حمّل مركباً بالأسلحة اشتراها من هناك، ويعود جعفر إلى ليبيا حيث نورى والسنوسى، ومن معهما، وهنا يلاحظ أنه كان يتجاهل فى مذكراته تناول أى شىءٍ عن شخصيات جهادية أخرى طرأت على الساحة، كأنما لا يعلم شيئاً عن مقدم الحملة العثمانية الأولى التى كان من بين رجالها سليمان البارونى ومن معه من المجاهدين[12]، ومن أن

(11) كان من أبرز عناصر أوَّلها (أنور باشا)، بينما كان من أبرز عناصر ثانيها (مصطفى كمال) الذى كان ينشط مبكراً فى سبيل إنجازٍ كبير هو ما تحقق على يديه فى نهاية الأمر، وهو فصل تركيا عن جذورها الشرقية.

(12) أنظر: ـ محمد ابراهيم لطفى المصرى، مصدر سابق، ص 53 ـ 54.

مهمتهم الرئيسية كانت تحريك الجبهة التى يحاولون الآن هم تحريكها، كما أنه لا يشير الى مقدم الأستاذ عبد الرحمٰن عزام من الشرق ومساهمته فى الأحداث.

مقتل الفيلالى: -

فى معسكر المجاهدين الذى يقوده أحمد الشريف توالت الأحداث بسرعة، لأن نورى باشا - وكان على نية إثارة الجبهة ضد الانجليز - كان يحاول الحصول فى ذلك على موافقة أحمد الشريف الذى كان معترضاً على هٰذا الأمر جملة وتفصيلاً، وكانت علاقاته بالسلطات البريطانية علاقات مجاملة ومودة، ولم يكن يرغب فى إثارة هٰذه السلطات أملاً منه فى الإبقاء على الصلات التى تربطه بالقطاع الغربى من مصر، وعلى مصادر الإمداد التى كان يحصل عليها من العمق المصرى، فكانت هناك إذاً أسبابُ ومبرراتُ الإبقاءِ على علاقة ما بالسلطات البريطانية، التى كانت على صلة به مستمرة، وكان من بين الضباط الانجليز الذين يتبادلون الزيارة مع القطاع الليبى آنذاك النقيب رويال والعقيد (سْنُو) محافظ الصحراء الغربية وضابط المخابرات الانجليزية، بل وكان أحمد الشريف يتبادل المراسلات مع الجنرال ماكسويل قائد القوات البريطانية فى مصر، فكان طُرُوءُ نورى ومن معه على الساحة عاملَ تشويش، حاول معه السنوسى ضبط الأحوال فى صالح السكون، ولٰكن نورى ظل مصرًّا أن ينفذ المهمة الموكلة اليه، وأن يقحم المجاهدين فى حرب ضد القوات البريطانية على الحدود، ولما لم يجد وسيلة لذٰلك مقنعةً، فإنه اختار ضابطين من ضباط الحملة، هما: - أحمد مختار الفيلالى، وأبا القاسم العيساوى، وكان الأخير منهما إبن شيخ زاوية بنغازى، وكان والده على صلة وثيقة بأحمد الشريف، وكان من وزرائه المتنفذين، على حد تعبير جعفر، الذى يضيف قائلاً: - «إنهما هجما على نقطة البرانى على بعد عشرين كيلومتراً من السلوم، فاحتج الانجليز على هٰذه الحركة واغتاظ السنوسى من نورى ومنّى خاصة لأننى كنت قائد القُوّة النظامية فيما تجاهل نورى أمر هٰذه الحادثة، وألقى التبعة على السيد أبي القاسم (الشاب) وعلى الملازم أحمد مختار، وتهدئةً للحالة أمرنى السنوسى بالذهاب بنفسى وجلب

أبى القاسم وجماعته من داخل الحدود المصرية»[13]. ويضيف جعفر مفصلاً: - «ركبت سيارةً مع قومندان الكابتن (النقيب) رويال، وذهبنا إلى جوار سيدى برانى، وبعد التفتيش عنهم بين الهضاب مدة ساعتين أو ثلاث ساعات عثرتُ عليهم، فأبقيت الكابتن رويال[14] مسافة نصف ميل بعيداً عنا، وكلمت أبا القاسم، وأفهمته حراجة الموقف، ووجوب رجوعه دون أن يأتى الى المعسكر لأن السنوسى كان غاضباً عليه وعلى أحمد مختار لتصديهما لمثل هذه الحركة بلا موافقة مبدئيًّا، فقبل بنصيحتى، ووافق على الرجوع مع جماعته فى ذلك اليوم ذاته، فرجعت أنا ورويال إلى السلوم، وطمأنتُ السيد أحمد بأن أبا القاسم وجماعته رجعوا من الأراضى المصرية امتثالاً لأوامره، فغضب وأرعد وأزبد وطفق يهددنا بصورة مزعجة، وبعد بضعة أيام أمر السنوسى بتعقب الفلول التى بقيت فى أراضى مصر، وإرجاعها بالقوة، فذهبت مفرزة - فوج (طابور) عشيرة المنفة، فاصطدمت بالملازم أحمد مختار وجماعته فَقُتل احمد مختار فى تلك الواقعة، وأسفنا عليه جد الأسف لأنه كان من الشبان المثقفين فى المدارس الحربية العثمانية، وكانت له مواقف مشرفة فى مكافحة القوات الإيطالية من حين لآخر، وكان من المقربين إلى السيد إدريس وكان اتصاله بى وثيقاً لصداقته لأخى تحسين الذى خدم أيضاً مدة طويلة فى الجيش السنوسى قبيل الحرب العظمى، وكان فى معيته مصطفى كمال باشا (أتاتورك)»[15].

وهنا تستوقفنا حادثة مقتل الفيلالى، إذ ترد فى مصادر أخرى بصورة مغايرة تذكر أن أحمد الشريف أقام محكمة عسكرية وأصدر أحكاماً سريعةً ضد الرجلين (العيساوى والفيلالى)، وبينما تمكن الأول من الفرار والنجاة نفذ حكم

---

(13) المذكرات: - ص 71 (ونقصد بالمذكرات أينما وردت مذكرات جعفر العسكرى المعنية بالدراسة).

(14) النقيب رويال يشغل آنذاك منصب القائد العسكرى لمنطقة مطروح، أنظر فى ذٰلك: - د. محمد فؤاد شكرى، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربى، القاهرة، 1948، ص 167.

(15) المذكرات، ص 71 - 72.

الإعدام فى الثانى[16]، ومما يذكر هنا أن وصفى الخازمى أحد الضباط الكبار فى الحملة تملكته عاصفة غضب لمقتل الفيلالى على تلك الصورة أولاً، ولصلة القرابة التى تربطه به ثانياً.

لمن يكتب الرجل؟! ـ

بغض النظر عن الجانب الفنى، علينا أن نتوقف من حين لآخر عند أسلوب الكتابة التاريخية لمذكرات هؤلاء الرجال، وقد فعلنا شيئاً من هذا فى دراسة سابقة لذكريات عبد الرحمن عزام[17]، وقد نجد شبهاً كبيراً بين الرجلين ومنهجيهما ففى وقعة (وادى ماجد) يوم 24 من شهر كانون (ديسمبر) 1915 يورد جعفر حكاية طريفة عن دوره فى المعركة، ومن ذلك أنه حين يتضايق المجاهدون يرى جنوداً متقهقرين ويصف التراجع بأنه كان هزيمة فى الواقع لا تراجعاً، وفى غضون ذلك يرى جعفر «البندقىّ الحاج كامل بك منهزماً حافى القدمين حاسر الرأس»[18] مضيفاً إلى ذلك اتهاماتٍ مشينةٍ لهذا الرجل، منها أنه كان المسؤول الأول عن إيقاع النفرة بين الضباط العرب والترك، مُستَطْرِداً: «أنه كان فى الواقع صديق نورى باشا وموضع ثقته»[18]، ولعل هذه الإشارة لعلاقته بنورى من قبيل اللّمز المتكرر منه فى هذه المذكرات، فهى من باب الخُلْف أو دفعاً للتهمة التى وُوجِهَ بها (أى جعفر) من قبل بَعْض المجاهدين وفحواها يتعلق «بانتشار الخبر أن جعفر باشا نفسه انهزم فى المعركة»[19]، وكما يقول فإن كامل هذا كان: «لسوء الحظ شبيهى فى ضخامة الجسم واللحية السوداء»[20]، وهذه

(16) محمد ابراهيم لطفى المصرى، تاريخ حرب طرابلس، بنها، مصر، مطبعة مؤسسة الأمير فاروق 1365 هـ 1946 م، ص 69.

(17) للباحث، قراءة جديدة فى ذكريات عزام، العدد الخامس من مجلة الشهيد، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس ـ ليبيا، 1984.

(18) مذكرات العسكرى، ص 79.

(18) المصدر نفسه والصفحة.

(19) المصدر نفسه والصفحة.

(20) المذكرات نفس الصفحة.

لا ريب فى مجملها أمور تقلل من قيمة المدوَّن، ولعلنا نستطيع استكشاف بعض الشبهة فى هذا من خلال عدة أمور، منها: ـ

1 ـ أن ما ينتشر لدى مجاهدين، وهم شهود عيان حادثةٍ معينة، تتوفر فيهم شروط الشهادة، يستبعد أن يمازجه الخطأ فى قضية كهذه، كأن يخلطوا بين الرجال مع ما هو معروف عن طبيعة قدراتهم على الملاحظة ودقة الفراسة.

2 ـ أنه لا أحد غير جعفر تناول هذه المسألة التى تشبه الاعتراف منه بوقوعها.

3 ـ أنه مما يقلل من قيمة مدونته أيضاً ما ذكرته المصادر عن مسألة أسره خلال معركة العقاقير يوم 26 من شهر فبراير 1916، وأن ذلك كان قد تم طواعية، لأنه طبقاً لتلك المصادر كان قد سَمَحَ للإنجليز بأسره.

على أن الانجليز كانوا قد عمدوا فعلاً إلى تضخيم الواقعة، ووضْعها فى إطار أكثر دعائية، لأنهم استغلوا رتبته العسكرية ولقبه (كباشا)[21] فقالوا إنهم

(21) خلافاً لما أثبتناه فى دراستنا على العدد الخامس من مجلة الشهيد 1984، أخذاً عن ذكريات عزام حول أسر جعفر العسكرى واختلافنا مع ما جاء فى المقطم عن لقب الباشوية، فإننا أصبحنا نميل طبقاً لقرائن جديدة، منها ما جاء فى رسالة لسليمان البارونى، وكان شاهد عيان فى السلوم أرسلها من مُعْتَقَلِهِ هناك إلى نورى باشا أُثبتت فى كتابه (صفحات خالدة من الجهاد، الكتاب الأول، ص 525، إلى أن رتبة الباشوية كانت قد منحت لهما قبل مباشرتهما هو وجعفر مهمة مناوشة القوات البريطانية بالفعل، والرسالة مغفلة د.ت، ولكننا نرجح كونها تنتسب إلى السياق التاريخى لرسالة شبيهة كان البارونى قد حررها فى النصف الأول من شهر الحرث (نوفمبر) 1915، أيضاً يؤيد ما ذهبنا إليه الآن ما أثبته د. محمد فؤاد شكرى فى كتابه، ميلاد دولة ليبيا الحديثة، مصدر سابق، ص 464، عن بشير السعداوى «أنه اعتذر عن السفر مع نورى إلى طرابلس الذى كان قد منح رتبة الباشوية الفخرية بهذه المناسبة» قارن ذلك مع: ـ ابراهيم الشريف، من محفوظات شعبة الوثائق والمخطوطات، مجلة الوثائق والمخطوطات، العدد الأول، 1986، ص 181، وما بعدها مما يتصل بوثائق عن جعفر العسكرى، وفى هذا الباب نعثر لدى: محمد الطيب الأشهب فى كتابه: ـ برقة العربية أمس واليوم، القاهرة، مطبعة الاتحاد، القاهرة، 1364هـ ـ 1945 م «أن رتبة الباشوية منحت لنورى من نائب الخليفة أحمد الشريف، وكذلك لجعفر العسكرى».

أسروا القائد العام للحملة العثمانية الليبية، فكان ذلك الإعلان البريطانى مما يُستهدفُ من خلاله التأثير على معنويات الشعب المصرى الذى كان آنذاك يتحفز للثورة، على أن جعفراً لم يكن فى الواقع قائداً للحملة، ولكن سؤالاً يتبادر إلى الذهن لدى قراءة المذكرات هو التالى: (لمن يكتب الرجل؟)، لأننا نلحظ منذ أول وهلة أن رؤاه تنطلق من شعور بأسر الطابع الغربى، أو بمعنىً آخر ان كتابةً كهذه انما توجَّه الى الشارع الغربى، وأمر ذلك قد يعاد إلى تأثير الحياة الغربية على ثقافات بعض الناس، وقد نجد ذلك واضحاً من خلال مثلين:

أولهما: حين يتناول بعض المظاهر الحياتية لجماعات المجاهدين التى شاهدها كأنْ يقول: - «إن هناك اتفاقاً تمَّ بين رؤساء القبائل والسنوسى كالاتفاق الذى بين ملوك أوروبا وأمرائها ورعيتهم أن ترسل كل قبيلة بنسبة العهد الاقطاعى فى العصور الوسطى، وذلك عدداً من الشبان إلى المعسكرات السنوسية لخدمة العلم السنوسى، وكان هؤلاء (الجند) يسمَّون مجاهدين»[22]، «وكان على كل مجاهد أن يأتى ببندقية ومقدارٍ من العتاد، وعلى كل عشيرة منهم أن يأتوا بخيمة أو بيت شعر معهم مع أوانى الطبخ، وخادمة لتطبخ لهم طعامهم، وتغسل ملابسهم، وتسمَّى (نفَّاقة)، ولا أعلم هل كانت وشائج الغرام تتأصل أحياناً بين (النفاقات) وبعض المجاهدين، فهذا سرٌّ كان الليل يرخى سدوله عليه»[23].

وهنا يبدو لى أن صفة المجاهد لم تكن لتستقر فى قناعات الرجل حين يذكر الجند الذين يُسمَّون مجاهدين، رُبَّما لأن مصطلح الجهاد كان يعانى لديه غربة، وإلاَّ فإن نداء الجهاد كان أصرح النداءات منذ أول طلقة معتدية على الأراضى الليبية تردُّ عليها المقاومة الجهادية استجابةً صادقةً لقوله سبحانه وتعالى: - ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله**

(22) المذكرات، ص 91.

(23) نفس المصدر، والصفحة.

ذلكم خيرٌ لَكُمْ إن كنتم تعلمون﴾[24]، ويبدو أيضاً أن هناك خصوصيات تَفُوتُ هذه النوعية من الفهم لروح الجهاد التى لا يستوعبها سوى من اقترب أكثر من هذا الشعب فى حياته البسيطة التى جعلت مسألة الانتساب الى حركة الجهاد تطوعاً، وكان ذلك يعنى حرية الانتساب لجيش المجاهدين، ولذلك فقد استحق الرجل، واستحقت المرأة ممَّن انتسب إلى تلك الجيوش فى ليبيا تلك المكانة الفريدة السامية، التى جعلت مِمَّنْ دعاهم العسكرى جنوداً وأحياناً مجرد بنادقة[25] مجاهدين حقًّا وفعلاً، وأن تلك المرأة المتطوعة التى عرفت (بالنفَّاقة)، لم تكن خادمةً بل هى مدبِّرةُ أمورهم أو مديرةُ إعاشتهم، وأنها كانت المرأة المتطوعة المجاهدة المحتسبة، وكانت كثيراً ما تبذلُ نفسها فى سبيل الله مقاتلةً فارسةً أو راجلةً، وكانت بالنسبة لرفاق رَبْعها الأمَّ والأختَ والكريمةَ لا العشيقةَ التى يستر الليل أخطاءها، أو اخطاء زملائها، لقد عرفت الزراعةُ وحقولها فى ليبيا مسألة (النفَّاقة والنفقة)، ولم يكن يخطر على بال رجل عاش الحياة الليبية فى ريفها وباديتها أن يُسيءَ الى ذلك النموذج الذى سعى العسكرى إلى وصفه بما ليس فيه، ووصمه ووصله بالتعابير المستوردة التى قد تروق لغربيٍّ من أولئك الذين يحلو لهم وضع تراكيب تُلْهِبُ مشاعر وخيالات مرضى المجتمعات الغربية، التى كان منها دعاة العنصرية وتملك مقدرات الشعوب الأخرى، أما المجاهدون والمجاهدات من كانوا فى جمع كذلك الجمع وفى ميدان كذاك كانوا أرفع وأسمى من أنْ تدنِّس رؤاهمْ نظرةٌ طفيلية تعدو على شرفهم الذى يستمدونه من الحفاظ على عرض من يرافقهم، بل وعلى حرمة مجرد من ينتفع بجيرتهم أو حمايتهم، أمورٌ عَرَفَها البدوى الجاهلى، ولا يزال المواطن أينما كان فى مغرب أو مَشْرِق البلاد العربية والاسلامية يحتفظ بها، ويحافظ، ويكسو هامة الرجال والنساء شرف الرفقة ورفقة الشرف، فأين يجد العسكرى نفسه تولاَّه الله بما يستحق - والأمر خطيرٌ - لا يستقيمُ حتى بمنطق وحُكِمَ الحياة العسكرية، تلك التى تقسو على رجالها، ولا تدع لهم فرصةً للتفكير بمستوى كهذا من سوء

(24) آية 41 من سورة التوبة.

(25) المذكرات ص 79.

الظن، أم أن الأمر عنده لا يعدو نُزهةً على شاطىءٍ بلا حدود، وفرصةً لقذف المجاهدات، فكان أولى به أن يَتَمَثَّلَهُنَّ أسمى وأطهر، وأن يضعهن فى المحل الأرفع من وجدانه كمجاهد! وأن يسمو بهنَّ كما سمت نفسياتُ رفاق (نُسيبة بنت كعب وأم عمارة رضى الله عنها) وهُنَّ يُذْدْنَ عن رسول الله ﷺ بالسيوف والرماح، أو يتمثَّل فيهن خولةَ رضى الله عنها وهى ترحل مع الراحلين، وتقاتل مع المقاتلين كأشجع وأجرأ من عرف التاريخ من ناصرات حقٍّ ودين، لقد كان الليل فى ساحات الجهاد مسرحَ صلاةٍ وقيامٍ، وإحياءٍ بقراءة القرآن (رهبان باللَّيل أسودٌ فى النهار)، حياةٌ لا يفقه سرَّها، ولا يدرك سحرها سوى امرىء نذر نفسه لله، وليس بعيداً من ذلك مجاهدو هذه الساحة، وقد يستطيع الباحث التحقق مما قلناه دون كبير جُهدٍ، لأن وضوحه من وضوح الأمر المعتاد.

من المعتقل إلى قصر السلطان: ـ

تحدث جعفر عن أسره فى معتقل (المعادى)، وكيف عنى به قبل ذلك فى المستشفى القريب، وكيف قابله قائد القوات البريطانية (ماكسويل)، وكيف أوصى به خيراً، وكان قد صحبه إلى تلك المقابلة آمرُ المعتقل العقيد (سمسون)، وكيف عومل معاملة حسنة، ثم رتبت له مقابلةٌ مع سلطان مصر (حسين كامل) المنصَّب خلفاً للخديوى (عباس الثانى)، فقد أرسل السلطان يستدعيه، وكيف رحب به وأهدى إليه بعض الكتب التى كانت قد ألَّفتها كما يقول: «بنت عظمته البرنسيس قدرية»[26] باللغة التركية وكيف أن جعفراً احتفظ بهذه الكتب «لنفاسة موضوعاتها ورقة أسلوبها»[27].

(26) المذكرات، ص 94، وقد تدخلت السلطات البريطانية الحاكمة فى مصر نتيجة خروج الخديوى عباس الثانى (حلمى) عن الخط السياسى الذى ترسمه تلك السلطات، وبسبب سياسة التقارب مع الدولة العثمانية، فقد تمَّت تنحية الخديوى عباس وتنصيب حسين كامل (سلطاناً) على مصر، وكان من العاملين على ترسيخ السياسات البريطانية.

(27) نفس المصدر والصفحة.

أمام نورى السعيد وجهاً لوجه: ـ

كان جعفر لا يزال فى معتقل المعادى حين زاره العقيد (ديدز) من دائرة الاستخبارات العسكرية البريطانية، ليجد نفسه مواجهةً مع نورى السعيد، وكانت مفاجأة، جعلته يحاول الإفصاح عنها بأى نوع من التعبير ريثما يتضح الأمر، وفى تلك الزيارة حدَّثه رجل الاستخبارات هٰذا بلغة تركية سليمة قلَّ أن يحسنها أجنبى، ذٰلك أن الرجل كان قد تولى مهمة عسكرية فى الجيش العثمانى موفداً من قبل الحكومة فى مصر قبل ذٰلك. ولعلنا فى حاجة إلى معرفة سر وجود نورى السعيد فى مصر آنذاك، وقصة ذٰلك أن نورى السعيد كان بمدرسة الأركان الحربية فى تركيا قبيل نشوب الحرب الأولى ولعلاقاته السياسية بعزيز المصرى، ولأنه كان مع الدكتور عبدالله الدملوجى يمارسان نشاطات لصالح تكوين رأى عربى، وخشية أن يتم اعتقالهما من قبل السلطات العثمانية، فقد تمكنا من الهرب، حيث توجَّها إلى البصرة وظلاَّ فى ضيافة (طالب النقيب)[28] مدةً، ثم غادر الدملوجى العراق إلى الحجاز حيث اتخذ له طريقاً إلى الأمير (عبد العزيز آل سعود)، وظل فى معيته حتى سنة 1929، وإثر إعلان الحرب العامة ولوساطة قدمها طالب باشا النقيب صدر العفو عن نورى السعيد، ولما كان نورى نزيل مستشفىً فى البصرة لمرض ألمَّ به، فقد وقع فى أسر القوات البريطانية هناك إثر هجوم شنّه البريطانيون على جنوب العراق، ومن هناك

(28) هو (طالب رجب النَّقيب باشا)، زغيم ولاية البصرة، وأحد النواب العرب فى مجلس المبعوثان العثمانى، مخالفٌ لسياسة الأتراك الإتحاديين أحياناً، وكان من أبرز العاملين للحصول على استقلال العرب، ولٰكنَّ الأتراك على الرغم من ذٰلك كانوا يعمدون إلى سلوك طريق اللين والمجاملة معه، على أنَّه اعترض على تنصيب (فيصل بن الحسين) ملكاً على العراق بعد ان طرد الأخير من سوريا، وكان من نتائج هٰذا الاعتراض على مقررات السياسة البريطانية أن استدعى لاحتساء الشاى فى بيت (السير كوكس) المفوض البريطانى المدنى فى العراق بحضور مسز كوكس والآنسة (غرترودبيل)، ومن هناك تم اعتقاله ومن بَعْدُ نفيه إلى سيلان، أنظر فى ذلك: ـ دزموند ستيوارت، من تاريخ الشرق الأوسط، ت: ـ معبد جانوس، دار النهار للنشر، ط 2، بيروت، 1981، ص 263.

أرسلته القوات البريطانية إلى الهند، ولما لم يفده العلاج، وربما لأن البريطانيين لم يعتبروه أسيراً، أو لأنه عرض خدماته عليهم، «فقد طلب نقله إلى مصر للتداوى، وفى الوقت عينه لمواصلة العمل للقضية العربية والاستفادة من محيط مصر، لأنه أكثر ملاءمة لذلك من محيط الهند»[29]، وهذا يفسر سبب وجود نورى السعيد فى مصر[30]، ولقائه بجعفر، ثم بالضباط الآخرين فى المعتقل، فقد نقل جعفر من معتقل المعادى إلى القلعة حيث يُعتقل الضباط العثمانيون أسرى الحملة العثمانية على قناة السويس، وحالما يتناول الحديث عن هؤلاء الضباط فإنه يبدى بعض الشكوى من مضايقتهم له، لأنهم كانوا يطالبون بزيادة أعطياتهم كأنما يعتبرونه مسؤولاً عنهم! كانوا من جهة أخرى يتهمونه بمأالأة نورى السعيد الذى واصل تردُّده عليه فى القلعة، وكانوا يتهمون نورى هذا بخيانة بلاده، حتى أن ضابطاً عربيًّا آخر هو (بشير الحلبى)، تهجم عليه أثناء إحدى زياراته وحاول إهانته بالضرب، ولكنَّ عدداً من الضباط العرب الآخرين ومنهم «المقدم ـ البكباشى حسين كويرى، ورفيق العظمة منعوه من وقاحته (كذا) وأشبعوه ضرباً»[31]، ويواصل جعفر فى معرض الدفاع عن تهمة الخيانة التى يمكن أن تطاله أيضاً بقوله: ـ «إنَّه ونورى السعيد كانا يفكران بالهرب والالتحاق بالسنوسى»[32]، ولا نعتقد ان الرجل كان صادقاً فى هذا، لأن وجهته إنما كانت بوضوح من وجهة نورى السعيد وعزيز المصرى فى الأثناء، وقد عرف موقف كل منهما قبيل نشوب الحرب العامة، هذا وخلافاً لما ذهب إليه الدكتور عبد

(29) المذكرات، ص 97.

(30) يقول نورى السعيد فى مذكراته: ـ «ولما احتل الانكليز البصرة كنت لم أزل مريضاً فى المستشفى فنقلونى إلى الهند، حيث بقيتُ مدة من الزمن، ثم نقلونى إلى مصر دون أن أعلم سبباً لذلك حتى الآن وكان ذلك فى سنة 1915»! أنظر فى ذلك: مذكرات نورى السعيد عن الحركات العسكرية للجيش العربى فى الحجاز وسوريا 1916 ـ 1918، الدار العربية للموسوعات، بيروت ـ لبنان، ط 2، 1987، ص 21.

(31) مذكرات العسكرى، ص 95، وكويرى هذا ضابط ليبى ممَّن ساهموا فى حركة الشريف حسين.

(32) نفس المصدر والصفحة.

المولى الحرير من «أن نورى السعيد كان من ضباط الحملة العثمانية على مصر وأنه مع جعفر العسكرى مَكَّنا الانجليز من أسرهما»[33]، فإن نورى السعيد إنَّما جاء من الشرق ـ كما أسلفنا ـ فى مهمةٍ نرجح أنها كانت سياسيَّة تبيَّنَتْ خطوطها فيما بعد، حيث استخدم كليهما وبشكل رئيسى، (الكتب العربى)[33] فى القاهرة لخدمة القوات البريطانية، والسياسات البريطانية عموماً، بالتعاون مع الشريف حسين ضد الدولة العثمانية.

الطور الثانى من حياة العسكرى: ـ

ومن هنا ينتهى طور من أطوار حياة جعفر العسكرى، الذى أسهم خلاله فى حركة جهاد الليبيين رفيقاً ومساعداً لنورى باشا، وباعتقاله ـ كما ذكرنا ـ بدأ الطور الثانى الذى أسهم خلاله فى أحداث ما عرف بالثورة العربية الكبرى، التى استخدم أثناءها أمير مكة (حسين بن على) والذى عرف بالشريف حسين، وسار بمن معه من المقاتلين العرب بقيادة بعض العناصر العربية الأخرى من أمثال عزيز المصرى الذى تخلَّى عن القيادة فى ظروف غامضة[35]، ليتولى (جعفر

(33) د. عبد المولى الحرير، العلاقات بين السيد أحمد الشريف ومصطفى كمال أتاتورك وأثرها على حركة الجهاد الليبى، مجلة الشهيد، العدد الرابع، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى، طرابلس ـ ليبيا (1983)، ص 184.

(34) (المكتب العربى): ـ مكتب استخبارات ومعلومات بريطانى، أسس فى القاهرة سنة 1916، وكان يضم عدداً من الضباط السياسيين ذوى الخبرة فى شؤون البلاد العربية، وهو من أجهزة وزارة الخارجية، ومهمته تقديم المعلومات عن البلاد العربية، وتنسيق علاقات بريطانيا السياسية معها، وكان المكتب واسطة الاتصال بين المندوب السامى البريطانى فى مصر وبين الشريف حسين فى الحجاز، ومن رجاله (كلايتون)، بل إنه كان مؤسسه الحقيقى، و(هو غارت) و(كورنواليس) و(سايمس) و(لورانس)، وقد أصدر المكتب العربى (النشرة العربية ـ Arab Bulletin)، وهى نشرة سرية تتضمن معلومات ومقالات سياسية وعسكرية، تتعلق ببلاد العرب، وقد أُغلق المكتب العربى فى تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1920، أنظر المذكرات، ص 101.

(35) يُشير محقق المذكرات أخذاً عن (د. فاضل حسين) فى (محاضرة له ألقاها وهو أستاذ بجامعة بغداد) إلى أن نورى السعيد وجعفر العسكرى كادا لدى الشريف حسين

العسكرى) القيادة خلفاً له يساعده فى المهمة من ضباط المكتب العربى (لورنس) الذى اختاره تشرشل بنفسه لهٰذه المهمة، ويذكر جعفر أن من بين الأهداف الرئيسية التى كلف بضربها خط سكة حديد الحجاز، وقد تولَّى إنجاز المهمة بمساعدة لورنس الذى كانت من بين خبراته العديدة إلى جانب الجوسسة والأثريات هندسةُ المتفجرات، وكان هناك جيشٌ آخر يقوم بنفس المهمة فى القطاع الشمالى من بلاد العرب، سائراً إلى نفس الهدف وهو طرد القوات العثمانية من الشام، وفى الخطوة الأولى تمكن (اللنبى) بقوات رئيسيَّة بريطانية وقوات حليفة فرنسية وإيطالية رمزية من اقتحام القدس، وأخيراً دمشق وحلب، وكان الفضل الأكبر على الدوام خلال تلك الحرب فى جلب الانتصار لجيوش الحلفاء معقوداً على تقدُّم التشكيلات العربية لجعفر التابعة لقيادة فيصل العليا.

فى القسم الثانى من الكتاب مجرد استكمال كان الأستاذ نجدة تمنَّى لو أن جعفراً بنفسه قام به، أو لو أن نورى السعيد قام بالمهمة قبل مقتله على يد رجال ثورة الثامن والعشرين من تموز (يولية) 1958، التى أطاحت بالمملكة الهاشمية فى العراق وبرجل سياستها نورى السعيد، ولعل من أهم وقائع هٰذا الفصل من المذكرات أن جعفراً، وكان لا يزال الحاكم العسكرى لمنطقة حلب كان على اتصال بأقطاب العمل البريطانى فى المنطقة، وكان من أبرز أولئك آنذاك الجنرال (كلايتون ـ رئيس المكتب العربى)، وقد تقلَّد أثناء الحملة البريطانية على الشام منصب رئيس الاستخبارات فى القيادة العامة لتلك الحملة، فكان جعفر يحاول إثارة قضية العراق وتحسين أوضاعها والاستفادة من خبرات العناصر العراقية التى كانت تشغل فى مجال الثورة العربية خبرات عسكرية ومدنية هامة، ولكن السياسة البريطانية كانت تؤجل ذلك إلى حين،

وأوهماه بأن عزيز المصرى ينوى الانقلاب عليه، فساءت علاقتهما، وتخلى عزيز عن المهمة، غير أن المحقق لا يتفق مع هٰذا الرأى ويستغرب مصادر الدراسة، أنظر الهامش على الصفحة 104 من المذكرات.

وكانت الآنسة (غرترود بيل)[36]، من بين أبرز من كان يعطف على مطالبه المتعلقة بالعراق وبخاصة ذٰلك الذى توجَّه نحو تأسيس كيان ملكى يرأسه أحد أبناء الحسين هو فيصل بصورة أخص.

لم يطل مكث جعفر فى حلب سوى سنة واحدة كحاكم عسكرى لها، لأن هٰذا المنصب كان قد تم الغاؤه، ولعل آخر ملاحظة تتعلق بالمذكرات أصلاً، وبما يدور حول نية استكمالها، هٰذا النص الذى نقرؤه فى الفصل الأخير منها والذى يقول: ـ «وإنى مورد فيما يلى بعض القصائد والمناشير والأناشيد كذكرى لما كان يحلم به العرب فى تلك الأيام»[37]، وفى مقابل هٰذا النص نقرأ ملاحظة قصيرة لمحقق المذكرات وضعها كهامش هى: ـ «لم تُدَوَّن فى الأصل»[38]، وكما يتبين من ذٰلك فإن محقق المذكرات كان يعنى بها أن تلك القصائد والمناشير إلخ لم تدَوَّن من قبل جعفر، ونحن طبقاً لما قررناه بشأن المذكرات نرى أنه أغفل تلك الملاحق (التكملة)، لظروف ربما تعلقت بمادتها أو بما يتصل بذلك من جهد ووقت. وعلى أيَّة حال وطبقاً لما ورد فى الفصل الملحق بالمذكرات من قبل محققها؛ فان جعفراً يتحوَّل إلى العراق وَيَحلُّ ببغداد فى 22 تشرين الأول

---

(36) جاء فى الموسوعة العربية الميسرة أنها: (بل، غرترود، مارغريت، موتيان: 1868 ـ 1926، خبيرة إنجليزية بشؤون الشرق الأدنى، ساحت فيه، وكتبت عنه، تخرجت من اكسفورد 1887، بدأت تجوب بلاد الشرق 1892، فزارت الاناضول وايران وسورية وزارت حائل عاصمة آل الرشيد فى شمال الجزيرة العربية 1914 فى الحرب العالمية الأولى، وضعت خبرتها بجغرافية الشرق ولغاته والشخصيات البارزة فيه فى خدمة الحكومة البريطانية، والتحقت بالمخابرات 1915، شغلت وظيفة ضابط اتصال بالمكتب العربى فى العراق، ولعبت دوراً بارزاً فى نشأة دولة العراق الحديثة، أنشأت متحف الآثار ببغداد وكانت أول مديرة له. من أهم مؤلفاتها، أشعار من ديوان حافظ 1897، والصحراء والبندر 1907، وقصر ومسجد الأخيضر 1914، وعرب ما بين النهرين 1917، وصور فارسية نشرت سنة 1928 غفلاً عن اسمها بعنوان (سفر نامه)، ص 391 من الموسوعة المذكورة.

(37) المذكرات، ص 169.

(38) المذكرات، هامش ص 169.

(أكتوبر) 1920، ويتولى وزارة الدفاع فى حكومة (عبد الرحمن النقيب)[39]، وفى هٰذه الفترة يساهم مساهمة فعَّالة فى تهدئة الثورات الشديدة التى قامت فى العراق، وبخاصة ثورة (عجيمى السعدون)، وكان السعدون متعاوناً مع الأتراك يكاد يطيح بالإنجليز وبمن كان يتعاون معهم، ويلاحَظُ أن هناك تعتيماً بالغ الشدة على حركة السعدون وغيره من رجال حركات الجهاد فى البلاد العربية، لأن الكتابة التاريخية خلال فترة طويلة كانت تخضع لظروف مماثلة لِما تَمرُّ به البلاد فى مجملها من ضغوط سياسية استعمارية، كانت فى مجملها منحازةً إلى الكيانات المصنوعة من قبل القُوى الخارجية.

وفى الجانب الأخير من الفصل الملحق، يختتم الدكتور نجدة تحقيقه للمذكرات بإثبات ملاحق لها اختارها من بين أهم الوثائق التى رأى لها قيمةً تاريخية فى موضوعها مثَّلَتْ فى مجملها: ـ علاقاته الوثيقة بالملك فيصل كصديق ومشير، وكذٰلك الأثر العميق الذى تركته وفاته لدى رجل سياسة (كأمين الحسينى)، وقد عبَّر عن ذٰلك فى رسالة التأبين التى بعث بها إلى صديقه (نورى السعيد)، كذٰلك علاقاته برجال الدولة والصحافة البريطانيين الذين سجَّلوا انطباعاتهم الشخصية والرسمية حول شخص جعفر وأهميته الكبيرة للسياسة البريطانية فى بلاد العرب[40].

(39) وهى حكومة مؤقتة انتقالية شكلت قبل وصول فيصل، الذى قدم بغداد فى اوائل حزيران (يونية) 1921، انظر: ـ سليمان موسى، الحركة العربية ـ المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، 1908 ـ 1924، دار النهار للنشر، بيروت ـ لبنان 1977، ص 601.

(40) تضمنت هٰذه الملاحق:

1 ـ مذكرة الملك فيصل عن مستقبل العراق، وقد سلَّم منها نسخاً لعدد من زعماء العراق بما فيهم جعفر.

2 ـ نسخة مترجمة من مقابلة مع وزير الخارجية البريطانية مستر راندل.

3 ـ نعى (جعفر العسكرى) من قبل جريدة التايمس اللندنية.

4 ـ خطاب تعزية موجَّهاً من أمين الحسينى إلى صديقه نورى السعيد.

5 ـ إشادة المستر ونستون تشرتشل بجعفر فى مجلس العموم البريطانى مؤرخة فى 14 حزيران 1921.

هٰـذه الملاحق مضـافة إلى مـا ورد فى متنها من معلومـات تُضفى عـلى مذكرات العسكرى أهمية قصوى من حيث تعريفها بجوانب من الحركة العربية المعاصرة فى مغربها ومشرقها، على الرغم من أن هٰذه الحركة لا تزال فى حاجة إلى مزيد العناية من قبل عناصر البحث الجادة.

ثبت بالمراجع

كتب منشورة

1 ـ أبو القاسم يحيى البارونى، حياة سليمان باشا البارونى زعيم المجاهدين الطرابلسيين، ط 2، القاهرة 1367 هـ 1948 م.

2 ـ أبو اليقظان الحاج إبراهيم، سليمان البارونى باشا فى أطوار حياته، جـ 1 المطبعة العربية فى الجزائر، 1976 ـ 1956.

3 ـ أحمد بن أبى الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار التونسية للنشر، تونس، 1396 هـ.

4 ـ أحمد النائب الأنصارى، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجانى، طرابلس ـ ليبيا.

5 ـ أمين سعيد، الدولة العربية المتحدة، جـ 3، دار الفتح، طرابلس ـ ليبيا 1356 هـ ـ 1938 م.

6 ـ أنور باشا، أنور باشا فى طرابلس الغرب، ترجمة وتقديم عبد المولى الحرير، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى، الجماهيرية، 1979.

7 ـ أوتونى غابيللى، قطر طرابلس من نهاية الحرب العالمية الى قيام الفاشيست، ترجمة عمر البارونى وخالد زكى ثابت، مخطوط، بمركز دراسة جهاد الليبين ضد الغزو الإيطالى، طرابلس.

8 ـ إيڤانس بريتشارد، السنوسيون فى برقة، نقله إلى العربية عمر الديراوى أبو حجلة، طرابلس ـ ليبيا، مكتبة الفرجانى، 1948.

9 ـ بيلاردينيللى، القبلة، من منشورات الحكومة الإيطالية بطرابلس مكتب الدراسات، نشر بايطاليا 3 مارس 1935، ترجمة الأستاذ عبد الرحمن العجيلى، مرقون، بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى طرابلس.

10 ـ بينيلدى غابرييللى، حكومة المستعمرة الطرابلسية فى علاقاتها مع الأهالى والسياسة الوطنية، 1916 ـ 1922.

11 ـ تُوللى، عشر سنوات فى بلاط طرابلس، ترجمة عمر الديراوى أبو حجلة مكتبة الفرجانى، طرابلس، 1961.

12 ـ جعفر العسكرى، مذكرات جعفر العسكرى، تحقيق وتقديم؛ نجدة فتحى صفوة، دار السلام، لندن، 1988.

13 ـ جماعة من الباحثين، عمر المختار ـ نشأته وجهاده من 1862 ـ 1931 مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى، 1981.

14 ـ جماعة من الباحثين، بحوث ودراسات فى التاريخ الليبى، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى طرابلس، 1984.

15 ـ جميل عارف، صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية، عبد الرحمن عزام، جـ 1، القاهرة ـ مصر، المكتب العربى الحديث، 1977.

16 ـ جميل هلال، دراسة فى الواقع الليبى، مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا، 1967.

17 ـ جورج ريمون، من داخل معسكرات الجهاد فى ليبيا، ترجمة د. محمد عبد الكريم الوافى، دار الفرجانى، طرابلس ـ ليبيا، 1392 هـ.

18 ـ جوفى: ـ Astrategy or sympathy, The French Occupation of the Western Jefara and the vellage of Dahibat, 1890-1891,

19 ـ الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، ط 2، جـ 1، مكتبة المعارف، بيروت ـ لبنان، 1977.

20 ـ حسن حسنى عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط 2، الدار التونسية للنشر، 1967.

20 ـ مكرر، حسين الحاج حسن، أدب العرب فى عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1404 ـ 1984.

21 ـ دزموند ستيوارت، من تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة معبد جانوس، ط 2، دار النهار، بيروت، 1981.

22 ـ رافائيل رابيكس، ترسيخ السيادة الإيطالية فى طرابلس الغرب، 1921 ـ 1926، تيينتسون كيلى، الصين، فصول قام بترجمتها عن الايطالية، محمد ظافر المدنى، مخطوطة، بدار المحفوظات التاريخية، لمصلحة الآثار، طرابلس ـ ليبيا، ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب تمت ترجمته من قبل الأستاذ شمس الدين عرابى بن عمران بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى، تحت الطبع.

23 ـ رودولفو ميكاكى، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلى، ترجمة حسن محمود وزميله، القاهرة، 1961.

24 ـ رياض عبد الصمد، العلاقات الدولية فى القرن العشرن، جـ 1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، مكان الطبع؟، د.ت.

25 ـ سليمان الباروني، صفحات خالدة من الجهاد، جمع وترتيب زعيمة الباروني، جـ 1 من الكتاب الأول، بيروت، 1381 هـ ـ 1962 م.

26 ـ سليمان موسى، الحركة العربية، المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، 1908 ـ 1924، دار النهار ـ بيروت، ط 2، 1977.

27 ـ شارل أندريه جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، ترجمة: ـ محمد مزالى والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969.

28 ـ شارل أندريه جوليان وجماعة من المؤرخين، الخطابى وجمهورية الريف.

29 ـ صالح العنترى، مجاعات قسنطينة، تحقيق رابح أبونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

30 ـ الطاهر الزاوى، جهاد الأبطال، ط 3، دار الفتح، طرابلس ـ ليبيا، 1393 هـ ـ 1973 م.

31 ـ نفس المؤلف، عمر المختار، مؤسسة الفرجانى للنشر، طرابلس ليبيا، 1390 هـ ـ 1970 م.

وهو طبعة ثانية لكتاب للمؤلف نفسه، صدرت الطبعة الأولى تحت اسم مستعار هو (أحمد محمود) القاهرة، مؤسسة الحلبى للنشر، 1352 هـ.

32 ـ عبد الجبار الراوى، البادية، مجهول مكان النشر، 1372 هـ 1972.

33 ـ عبد الرحمن تشايجى، المسألة التونسية، ترجمة عبد الجليل التميمى، دار الكتب الشرقية ـ تونس 1973.

34 ـ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ط 3، دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، 1967.

35 ـ عبد الرحمن عزام، كفاح الليبيين فى سبيل الحرية، ت: عماد غانم، نشر على حلقتين فى العددين الأول والثانى من مجلة الوثائق والمخطوطات، من منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى، طرابلس ـ ليبيا.

36 ـ د. عبدالله ابراهيم، وثائق عن تاريخ ليبيا فى القرن التاسع عشر.

37 ـ عزيز سامح، الأتراك العثمانيون فى افريقيا الشمالية، ت: ـ عبد السلام أدهم، بيروت، 1969.

38 ـ على مصطفى المصراتى، رسائل أحمد العليى بين طرابلس وتونس، الدار العربية للكتاب، تونس.

39 ـ على مصطفى المصراتى، مؤرخون من ليبيا مؤلفاتهم ومناهجهم، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس الغرب، ليبيا، 1976.

40 ـ عمر البارونى، الاسبان وفرسان القديس يوحنا فى طرابلس، مطبعة ماجى، طرابلس ـ ليبيا، 1952.

41 ـ عمر عبد العزيز، دراسات فى تاريخ العرب الحديث، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، 1978.

42 ـ كارلوغوتى، من مذكرات أنساباتو، العلاقات العربية الإيطالية، ت: ـ عمر البارونى، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى ـ طرابلس ـ ليبيا، 1980.

43 ـ لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامى، ت: ـ عجاج نويهض، مع تعليقات شكيب أرسلان على الكتاب، جـ 1، مجلد 1، دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع، ط 4، القاهرة، 1394 هـ ـ 1973 م.

44 ـ مالك بن نبى، إرهاصات الثورة، مكتبة المثنى، مطبعة دار الجهاد، القاهرة، 1972.

45 ـ مجهول المؤلِّف، أولاد سليمان فى ليبيا وتشاد، ت: ـ ميمى صليبا الصائغ، مخطوط، بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالى، طرابلس.

46 ـ محمد إبراهيم لطفى المصرى، تاريخ طرابلس الغرب، مطبعة مؤسسة الأمير فاروق، بنها، مصر، 1946.

47 ـ محمد الأخضر العيساوى، رفع الستار عما جاء فى كتاب عمر المختار، مطبع حجازى، القاهرة، 1355 هـ ـ 1936 م.

48 ـ محمد الطيب الأشهب، برقة العربية أمس واليوم، مطبعة الهوارى، القاهرة، 1947.

49 ـ محمد عبد الكريم الوافى، الطريق إلى لوزان، دار الفرجانى، طرابلس ـ ليبيا، 1398 ـ 1978.

50 ـ محمد عبده محجوب، مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية، ط 2، وكالة المطبوعات، الكويت، 1974.

51 ـ محمد ماضور، مقدمة الكتاب الباشى، للعلامة الوزير الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز، جـ 1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970.

52 ـ محمد المرزوقى، الدغباحى، مكتبة المنار، تونس، 1979.

53 ـ نفس المؤلف، دماء على الحدود، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1395 ـ 1975.

54 ـ نفس المؤلف، صراع مع الحماية، دار الكتب الشرقية، تونس، 1973.

55 ـ نفس المؤلف، عبد النبى بالخير داهية السياسة وفارس الجهاد، الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس، 1391 هـ 1978.

56 ـ محمد فؤاد شكرى، ميلاد دولة ليبيا الحديثة، جـ 1، مجلد 2، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1957.

57 ـ محمد فؤاد شكرى، السنوسية دين ودولة، القاهرة، دار الفكر العربى، 1948.
58 ـ محمد مسعود فشيكة، رمضان السويحلى، الشهير بكفاحه للإيطاليين، طرابلس ـ ليبيا، مكتبة الفرجانى، 1394 هـ ـ 1974 م.
59 ـ محمود الشنيطى، قضية ليبيا، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951.
60 ـ د. مصطفى كريم، تونس قبل الاستعمار، إى، بى، فى، 1973.
61 ـ موريس كروزويه، العهد المعاصر، تعريب: ـ يوسف داغر وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت، 1970.
62 ـ موسى الكاظم التونسى، وثائق التدخل الأجنبى فى الوطن العربى، جـ 1، دار البعث للصحافة والنشر والتوزيع، دمشق، 1972.
63 ـ د. ناصر الدين سعيدونى، النظام المالى فى الجزائر فى الفترة العثمانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979.
64 ـ نجم الدين غالب الكيب، لمحات عن الحياة العسكرية فى ليبيا، 1711 ـ 1835، بيروت ـ لبنان، 1967.
65 ـ نفس المؤلف، فصول فى التاريخ الليبى، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، د.ت.
66 ـ نورى السعيد، مذكرات نورى السعيد عن الحركات العسكرية للجيش العربى فى الحجاز وسورية، 1916 ـ 1918، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط 2، 1987.
67 ـ الهادى إبراهيم المشيرقى، ذكرياتى فى نصف قرن من الأحداث السياسية والاجتماعية، تحت الطبع، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى.
68 ـ هنريكو دى أغوسطينى، سكان ليبيا، تعريب وتقديم: ـ خليفة محمد التليسى، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان، 1395 ـ 1975.

«معاجم ـ دوائر معارف ـ موسوعات»

1 ـ أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، جـ 2، قصر العينى، القاهرة، 1973.
2 ـ بطرس البستانى، كتاب دائرة المعارف، مجلد 5، نسخة مصورة، تهران، مؤسسة مطبوعاتى إسماعيليان، بيروت ـ لبنان، 1900.
3 ـ جبران مسعود جبران، الرائد، ط 2، دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1967.
4 ـ جبور عبد النور، المعجم الأدبى، دار العلم للملايين، بيروت ـ 1979.
5 ـ دائرة المعارف الاسلامية، نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندى وآخرون، 1352 ـ 1933.
6 ـ الطاهر الزاوى، معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس ـ ليبيا، 1388 هـ ـ 1968 م.
مجدى وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1979.
7 ـ مؤسسة فرانكلين، الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة، 1965. وزارة الإعلام والثقافة، البيبلوغرافيا الوطنية الليبية، جـ 1، الدوريات 1282 ـ 1391 هـ و1866 ـ 1971، مطابع الجمهورية، ليبيا 1972.

«بحوث ومقالات»

1 ـ بهجت القرمانلى، المجاهد طارق الإفريقى، مجلة الشهيد، العدد المزدوج: 7 ـ 8، طرابلس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى، 1986 ـ 1987.
2 ـ جوانى مارتينى، كلمة حقّ للمحترم جوانى مارتينى المحامى الشهير المنصف الكبير، المبعوث سابقاً فى مجلس الأمة الإيطالى، اللواء الطرابلسى، العدد الخامس، 6 من نوفمبر 1919.

3 ـ عبد العظيم رمضان، الزملة الجزائرية أكبر عاصمة متحركة عرفها التاريخ العربى، مجلة العربى، عدد 253.
4 ـ عبد المولى الحرير، العلاقات بين السيد أحمد الشريف، ومصطفى كمال أتاتورك وأثرها على حركة الجهاد الليبى، مجلة الشهيد، العدد الرابع، 1983.
5 ـ على البوصيرى على، مقال: ـ الزعامات الوطنية، مجلة الشعب المسلح، طرابلس، عدد 44.
6 ـ عمرو سعيد بغنى، الصفوف القبلية، دراسة فى أصولها وآثارها على حركة الجهاد المغاربية، مجلة الشهيد، طرابلس، السنة الرابعة، عدد 4، اكتوبر 1983.
7 ـ عمرو سعيد بغنى، قراءة جديدة فى ذكريات عزام، مجلة الشهيد، العدد 5.
8 ـ عمرو سعيد بغنى، حركة الجهاد الليبى خلال الفترة من 1919 ـ 1921، مضمنة فى كتاب بحوث ودراسات فى التاريخ الليبى، جـ 2 ـ 1984.
9 ـ عمرو سعيد بغنى، الجمهورية الطرابلسية، مجلة الشهيد، عدد 2، طرابلس، 1981. عقيل البربار، الأسس الاقتصادية والاجتماعية لحركة جهاد عمر المختار، 1923 ـ 1931، نشر ضمن كتاب عمر المختار نشأته وجهاده 1862 ـ 1931، الجماهيرية، 1981.
10 ـ لطفى رضوان، ذكريات عبد الرحمن عزام، مجلة المصور، الحلقات بدءاً بالعدد 1325 الصادر بتاريخ 3 مارس 1950 إلى العدد 1343 المؤرخ فى 7 يولية 1950.
11 ـ ماريو سكابرو، مقال ترجمه عن الإيطالية: بهجت القرمانلى تحت عنوان: ـ (صحافة طرابلس ضد الاحتلال الإيطالى).
12 ـ د. محمد توفيق، تهنئة المصريين لإخوانهم الطرابلسيين، اللواء الطربلسى، عدد 8، 13 من ربيع الأول 1337 ـ 27 من نوفمبر 1919.

13 ـ محمد عبد الغنى حسن أدب المذكرات والذكريات فى الإنتاج الأدبى قديماً وحديثاً، مجلة الوعى العربى، العدد الأول، القاهرة، 1396 هـ يونية (حزيران) 1976.
14 ـ مختار بن يونس، من سجل الشهداء الخالدين، مجلة الشهيد، عدد 3، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى، طرابلس، 1982.
15 ـ مصطفى سعد الهاين، الشهيد عمر المختار الشعبى، نشر ضمن كتاب: ـ عمر المختار، نشأته وجهاده 1882 ـ 1931، الجماهيرية، 1981.
16 ـ مصطفى على هويدى، تأثير الحرب العالمية الأولى على حركة الجهاد الليبى، مضمنة فى كتاب بحوث ودراسات فى التاريخ الليبى، جـ 2، الجماهيرية، 1984.
17 ـ د. ناصر الدين سعيدونى، الإنسان الأوراسى وبنيته الخاصة، مجلة الأصالة، العدد 60 ـ 61، رمضان ـ شوال 1396 هـ ـ أوت ـ سبتمبر 1978.
18 ـ د. ناصر الدين سعيدونى، دور قبائل المخزن فى دعم الحكم التركى بالجزائر، مجلة الأصالة بالجزائر، العدد 22 ـ 1976.
19 ـ د. ناصر الدين سعيدونى، وضعية عشائر المخزن الاجتماعية والآثار التى ترتبت عليها، المجلة التاريخية المغربية، (تونس)، العدد 7، 8 من يناير 1977.

«دوريات»

1 ـ اللواء الطرابلسى، العدد 11، طرابلس ـ ليبيا، 18 من ديسمبر 1919.
2 ـ اللواء الطرابلسى، العدد 13، أول يونية 1919.
3 ـ اللواء الطرابلسى، العدد 42، 5 من ذى الحجة 1338 هـ ـ 3 من أغسطس 1920.

«وثائق»

1 ـ الجريدة الرسمية لحكومة طرابلس الغرب عدد 13، المرسوم الملكى الإيطالى رقم (10) محرر فى روما بتاريخ أول يونية 1919.

2 ـ رسالة سليمان الباروني الى محمد فرحات مؤرخة فى جمادى الثانية 1337 هـ.

3 ـ رسالة محمد إدريس السنوسى إلى وكيل وإلى بنغازى (موكاغاطّا، مؤرخة فى 16 من شوال 1335هـ.

«رويات شفهية»

1 ـ أبو القاسم على ضوء كله شريط 60 ـ 6 بالمكتبة الصوتية، مركز جهاد الليبيين.

2 ـ أحمد سعيد غميض شريط 10 ـ 6 بالمكتبة الصوتية، مركز جهاد الليبيين.

3 ـ سعيد اسماعيل الفروى شريط 80 ـ 6.

4 ـ سعيد على الساحلى، شريط 81 ـ 6.

5 ـ سليمان يونس العيدودى ، شريط 79 ـ 6.

6 ـ عبد السلام الصغير المريض، شريط 40 ـ 9.

7 ـ عبد السلام محمد نصيَّة، شريط 38 ـ 6.

8 ـ عبدالله خليفة، شريط، 9 ـ 6.

9 ـ عبدالله محمد العتيرى، شريط 19 ـ 6.

10 ـ على أحمد الباطل، شريط 85 ـ 6.

11 ـ على خليفة الأزعر، شريط 103 ـ 6.

12 ـ على محمد قليزة، شريط 82، 83، 84 ـ 6.

13 ـ محمد على الحداد، شريط 35 ـ 2.

14 ـ عون محمد لبز، شريط 55 ـ 6.

15 ـ محمد عمر المسلاتى، شريط 47 ـ 2.

16 ـ يوسف أحمد عمليش، شريط 78 ـ 79 ـ 6.

17 ـ يونس عمروعبازة، شريط 77 ـ 6.

«افادات تحريرية وشفهية»

1 ـ أحمد عطية مدلل، إفادة تحريرية عن الجيلانى حسن محمد محرر مجلة اليقظة، طرابلس، 1989.

2 ـ خالد زكى ثابت، إفادة شفهية حول المصطلح الايطالى Indigino ومتعلقاته بالمواطنة الإيطالية التى منحت لليبيين فى ظل فترة الاستقلال الذاتى 1919.

3 ـ شمس الدين عرابى بن عمران، إفادة تحريرية مؤرخة فى 4 ـ 12 ـ 1984 محفوظة بمكتبتى وتتعلق بالمصطلحات الايطالية السياسية التى سادت خلال فترة الاحتلال الايطالى.

4 ـ عبد السلام الشرتاع، إفادة شفهية عن مقابلة مسموعة مسجلة أجراها مع الحاج عبد السلام الصغير المريض، 1981.

5 ـ على البوصيرى على، إفادة شفهية عن ميهوب القطعى.

6 ـ الشاطىء، 1978.

«محاضرات»

1 ـ مالك بن نبى، محاضرة بعنوان: ـ فى الطريق إلى عالم الأفكار، ألقيت بجمعية الفكر الليبية، الموسم الثقافى، 1962، نشر جمعية الفكر، طرابلس، أغسطس 1969.

2 ـ د. عقيل البربار، محاضرة بعنوان: ـ المواقف السلبية لبعض الزعامات فى حركة الجهاد، طرابلس، 18 ـ 3 ـ 1983.

3 ـ عمار جحيدر، محاضرة بعنوان: ـ ملاحظات نظرية حول تاريخ ليبيا الاجتماعى فى العصر الحديث، ألقيت بمركز دراسة جهاد الليبيين يوم 20 ـ 4 ـ 1983.

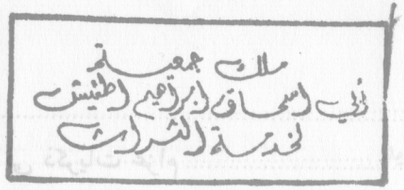

المحتويات

الاهداء 5
مقدمة 7

الفصل الأول: 11
- الصفوف القبلية: «دراسة فى أصولها وآثارها على حركة الجهاد المغاربية» 13
- اطلالة عامة 13
- المخزن والسيبا أصلًا تناقض 18
- وباحثون يرون نشأة الصفوف تونسية 20
- نزعة الانقسام تعود الى فترات أقدم 22
- التجمعات القبلية بين الأصول التاريخية وعوامل التأثير الخارجية 25
- الروابط الاجتماعية تتسع وتضيق 27
- عوامل أخرى وراء استمرار العلاقات الثأرية فى ليبيا 27
- التركيبة الاجتماعية فى ليبيا خلال الفترة العثمانية 29
- يوسف باشا وصراع الصفوف 32
- يوسف باشا يثير العداء بين القبائل 33
- الوسم إحدى مميزات الصفوف 40
- الصفوف القبلية ليست بناء جامداً 44
- أهل بغى واصل طاعة 48
- النشأة البيئية وإيجابيات الصفوف 55
- دعوة الجهاد ووحدة الموقف 56
- دور المعية ونواة تحالف وطنى 68

الفصل الثاني: 71
- قراءة جديدة فى ذكريات عزام 73
- تمهيد 73
- عزام وحرب البلقان 77
- من الدعوة للامارة إلى ساحة الجهاد 78
- مشاركون فى جهاد الفترة تنوه بهم الذكريات 84
- نورى وعمر المختار 85
- عزام فى الزويتينة 85
- من مصراتة إلى برلين 89
- استدعاء عزام إلى استانبول 90
- حكاية صورة 92
- طائرات بريطانية وإيطالية تقصف الشواطئ الليبية 95
- آراء ومواقف حيال بعض القيادات 96
- فكرة الجمهورية ومولدها 99
- الوساطة العثمانية 101
- الرجل الحر 102
- الفترة المغفلة 105

الفصل الثالث: 109
- الجمهورية الطرابلسية 111
- مقدمة فى اصول المصطلح 111
- علاقات دلالية 113
- المفهوم التنظيمى وجمهوريات عربية 116
- الجمهورية الطرابلسية وبناء الكيان 123
- الحوار التاريخى 133
- كيف ومتى تم تشكيل الجمهورية؟ 137
- مؤتمر مسلاتة 140
- اتصالات مبكرة 148

- خيانة عبد القادر 149
- المفاوضات من جديد 151
- سلبيات 152
- الجمهورية مغنم وطنى 153
- أثر قيام الجمهورية على الشرق والغرب العربيين 153
- المفاوضات تحل الجمهورية 154

الفصل الرابع: 157
- مفاوضات خلة الزيتونة 159
- فكرة التفاوض ومواقف حولها 159
- الجولة الأولى 165
- الجولة الثانية 169
- الجولة الثالثة 172
- الجولة الرابعة 175
- مذكرة الجمهورية 176
- الجولة الخامسة 181
- الجولة السادسة 186
- المشروع الوطنى للإدارة المختارة (الاستقلال الداخلي) 187
- الجولة النهائية 189
- القواعد التى قام عليها الدستور 190
- تبادل الأسرى 194
- المرسوم الملكى بمشروع القانون الأساسى للقطر الطرابلسى 195
- بيان غاريونى يوم أول يونية 196

الفصل الخامس: 199
- من اشكاليات القانون الأساسى لحكومة قطر طرابلس سنة 1919 201
- اشكالية الصوت والإستماع 208
- القانون والتمييز العنصرى 209

الفصل السادس: 215
- هوامش واستقصاءات حول مذكرات العسكرى 217
- العسكرى - ميلاده ونشأته 217
- جعفر يرافق نورى إلى ليبيا 220
- جعفر يقابل جمال باشا فى القدس 222
- مقتل الفيلالى 224
- لمن يكتب الرجل؟ 226
- من المعتقل إلى قصر السلطان 230
- أمام نورى السعيد وجهاً لوجه 231
- الطور الثانى من حياة العسكرى 231
- ثبت بالمراجع 239
- المحتويات 251